مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

المقاومة الفلسطينية في سياق حركات التحرر العالمية

دراسة مقارنة في البنى والإستراتيجيات

تأليف جماعي

تحرير: عزالدين عبد المولى – الحاج محمد الناسك – فاطمة الصمادي

المقاومة الفلسطينية
في سياق حركات التحرر العالمية

دراسة مقارنة في البنى والإستراتيجيات

المقاومة الفلسطينية
في سياق حركات التحرر العالمية

دراسة مقارنة في البنى والإستراتيجيات

تأليف جماعي

تحرير: عزالدين عبد المولى – الحاج محمد الناسك – فاطمة الصمادي

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: مايو/أيار 2026 م - 1447 هـ

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي مركز الجزيرة للدراسات

ردمك (الدار العربية للعلوم) 978-614-01-3876-6

جميع الحقوق محفوظة

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الدوحة - قطر
هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)
فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

التوزيع في المملكة العربية السعودية
شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر
السجل التجاري 1010921463

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

التجهيز وتصميم الغلاف: **قطاع الإبداع الفني بشبكة الجزيرة الإعلامية**

المحتويات

مقدمة 11

من القسّام إلى كتائبه: استمرارية المقاومة الفلسطينية وترابط مساراتها التاريخية 17
بلال محمد شلش

استراتيجيات المقاومة الفلسطينية في حرب طوفان الأقصى (2023–2025) 33
علاء جمال النجار

اللغة المبصرة وسلطتها الرمزية: دراسة في خطابات الملثم أبو عبيدة 55
فاطمة الصمادي

مقاومة الاستعمار الأوروبي في الأميركتين وأصداؤها في مسيرة النضال الفلسطيني 93
مويزيس غاردونيو غارسيا

الثورة الجزائرية وتصفية الاحتلال الاستيطاني الفرنسي (1954–1962) 113
مصطفى داودي

المقاومة الريفية بقيادة الخطابي (1921–1926) 149
الحاج محمد الناسك – رشيد أعراب

استراتيجية المقاومة الفيتنامية 185
ليو سيانيبار

نضال جنوب إفريقيا ضد الاستعمار والفصل العنصري 209
نعيم جيناه

مسارات الاستقلال في أميركا اللاتينية: الحلقات المركزية 229
برونو بيكليني

جدلية الخصوص والعموم في حركات التحرر: المقاومة الفلسطينية في سياق النضال العالمي ضد الاستعمار
عز الدين عبد المولى – الحاج محمد الناسك 247

تراجم المحررين والمؤلفين

عز الدين عبد المولى، مدير إدارة البحوث بمركز الجزيرة للدراسات، حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة أكستر البريطانية، والماجستير في السياسة الدولية من جامعة لندن. تغطِّي اهتماماته البحثية الشؤون العربية وقضايا الشرق الأوسط ونظريات العلاقات الدولية ونظريات التحوُّل الديمقراطي. ترجم وحرَّر وأسهم بفصول في عدة كتب باللغتين العربية والإنجليزية. شارك بأوراق بحثية في العديد من المؤتمرات الإقليمية والدولية. من مؤلفاته كتاب "العرب والديمقراطية والفضاء العام"، وكتاب "الانتقال الديمقراطي في تونس".

الحاج محمد الناسك، باحث في مركز الجزيرة للدراسات، حاصل على الدكتوراه في التاريخ المعاصر. له أبحاث منشورة في مجلات محكّمة منها مجلة "تبيّن" التي يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ومجلة "هيسبريس تمودا" التي تصدرها جامعة محمد الخامس بالرباط. من أعماله كتاب "ذكريات أحمد الريسوني: من رعي الغنم إلى رئاسة اتحاد العلماء"، و"اليهود وتحوُّلات المغرب المعاصر" (تحت الطبع). وأسهم بفصول في كتب عدة، منها: "الجزيرة تروي قصتها: دراسات في العمق"، و"تاريخ المغرب المعاصر: الماضي والزمن الراهن"، وأنتج عددًا من البرامج والأفلام الوثائقية، منها: "الجزيرة نهج فريد".

فاطمة الصمادي، باحث أول في مركز الجزيرة للدراسات، متخصِّصة في الشأن الإيراني ومشرفة على دراسات إيران وتركيا ووسط آسيا، تحمل درجة الدكتوراه من إيران عن رسالتها حول المضامين النسوية في سينما المرأة الإيرانية. لديها عدد من الكتب والأبحاث المتعلقة بالشأن الإيراني من أبرزها: "التيارات السياسية في إيران"، و"التقارب الإيراني الأميركي: مستقبل الدور الإيراني"، و"إيران وحماس: من مرج

الزهـور إلـى طوفـان الأقصـى". تركِّـز أبحاثهـا علـى السياسـة الإيرانيـة الداخليـة والخارجية، العلاقات الإيرانية العربية، الحركات الاجتماعية والسياسية في إيـران، والقضايا النووية الإيرانية، وشؤون وسط آسيا.

بـلال محمـد شـلش، باحـث فلسـطيني متخصِّـص في التـاريخ، يعمـل باحثًا في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مسؤولًا عـن أرشـيف ذاكـرة فلسـطين ومنسقًا لبوابة فلسطين في هيئة البلدان بالموسوعة العربية "أرابيكا". تتركَّز اهتماماته البحثيـة علـى تـاريخ المقاومـة الفلسـطينية المسـلحة، وتـاريخ الحركـات السياسـية الفلسـطينية المعاصـرة. مـن مؤلفاتـه "شـيء عـابر.. نـابلس تحـت الاحـتلال (حزيـران/ يونيـو 1967 – آذار/ مـارس 1969): مـذكرات ووثـائق حمـدي طـاهر كنعان"، و"يافا.. دم على حجر: حامية يافا وفعلها العسكري (دراسة ووثائق)".

عـلاء جمـال النجـار، كاتـب وباحـث فلسـطيني متخصِّـص في الشـؤون الاسـتراتيجية والسياسـية والأمنيـة. حاصـل علـى درجـة الماجسـتير في الدراسـات الإقليمية والدولية من الجامعة الإسلامية في غـزة، ودبلـوم في العلـوم العسـكرية مـن أكاديمية فلسطين للعلوم العسكرية بغزة. لاجئ مـن قريـة "هُـوْج" المحتلـة، يقيـم في قطاع غزة، وينشط في العمل الوطني الفلسطيني الميداني والفكري. تغطِّي اهتماماته البحثية القضية الفلسطينية والمقاومة والحروب غير المتماثلة. مـن مؤلفاتـه كتـاب "رؤية حول الأمن القومي الفلسطيني"، المنشور سنة 2024.

مـويزيس غـاردونيو غارسـيا (Moisés Garduño García)، أسـتاذ العلاقـات الدوليـة بكليـة العلـوم السياسـية والاجتماعيـة في الجامعـة الوطنيـة المسـتقلة بالمكسيك. يحمل درجة الدكتوراه في الدراسات العربية المعاصـرة، وهـو عضـو في الشبكة الوطنية للباحثين المكسيكيين، ومدير مشروع "الشرق الأوسط وغـزة". نـال جائزة الباحثين الشباب في العلوم الاجتماعية من الأكاديمية المكسيكية للعلوم عـام 2022، وانضـمَّ عـام 2025 إلـى المجلـس الأكـاديمي لمركـز الدراسـات العربيـة المعاصـرة في مدريـد. مـن مؤلفاتـه "تـاريخ مـوجز لإيـران الحديثـة"، و"التفكيـر في فلسطين من منظـور الجنـوب العـالمي"، و"العدالـة الاجتماعيـة في الشـرق الأوسـط وشمال إفريقيا".

مصطفى داودي، أستاذ التعليم العالي بالجزائر منذ عام 2007. من مؤلفاته "قراءة نقدية في نصوص وأدبيات الحركة الوطنية"، وله دراسات عديدة منشورة في مجلات محكّمة، منها "الثورة الجزائرية بين الفكر الاستعلائي الغربي وإرادة التحرُّر"، و"عوامل وأسباب قيام أولاد نايل بالمقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي: منطقة الجلفة نموذجًا". شارك في عدة ملتقيات وطنية ودولية، وترأس فرقًا بحثية بالمركز الوطني للبحث العلمي التابع لوزارة التعليم العالي. يشغل عضوية العديد من المخابر والفرق العلمية بالجامعات ومراكز الأبحاث والجمعيات العلمية.

رشيد أعراب، أستاذ العلاقات الدولية والسياسة الخارجية في أكاديمية جوعان للدراسات الدفاعية في قطر، وزميل باحث في مجموعة أبحاث "إنترآسيا" بجامعة برشلونة المستقلة. حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، والماجستير في العلاقات الدولية والأمن والتنمية، والماجستير في الفلسفة. اشتغل بجامعة برشلونة المستقلة، والجامعة المفتوحة في كتالونيا، وكان باحثًا زائرًا في جامعة برنستون، وكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ومركز دراسات الخليج بجامعة قطر. تتركَّز أبحاثه على سياسات الأمن والدفاع، والجغرافيا السياسية للطاقة، والدبلوماسية، والحركات الاجتماعية. له مقالات في دوريات محكّمة وفصول في كتب محرّرة بعدة لغات.

ليو سيانيبار (Leo Sianipar)، أكاديمي وباحث إندونيسي متخصِّص في دراسات الدفاع الوطني. تتركَّز اهتماماته البحثية على موضوعات المرونة الاجتماعية والاقتصادية، والقيادة السياسية، والاستقرار الوطني. له العديد من الكتب والمقالات العلمية المنشورة في مجلات محكّمة. من بين مؤلفاته كتاب "مختارات عن الحرب الروسية – الأوكرانية"، وكتاب "نظام الدفاع والأمن الشعبي الشامل في إندونيسيا من منظور ميزانية الدفاع الوطني". من أعماله حول المقاومة الفيتنامية دراسة بعنوان "تأملات في الاستراتيجية الفيتنامية في مقاومة الاحتلالين الفرنسي والأميركي".

نعيم جيناه، المدير التنفيذي لمركز إفريقيا والشرق الأوسط في جوهانسبرغ، ونائب رئيس معهد دينيس هيرلي للسلام في بريتوريا. باحث أول في معهد

مابونغوبوي للتفكير الاستراتيجي، وباحث مشارك في قسم السياسة والعلاقات الدولية بجامعة جوهانسبرغ. تغطّي أبحاثه الجغرافيا السياسية، وقضايا الدولة في جنوب إفريقيا، وإفريقيا والشرق الأوسط. من مؤلفاته "اللاعنف والكفاح المسلح والسياسة: حوار مع روني كاسريلز"، و"حركة التحرُّر الوطني والنسويات الإسلامية في جنوب إفريقيا". من أحدث أعماله كتاب "حالة الدولة في جنوب إفريقيا: القدرة والكفاءة والأخلاقيات" (محرّر مشارك).

برونو ليما روشا بياكليني (Bruno Lima Rocha Beaklini)، أكاديمي وإعلامي برازيلي من أصول عربية. يعمل صحفيًّا محترفًا في إحدى القنوات البرازيلية ويحمل درجة الدكتوراه والماجستير في العلوم السياسية، إلى جانب درجة ما بعد الدكتوراه في كل من الاقتصاد الدولي والاتصال المضاد للهيمنة. يزاول التدريس الجامعي منذ عام 2008، ويعمل أستاذًا للعلاقات الدولية منذ عام 2013. له حضور إعلامي إذاعي وتلفزيوني واسع في بلدان أميركا اللاتينية وخارجها، فضلًا عن إسهاماته المنتظمة في وسائل الإعلام العربية.

مقدمة

يُعدُّ كتاب "المقاومة الفلسطينية في سياق حركات التحرُّر العالمية: دراسة مقارنة في البنى والاستراتيجيات"، محاولة لإعادة التفكير في "عالم ما بعد الطوفان"، والتفاعل الجدلي بين المستويين الإقليمي والعالمي. وقد انبنى هذا الجهد الجماعي على فرضية مركزية مؤدّاها أن عملية "طوفان الأقصى" في 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، التي نفَّذتها المقاومة الفلسطينية في غزة، لم تكن حدثًا عابرًا في سياق الصراع، بل شكَّلت نقطة تحوُّل أعادت القضية الفلسطينية إلى عناوين الأخبار ووضعتها في قلب الاهتمام الدولي، وأثَّرت في مسارات إعادة تشكيل الإقليم.

يأتي هذا العمل في سياق مشروع بحثي أطلقه مركز الجزيرة للدراسات في وقت مبكّر بعد طوفان الأقصى، إدراكًا منه أن تداعياته لن تقتصر على الاحتلال والإقليم وحسب، إنما سيتَّسع نطاقها إلى خارج حدوده، وهو ما أكَّدته، وما زالت تؤكِّده، مجريات الأحداث.

في هذا الإطار، يسعى الكتاب إلى تجاوز القراءات الاختزالية التي تكتفي بالتركيز على الحدث في معزل عن جذوره. وهي قراءات برزت بوضوح في بعض التغطيات الإعلامية الغربية التي أغفلت السياق التاريخي للصراع، وقدَّمته على أنه انفجار مفاجئ منفصل عن مسار طويل من الاستعمار والصراع. لذلك، يؤكِّد هذا العمل ضرورة قراءة الحدث ضمن سيرورته التاريخية الممتدة، بما يكشف عن عمق التراكمات التي أفضت إليه، وعن طبيعة التحوُّلات التي ترتَّبت عليه.

يعتمد هذا العمل مقاربة تاريخية مقارنة، تضع حركة التحرُّر الفلسطينية في سياقها التاريخي منذ مرحلة الانتداب البريطاني، مرورًا بتبلور المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني، وصولًا إلى التحوُّلات المعاصرة في أنماط المقاومة وأشكال الفعل السياسي. وفي الوقت ذاته، ينفتح التحليل على تجارب

حركات التحرُّر في العالم العربي وآسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، بما يتيح فهمًا أعمق لأوجه التشابه والاختلاف في بنى الصراع وآليات المقاومة. وتتمثَّل أطروحة الكتاب في أن التجربة الفلسطينية، على الرغم من خصوصيتها التاريخية وطبيعة الاحتلال الصهيوني، لا تنفصل عن الإطار العالمي الأوسع لحركات مقاومة الهيمنة الاستعمارية، وأن إدراجها ضمن هذا الأفق المقارن يُمكِّن من تفكيك السرديات الاختزالية، ويُسهم في بناء فهم مركب للراهن، يربط بين الجذور التاريخية والتداعيات المستقبلية، في عالم يشهد تحوُّلات متسارعة في موازين القوة والشرعية.

ينطلق هذا العمل من توظيف التاريخ المقارن بوصفه أداة تحليلية لتفسير ظاهرة المقاومة في سياقات تاريخية متعدّدة، من خلال تجاوز القراءة الأحادية للحالات الفردية، ووضعها ضمن أفق أوسع يكشف عن أنماط التفاعل بين البنى الاجتماعية، والسلطة السياسية، واستراتيجيات الفعل المقاوم. فالمقاومة، في هذا الإطار، لا تُفهم بوصفها استجابة ظرفية، بل على أنها عملية تاريخية مركّبة تتشكَّل ضمن شروط بنيوية متغيّرة، لا يمكن إدراكها إلا عبر المقارنة المنهجية بين تجارب مختلفة[1]. ويُعدُّ إسهام مارك بلوخ (Marc Bloch)، ثاني اثنين أسَّسا "مدرسة الحوليات"، أساسًا لهذا التحوُّل، إذ شدَّد على أن القيمة المعرفية للمقارنة تكمن في كشف الفروق البنيوية بين المجتمعات، لا في تعميم التشابهات، وهو ما يسمح بفهم الأسباب التي تجعل المقاومة تتخذ أشكالًا مختلفة تبعًا للسياق التاريخي والاجتماعي[2].

يُعدُّ المنهج المقارن في دراسة التاريخ أداة ضرورية لتطوير البحث التاريخي، ويقوم على مقارنة ظواهر متشابهة في مجتمعات مختلفة للكشف عن أوجه التشابه والاختلاف وتفسيرها بشكل أدق. وتتطلَّب المقارنة وجود قدر من التشابه بين الظواهر واختلاف في البيئات التي ظهرت فيها، وهو ما يسمح بفهم أعمق للأسباب الحقيقية بدل الاكتفاء بتفسيرات محلية محدودة. ويميِّز قاموس المفاهيم التاريخية بين نوعين من المقارنة: الأولى واسعة بين مجتمعات متباعدة، والثانية بين مجتمعات متقاربة زمنيًّا ومكانيًّا، وهي الأكثر دقة وفعالية. وتكمن أهمية هذا

المنهج في قدرته على مساعدة المؤرخ على اكتشاف الظواهر الخفية، وتفسيرها، وتجنُّب الأخطاء الناتجة عن التركيز على العوامل المحلية فحسب، مع إبراز خصوصية كل مجتمع ضمن إطار تاريخي أوسع.

من منظور تحليلي، يُستخدم التاريخ المقارن أداة لاختبار الفرضيات المتعلقة بظهور الظواهر الثورية؛ إذ يمكن تفسير حدوث ثورة في مجتمع معيّن من خلال مقارنة شروطها بعوامل مماثلة أو مغايرة في مجتمعات أخرى. وبهذا المعنى، يصبح المنهج المقارن وسيلة لفهم ديناميات التغيير الثوري، سواء من حيث أسبابه البنيوية، أم مساراته، أم نتائجه السياسية والاجتماعية[3].

في هذا السياق، يكتسب تحليل المقاومة بعدًا بنيويًّا مع أعمال ثيدا سكوكبول (Theda Skocpol)، التي أبرزت أن التحوُّلات الثورية لا يمكن تفسيرها من خلال الفاعلين وحدهم، إنما عبر تفاعل البنى الاجتماعية والدولية. ويمكن إسقاط هذا المنظور على حركات المقاومة، التي يتحدَّد مسارها بمدى تماسك الدولة، وطبيعة البنية الطبقية، والضغوط الخارجية، بما يجعل المقارنة بين الحالات أداة لاختبار الفرضيات التفسيرية[5].

يوسِّع تشارلز تيلي (Charles Tilly) هذا الإطار من خلال ربطه بين تشكُّل الدولة والعنف المنظّم والحركات الاجتماعية، مبيّنًا أن المقاومة تنشأ وتتطوَّر ضمن شبكات من الصراع على الموارد والسلطة. ومن ثمّ، فإن المقارنة بين تجارب المقاومة تكشف عن أنماط مختلفة من "سياسات النزاع"، إذ تتباين أشكال التنظيم ووسائل التعبئة واستراتيجيات المواجهة تبعًا للسياقات التاريخية[6].

ضمن هذا الإطار النظري والمنهجي، يسعى هذا الكتاب إلى قراءة تجربة المقاومة الفلسطينية في ضوء تجارب تاريخية أخرى لحركات التحرُّر العالمية، فيفتتح فصوله العشرة بدراسة تحت عنوان "من القسّام إلى كتائبه: استمرارية المقاومة الفلسطينية وترابط مساراتها التاريخية"، يحلِّل فيها بلال محمد شلش الطبيعة التراكمية للمقاومة، بوصفها سيرورة تاريخية متصلة تتشكَّل عبر حلقات متعاقبة من التجربة والخبرة، لا عبر لحظات معزولة. يكتمل هذا التصوُّر مع دراسة "استراتيجيات المقاومة الفلسطينية في حرب طوفان الأقصى (2023–2025)" لعلاء

جمال النجار، التي تبحث في تطوُّر هذه السيرورة إلى أنماط قتالية معاصرة تقوم على الدمج بين الحروب غير المتكافئة، بما يعكس قدرة المقاومة على التكيُّف مع تحوُّلات موازين القوة. غير أن هذا الفعل لا يقتصر على المجال العسكري، كما تُظهر دراسة "اللغة المبصرة وسلطتها الرمزية: دراسة في خطابات الملثم أبو عبيدة" لفاطمة الصمادي، التي تبرز أن اللغة ذاتها تتحوَّل إلى أداة مركزية في الصراع، تُستخدم لإنتاج المعنى وبناء السردية وتعبئة الجمهور.

وتتَّسع دائرة المقارنة لتشمل تجارب أخرى تضيء جوانب مختلفة من الحالة الفلسطينية. ففي دراسة "مقاومة الاستعمار الأوروبي في الأميركتين وأصداؤها في مسيرة النضال الفلسطيني" لمويزيس غاردونيو غارسيا، يتضح أن منطق الاستعمار الاستيطاني، القائم على "الإزالة من أجل الإحلال"، يشكِّل قاسمًا بنيويًّا مشتركًا بين التجربتين، فتتكرَّر مركزية الأرض وآليات نزع الملكية من السكان الأصليين عبر سياقات تاريخية متباعدة. ويجد هذا المنطق تجلِّياته كذلك في الحالة الجزائرية، كما في دراسة "الثورة الجزائرية وتصفية الاحتلال الاستيطاني الفرنسي" لمصطفى داودي، التي بيَّن فيها كيف أمكن تفكيك بنية استعمارية إحلالية عبر تفاعل التنظيم الثوري مع التعبئة الشعبية واستراتيجية الاستنزاف طويل الأمد. في السياق ذاته، تُبرز دراسة "المقاومة الريفية بقيادة الخطابي: مدرسة في حرب التحرير الشعبية" للحاج محمد الناسك ورشيد أعراب؛ إسهام الريفيين في تطوير استراتيجيات المقاومة، وقدرتهم على تحويل الضعف النسبي إلى قوة من خلال الابتكار التكتيكي والتنظيم المحلي.

أما على المستوى العالمي، فتقدِّم دراسة "استراتيجية المقاومة الفيتنامية: حرب العصابات والتعبئة الجماهيرية وشبكات الدعم الدولية" لليو سيانيبار، نموذجًا متكاملًا لحرب الشعب، قائمًا على دمج العمل العسكري بالتعبئة الاجتماعية والسياسية، بما يبرز أهمية القاعدة الشعبية في حسم الصراع طويل الأمد. في المقابل، تكشف دراسة "نضال جنوب إفريقيا ضد الاستعمار والفصل العنصري" لنعيم جيناه، عن تحوُّل أنماط المقاومة في سياق "الاستعمار الداخلي"، وتعدُّد أدواتها بين السلمي والمسلح، ما يثري فهم مرونة الفعل التحرُّري. وأخيرًا،

توسِّع دراسة "مسارات الاستقلال في أميركا اللاتينية" لبرونو بيكليني أفق المقارنة، بتأكيدها أن التحرُّر لم يضع نهاية للهيمنة، التي تغيَّرت آليات عملها في إطار النظام العالمي. بذلك، تسلِّط الدراسة الضوء على حدود الاستقلال وإشكالياته.

من خلال هذا التقاطع والتداخل بين التجارب، يتضح أن المقارنة التي يقترحها الكتاب لا تقوم على تماثل سطحي، بل على تفكيك الشروط التاريخية التي تُنتج المقاومة. بذلك، يتيح لنا استعراض هذه التجارب وتحليلها أدوات إضافية لفهم الحالة الفلسطينية ضمن سياق عالمي أوسع. نأمل أن يُسهم هذا العمل في تعميق فهمنا لتجارب المقاومة عمومًا، وتجربة المقاومة الفلسطينية على وجه التحديد.

المحرِّرون

الدوحة، مايو | أيار 2026

المراجع

1. George M. Fredrickson, "Comparative History," in *The Past Before Us: Contemporary Historical Writing in the United States*, ed. Michael Kammen (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1980), 457-462.
2. Marc Bloch, "Toward a Comparative History of European Societies," in *Land and Work in Mediaeval Europe*, trans. J.E. Anderson (London: Routledge & Kegan Paul, 1967), 494-507.
3. Harry Ritter, *Dictionary of Concepts in History* (New York: Greenwood Press, 1986), 55-60.
4. Wim Klooster, *Revolutions in the Atlantic World: A Comparative History*, New Edition (New York: New York University Press, 2017), 1-6.
5. Theda Skocpol, *States and Social Revolutions: A Comparative Analysis of France, Russia, and China* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), 3-43.
6. Charles Tilly, *Big Structures, Large Processes, Huge Comparisons* (New York: Russell Sage Foundation, 1984), 11-25.
7. William H. Sewell Jr., "Marc Bloch and the Logic of Comparative History," *History and Theory* 6, no. 2 (1967): 208-212.

من القسّام إلى كتائبه:
استمرارية المقاومة الفلسطينية وترابط مساراتها التاريخية

بلال محمد شلش

تاريخ يأبى "اللملمة"

استكملت بريطانيا احتلال بقية فلسطين، في سبتمبر/ أيلول 1918، مع خواتيم الحرب العالمية الأولى، لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ فلسطين، تحدَّدت فيها معالم المشروع الاستعماري الصهيوني، وتشكَّلت فيها صيغ متنوّعة من المقاومة الفلسطينية المستمرة على مدى أكثر من قرن في مسار متواصل ارتبطت حلقاته بعضها ببعض.

تحاول هذه الورقة الإضاءة على جزء من مسار الاستمرارية هذا، مؤرِّخة لبعض مراحل المقاومة المسلحة، لكن هذا التاريخ يأبى "اللملمة". وكما كتب فتحي إبراهيم الشقاقي، في التمهيد لدراسة تجربة الشيخ عز الدين القسّام: "الدراسة التي بين أيدينا محاولة لاكتشاف كلمة سرٍّ عز الدين القسّام وفكٍّ رموزها، إنها محاولة صعبة. فالقسّام ذهب في خوابي الماء، امتزج بكل طما فلسطين، فأنَّى لنا أن نلملمه؟!". لكن، رغم هذه الصعوبة، فإن "المحاولة تستحقُّ السفر"[1]، خاصة إذا كانت الغاية الإمساك بالخيط الناظم لهذه الاستمرارية، الذي يتجاوز التأريخ المجهري المباشر للمقاومة.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى واحتلال عموم بلاد الشام، أو سوريا الكبرى، انطلقت المقاومة المسلحة وأثيرت أسئلة عن العلاقة مع المستعمر البريطاني والموقف من المشروع البريطاني في فلسطين: هل هو انتداب أم مشروع

استعماري؟ وما أولوية أهل فلسطين: هل هي مواجهة هذا المشروع ورفع راية الاستقلال والثورة لتحقيقه، أم توجيه الجهد لمواجهة الحركة الصهيونية ومشروعها الاستيطاني؟ سُئلت تلك الأسئلة المبكرة في الاجتماع الأول لأهل فلسطين في مؤتمر القدس (المؤتمر العربي الفلسطيني الأول) في 27 يناير/ كانون الثاني – 9 فبراير/ شباط 1919. وإلى جانب الإجابات التي تضمَّنتها مقرّرات المؤتمر، وُضعت لبنات لمسار عملي تأثَّر بتحوُّلات المشهد المتسارعة في فلسطين، أو سوريا الجنوبية كما قرَّر المؤتمرون تسميتها، وجوارها: أي سوريا الكبرى. وحين اندلعت ثورة "البراق"، في 15 أغسطس/ آب 1929، انفتح الباب واسعًا أمام دعاة الفكرة الاستقلالية وحملتها.

بعد الثورة، ارتفع صوت المنادين بالاستقلال وبالثورة طريقًا لتحقيقه، وبدأ الناس يقرؤون في الصحف عناوين، مثل "بريطانيا أصل الداء ورأس البلاء"[2] وبدأوا يستحضرون شهداء "الثلاثاء الحمراء"[3] في لجنتهم التنفيذية العربية. وخلال السنوات الخمس التي تلت ثورة البراق بشَّر دعاة الاستقلال بفكرتهم في مسارات مختلفة بعضها سري، وتُرجمت أقوالهم إلى أفعال. إلا أن ذلك النقاش شهد مدًّا وجزرًا بين عامي 1929 و1935، وتقلَّب دعاة الفكرة الاستقلالية والعاملون لها بين الأمل واليأس، إلى أن كان استشهاد أحد صُنَّاع تلك المسارات، الشيخ عز الدين القسّام، الذي نقلت شهادته شعار "بريطانيا أصل الداء" من جواب فئة صغيرة، إلى جواب لجُلِّ المشتغلين بالقضية الوطنية سنوات لاحقة.

لقد لخَّص ذلك التحوُّل أكرم عمر زعيتر، في خطابه للمحتفين بذكرى القسّام في حيفا قائلًا: "ظللنا نحتج ونحتج ونحتج، إلى أن أدرك شيخنا القسّام الشهيد أن في آذان القوم صممًا، وأنهم لا يفقهون قولًا، وأن قلوبهم غلف عليها أكنة، وأنهم مصممون على عملية الإجلاء والإفناء، فقرَّر أن يُسمع الصُّمَّ ويُنطق البُكم... ثم وقف على رابية في حرش يعبد مع عصبته الكريمة، ليخطب خطبته الأخيرة ويرسل صيحته الداوية، أعزل إلا من مسدس في يده، ومصحف كريم في جيبه. ووقفت بريطانيا بدباباتها وطائراتها، بعددها وعتادها، بأساطيلها تمخر في الماء، ومناطيدها تخترق الأجواء، وكان الشيخ وصحبه يعلمون أنهم لا قِبَل لهم بالقضاء على

الإمبراطورية، ويدركون أنهم مستشهدون لا محالة، ولكنهم أرادوا أن يقولوا كلمة تخترق أصماخ السياسية البريطانية، وتُسمع من به صمم... أرادوا أن يموتوا لتحيا أمتهم، ويزولوا ليبقى وطنهم. أرادوا أن تنطق دماؤهم وجراحهم وعمائمهم، والكهوف التي سكنوا فيها، والمغاور التي لجأوا إليها، والأحراش التي أظلَّتهم صارخة مستصرخة تشكو الظلم والعدوان، والبغي والطغيان، وكيد الإنسان للإنسان، فاستشهدوا وخضَّبوا أرض الوطن بدمائهم، فاهتفوا اليوم يا عرب: "عاشت ذكرى القسّام، وأصحاب القسّام""[4].

بقيت الروح التي بثَّها القسّام حاضرة خلال السنوات اللاحقة[5]، وساد خطاب الثورة مع توالي الحروب والمعارك إلى أن حلَّت سنوات أوسلو. إلا أن حَمَلَة الفكرة الاستقلالية استمروا في مقاومتهم ورفضهم للمسار القديم/ الجديد حتى لحظة اندلاع الانتفاضة الثانية، في سبتمبر/ أيلول 2000، التي أسّست لسنوات مقاومة لاحقة لن تكون معركة طوفان الأقصى خاتمتها. سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على المسار الذي يربط صرخة القسّام بالطوفان؛ وذلك اعتمادًا على وثائق ومصادر، حفظت صوت المقاومين في سياقات وأزمنة مختلفة.

القسّام والبُعد العربي الإسلامي لفلسطين

في نعيه للقسّام، يقول صبحي سعيد الخضرا، أحد أبرز حملة الفكرة الاستقلالية العرب: "فصل الله بالقسّام بين عهدين، كما فرق من قبل بعمر بين عهدين: الحق والباطل، والجاهلية والإسلام. حقًّا إن القسّام رجع بالنهضة إلى سالف عهدها وسابق عزها، فكان كالقنطرة وصلت ما بين طرفي العدوة"[6]. ويزيد الخضرا أن تضحية القسّام "جاءت في زمن طغت فيه الخيانة، وساد الكفر على الإيمان الوطني، فيئس العربي من أمته، وكفر بقضيته، حتى شعرنا كأننا في شبه رِدَّة وطنية، أو نكبة قومية. فجاء القسّام كالذبح العظيم، وافتدى بحياته حياة الأمة، وأنقذ بنفسه نهضتها"[7].

وكان الخضرا قد سعى أول الأمر إلى تأسيس حكم عربي في دمشق، وحين وُئِد ذلك المشروع، عاد إلى فلسطين ليتابع مسيرته ويشارك في الحوارات الأولى،

التي كان أبرزها ما دار على هامش المؤتمر الفلسطيني الأول. فقد انقسم المؤتمرون وفق قراءة خليل السكاكيني في يومياته إلى ثلاث فرق: "مخلص وطني حر لا يراعي في وطنيته شيئًا، ووطني جبان ضعيف الرأي سهل الانقياد، يطلب ما يمكن لا ما يجب، ومأجور أو أجنبي النزعة لا يراعي إلا مصالح الإنجليز أو الفرنسيين أو الصهاينة"[8]. ثم انتقل الحوار من القدس إلى دمشق، ودعم ممثّلو فلسطين في المؤتمر السوري قرار إعلان استقلال سوريا بحدودها الطبيعية التي تضم فلسطين، استقلالًا تامًّا، وتتويج الأمير فيصل بن الحسين، بتاريخ 8 مارس/ آذار 1920، ملكًا على سوريا[9]. وكان هذا القرار بداية مرحلة جديدة من المواجهة مع المُستعمِرَين، البريطاني والفرنسي، في سوريا ولبنان انتهت بإعلان لبنان الكبير وإنهاء الحكم العربي في سوريا، وهو ما أبرز من جديد أصواتًا لفلسطينيين كانت قد توارت فترة وجيزة، تدعو لاستقلال فلسطين عن سوريا وربط مصيرها ببريطانيا[10]. سبق هذه الدعوة قرار مؤتمر سان ريمو، في أبريل/ نيسان 1920، بفصل فلسطين عن سوريا وتعيين مندوب سام صهيوني رئيسًا للإدارة المدنية بديلًا من الإدارة العسكرية، تنفيذًا لوعد بلفور بتأسيس المشروع الصهيوني في فلسطين.

إزاء تلك التطورات، تفاعل الفلسطينيون بطرق مختلفة، كان أبرزها الاحتجاج العنيف في موسم النبي موسى، في أبريل/ نيسان من نفس السنة، الذي تحوَّل إلى هَبَّة عارمة ضد المشروع الصهيوني[11]. تزامنت تلك الهبَّة مع هجمات مسلحة في مواقع مختلفة من فلسطين، فسَّرتها السلطات البريطانية على أنها هجمات "عصابات"، أو هجمات "سلب"، يقوم بها أفراد أو قبائل تأثرت مصالحها بقرارات المُستعمِرين[12]. واستمرت الحركة الاحتجاجية الفلسطينية بأشكال مختلفة خلال السنوات اللاحقة إلى أن تبلورت في ثورة 1936.

انطلقت ثورة 1936–1939 على موجتين، بمشاركة واسعة من عموم أهل فلسطين، فقدمت نموذجًا لتكامل أشكال المقاومة، وتجربة تنظيمية وخبرة عسكرية ستستمر لعقود[13]. وعلى الرغم من هيمنة خطاب الثورة في تلك المرحلة، فإن مشهد الانقسام إلى ثلاث فرق بقي مستمرًّا. فإلى جانب الثوار، وُجد الوطنيون

الجبناء، ووُجد المأجورون الذين سهَّلوا مهمة الجيش البريطاني الذي استخدم قوته الغاشمة للبطش بالثوار وأهل البلاد معًا. وكانوا عماد التشكيلات المناطقية التي عُرفت بـ "فصائل السلام"، التي كانت جزءًا من المخطط البريطاني لمحاربة الثورة من الداخل وتفكيك نسيجها الاجتماعي[14].

كشف القسّام وثورة أهل البلاد الكبرى بين عامي 1936 و1939 عن تجذر البُعدين، العربي والإسلامي، لفلسطين. فكما لم يكن غريبًا حضور القسّام إلى حيفا، واستقراره فيها، ثم انطلاق ثورته منها، لم يكن غريبًا أيضًا حضور واستشهاد غيره من العرب والمسلمين، قادة وجندًا، على أرض فلسطين[15]. ولم يكن غريبًا استقبال بيروت ودمشق، ثم بغداد، قيادة الثورة والثوار[16]. وبقيت فلسطين وقضيتها جزءًا من قضية عربية إسلامية عامة، خلال سِنِي الحرب العالمية الثانية، خصوصًا مع تصدر الحاج أمين الحسيني المشهد. وقد برز هذا البُعد بوضوح في أسماء المقاتلين العرب الذين شاركوا في حرب 1948.

انعكست الهزيمة العربية في حرب 1948 على جُلِّ المقاتلين الفلسطينيين، لكنها أكَّدت على البُعد العربي – الإسلامي للقضية، ودفعت كثيرًا من أهل فلسطين للهجرة إلى أحزاب سياسية عابرة للحدود. فانتظم كثير من المقاتلين في الحياة السياسية العربية، ونشطوا أو أسَّسوا أحزابًا متجاوزة للقُطريات الناشئة، كان من أبرزها حزب البعث العربي، ثم حركة القوميين العرب، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين، ثم حزب التحرير الإسلامي. وقد اجتمع الرأي لدى جُلِّ هؤلاء على إعطاء الأولوية لقضايا جامعة مثل الوحدة العربية أو الإسلامية وبناء جيوشها، على الاستمرار في مقاومة المشروع الاستعماري الصهيوني ودولته الناشئة. لكن قلَّة واصلت القتال، بدعم من بعض الجمهوريات العربية الجديدة، خصوصًا مصر التي دعمت تجربة العمل الفدائي خلال الخمسينات. إلا أن عجز مصر عن منع احتلال قطاع غزة خلال العدوان الثلاثي، ثم انهيار الجمهورية العربية المتحدة، دفع لتعزيز مسار عودة بعض أهل البلاد إلى فلسطين.

مجددًا نحو فلسطين

بدأت مناقشات أهل فلسطين بشأن خطر المشروع الاستعماري مبكرًا، على هامش المؤتمر الفلسطيني الأول، وتجددت بين سنوات ثورة البراق (1929) والثورة العربية الكبرى (1936–1938). ويحتفظ أرشيف أكرم زعيتر، أحد أبرز الوجوه الشابة لحزب الاستقلال العربي آنذاك، بنماذج من تلك النقاشات. وقد كان أكرم جزءًا من نشاط تنظيمي سري قاده ممدوح أحمد السخن وواصف سعيد كمال، إلى جانب عدد من الشباب النابلسي. في تلك الأجواء، جرت مراسلات بين أكرم زعيتر ورشيد الحاج إبراهيم، القيادي في الحركة الوطنية في حيفا، حول "الوضع في فلسطين، وضرورة تغيير أساليب النضال، واللجوء إلى الثورة في كل بقعة، وأن العمل لها يكون بإيجاد نواة من المؤمنين تستعدُّ من الآن للجهاد الدامي"[17]. ولكن تقييم الحاج إبراهيم لجاهزية الوضع داخل فلسطين كان سلبيًّا، فطرح بعض الأفكار التي لخَّصها في أن الإنقاذ "لا يأتي إلا بأحد طريقين، "مؤازرة خارجية، لن تكون إلا عن طريق العراق الفتي شعبًا وحكومة" و"حمل البعض من الأشقاء" المجاورين والمرتبطين بهم لحمًا ودمًا على العمل لتخليص هذه البلاد"[18]. أما زعيتر ورفاقه، فقرَّروا عدم الانتظار وعادوا إلى فلسطين لتنظيم الشباب المستعد للانخراط في المقاومة وتدريبه على العمل المسلح[19]. بعد الثورة الكبرى، واصل مَن بقي من القادة والكوادر الإعداد العسكري للمرحلة القادمة. من ذلك ما بذله عبد القادر الحسيني، وبعض أركانه، في التأسيس لتنظيم عسكري سري قبل أن يتحوَّل ذلك إلى نشاط شامل أشرفت عليه الهيئة العربية العليا، ثم اللجنة العسكرية العربية العليا التي شكَّلتها جامعة الدول العربية[20].

كان حضور اللجنة العسكرية العربية العليا في فلسطين، ومن ثم حضور الجيوش العربية الناشئة حديثًا، تأكيدًا على البُعد العربي لمقاومة المشروع الاستعماري الصهيوني. إلا أن ذلك الحضور، في ضوء نتائج الحرب العالمية الثانية، خصوصًا ما اتصل منها بالموقف من الحاج أمين الحسيني، انعكس سلبيًّا على دور أهل فلسطين في قيادة المعركة. وهو ما سجَّله القيادي في ثورة 1936–1939، وفي الحركة العربية، محمد عزة دروزة، الذي اعتبر أن "وزن ممثّلي فلسطين

الطبيعي لم يكن مماثلًا لممثّلي الحكومات العربية، لأنهم ليس لهم حكومة، وليسوا إلا على الهامش، بالرغم من أن القضية قضيتهم. على أن هذا قد يكون سببًا من أسباب ضعفهم، لأنهم عالة في قضيتهم، من كل نواحيها، على الحكومات"[21].

تَعَزَّز دور اللجنة العسكرية العربية مع مرور الوقت، وتصاعد وتيرة الحرب في فلسطين، وحاجة أهل فلسطين للدعم والإسناد، وكان ذلك مقابل تراجع نفوذ الحاج أمين والهيئة العربية العليا، ممثّلة الفلسطينيين، وتأثيرهما، خصوصًا بعد فشل الحاج أمين في إقناع الدول العربية بتسليمه السلاح والمال، وتسليم إدارة فلسطين إلى الهيئة العربية العليا واللجان القومية، وتشكيل إدارة محلية لفلسطين، تتولَّى المسؤولية عنها، بعد الانسحاب البريطاني[22]. لكن، ما إن حل وقت جلاء المستعمر البريطاني عن فلسطين، في مايو/ أيار 1948، حتى كانت معظم المدن الفلسطينية، والعشرات من القرى والمواقع، قد سقطت بأيدي المنظمات الصهيونية، لتنتهي مع هذا الجلاء منافسة الدول العربية للهيئة العربية العليا والمقاتلين الفلسطينيين، ولتنفرد الدول العربية بإدارة المعارك، وتبدأ بعدها معركة إنهاء القوة العسكرية الفلسطينية.

سعت الهيئة العربية العليا لتجاوز بعض ما فات، من خلال إعادة تأسيس الجهاد المقدس، خصوصًا إثر استشهاد القائد حسن سلامة. كما أن بعض قادتها العسكريين حاولوا الوقوف في وجه تيار "الإنهاء"، إلا أن ذلك لم يؤتِ ثماره. وردت الإشارة إلى ذلك في العديد من المراجعات، خصوصًا مراجعات بهجت أبو غربية وقاسم الريماوي[23]، إذ يُلاحَظ أن الإشكال الأبرز الذي واجه المقاتلين الفلسطينيين، بعد 15 مايو/ أيار 1948، كان غياب القيادة الفاعلة، القادرة على اتخاذ قرار الدفاع عن وجودها وتمثيلها، خاصة بعد استشهاد قادتها مثل عبد القادر الحسيني وحسن سلامة، وغياب معظم وجوه الهيئة العربية العليا.

انعكست نتائج الحرب، وشتات فلسطين وأهلها بين جغرافيات وأنظمة مختلفة، في خلق حالة من الانتظار دامت سنوات. إلا أن الهجرة نحو فلسطين، والتأكيد على مركزية قضيتها، ودور أهلها الطليعي في المقاومة المسلحة، ومعركة

تحريرها المنتظرة، قطعت هذا الانتظار أكثر من مرة، كان أولها الحراك الذي أثمر تأسيس عدد من التنظيمات الفلسطينية، على رأسها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، وثانيها الحراك الذي أثمر تأسيس الإخوان المسلمين حركة الجهاد الإسلامي أولًا، ثم حركة المقاومة الإسلامية (حماس) ثانيًا.

كان إعلان (فتح) الثورة الفلسطينية، مطلع يناير/ كانون الثاني 1965، استمرارًا لمسار مقاومة، بعضها جماعي وبعضها جسَّدته جهود فردية، تحوَّلت إلى مبادرات كان أبرزها "مجموعات العمل الفدائي" التي كانت تنطلق من الحدود السورية والمصرية والأردنية قبل العدوان الثلاثي. وشاع لفظ "الفدائي" و"الفدائيون" خلال تلك السنوات، وتناولت الصحف المحلية، كما صحف العدو، أخبار الفدائيين بصفة دورية. وإثر العدوان الثلاثي، تقلص هذا النشاط الرسمي، وإن لم يتوقف[24]. وبعد أشهر قليلة من انطلاق نشاط (فتح)، الذي تعرض للقمع من قبل عدد من الأنظمة العربية المسيطرة على بقية فلسطين، وعلى شتات أهلها، اندلعت حرب يونيو/ حزيران 1967.

نظرت (فتح) إلى نتائج تلك الحرب بوصفها لحظة مفصلية بيَّنت عجز الدول العربية عن قيادة مشروع عربي لتحرير فلسطين، وأكَّدت ضرورة أن يكون أهل فلسطين طليعة المقاتلين لتحريرها. وسرعان ما ساد خطاب (فتح) بعد معركة الكرامة، وسيطرة التنظيمات الفدائية على قيادة منظمة التحرير الفلسطينية[25]. ومنذ تلك اللحظة، بدأت (فتح) والتنظيمات الفدائية الأخرى حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة. وظل البُعد العربي الإسلامي للقضية حاضرًا في البنى التنظيمية المختلفة، وكذلك في الخطاب العام. وأكَّدت الأحداث المختلفة التي واجهتها التنظيمات الفلسطينية في الدول العربية، مثل أحداث سبتمبر/ أيلول 1970 في الأردن، ثم الحرب الأهلية في لبنان، وما تلاها من حروب مع دولة الاحتلال، على مركزية هذا البعد.

تسبَّبت تلك الأحداث في انتكاسة بعض القوى الفلسطينية والعودة إلى "الانتظار" مجدّدًا، وكان من أبرز تلك القوى جماعة الإخوان المسلمين. فبعد حرب 1948 كانت الجماعة في فلسطين قد تشتَّتت بشتات أهل البلاد، فانتظم أبناء

بقية فلسطين الوسطى واللاجئين إليها وإلى المملكة الأردنية الهاشمية في فرع الجماعة في الأردن، وانتظم من لجأ إلى الدول العربية في الفروع المحلية للجماعة. أما من بقي من أبناء الجماعة في بقية جنوبي فلسطين ومن لجأ إليها، فشكَّلوا تنظيمًا مستقلًّا ضمَّ أيضًا بعض الكوادر الرئيسية التي شكَّلت حركة فتح[26].

بعد حرب يونيو/ حزيران، وصعود حركة فتح، وتسيد خطاب التنظيمات الفدائية للمشهد العام، اتخذ المكتب الإداري العام للإخوان المسلمين في البلدان العربية قرارًا بدعم تأسيس كتائب عسكرية تحت مظلة فتح. وعلى الرغم من الخلافات الداخلية التي رافقت ذلك القرار، فقد وضعت تلك الخطوة حدًّا لسياسة "الانتظار". إلا أن تلك التجربة المحدودة التي عُرفت بـ "قواعد الشيوخ"، ستُقطع مع اندلاع مواجهات سبتمبر/ أيلول 1970، وما تلاها من حوادث قادت إلى إخراج التنظيمات الفدائية من الأردن[27]. وقد انعكست تلك التطورات سلبيًّا على مجمل المقاومة العسكرية لدولة الاحتلال، خصوصًا داخل الأرض المحتلة.

بعد ذلك، عادت الكتلة الرئيسة من تنظيم الإخوان المسلمين إلى "الانتظار"، إلا أن حراكًا شبابيًّا داخل الأرض المحتلة أخذ في التصاعد، خصوصًا في صفوف الطلبة الذين انتظموا في الدراسة خارج الأرض المحتلة، وكانوا جزءًا من النقاش الطلابي العام المتصل بالقضية الفلسطينية، وحدود دور الإسلاميين فيها. قاد هذا النقاش إلى وقوع خلافات حادة، أعادت التذكير بخلافات مؤسسي حركة (فتح) من أبناء الإخوان، وأدَّت إلى خروج قيادات شابة، كان من أبرزها فتحي الشقاقي، وعدد من الشخصيات التي ستؤسس لاحقًا حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين[28].

أكَّد الشقاقي ورفاقه مركزية القضية الفلسطينية وأولويتها لدى الحركة الإسلامية في فلسطين. وكتب: "تتفاوت مواقف الإسلاميين من القضية الفلسطينية إلى درجة تثير الدهشة. فمنهم من يتجاهلها وكأنها قضية سياسية لا تتجاوز الخلاف بين عمان ورأس الخيمة، ويتصورون أن قيام دولة إسلامية في المنطقة سينهي المشكلة تمامًا، وسيحسم الصراع الطويل، ويعيد فلسطين لأهلها خلال ساعات... وهؤلاء يجهلون مرحلتهم، ويجهلون أدواتهم، ذلك لأنهم يجهلون جوهر الصراع

الدائر على أرض الوطن الإسلامي الآن، قبل جهلهم بالقضية الفلسطينية، وموقعها من المرحلة ومن دائرة الصراع"[29].

استعاد الشقاقي في نصِّه هذا، القسّام مخاطبًا أبناء الحركة الإسلامية المعاصرة: "ما أعجب هذا اللقاء بين القسّام والحسين، قلة مؤمنة قليلة في مواجهة جيوش جرَّارة، ولكنه انتصار الواجب المقدّس في صراع الواجب والإمكان، روح واعية مسؤولة في وسط بحر من اللامبالاة والتقاعس. وكما كان الحسين في فجر الحركة الأولى، كان القسّام في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، رمزًا للإيمان والوعي والثورة والإصرار على عدم المساومة، ورفض رشوة المستقبل المؤمن"[30]. وقد وجد خطاب الشقاقي آذانًا مصغية، فانتظم الكثير من الكوادر الفلسطينية في صفوف حركة الجهاد الإسلامي حين تأسيسها.

تزامن حوار الشقاقي ورفاقه مع حوارات أخرى في صفوف الإخوان المسلمين، جرت في مناطق مختلفة من الأرض المحتلة وخارجها، لكنها سارت في مسارات غايرت مسار الشقاقي وكادر (فتح) الأول. فلم تؤد بأصحابها إلى الخروج من الجماعة الأم، بل أكَّدت العمل داخليًّا لتأسيس حراك انتهى بإحداث "انقلاب" في عدد من المناطق، سيطر على إثره قادة ذلك الحراك على قرار الجماعة. وفي 1970، عاد عدنان عبد الحافظ مسودي، أحد أولئك القادة، إلى مدينته الخليل، التي كان قد غادرها لدراسة الطب في دمشق، قبل الاحتلال بسنوات.

حمل مسودي معه تجربة تنظيمية مختلفة وأفكارًا جديدة مرتبطة بإعادة قراءة أفكار سيد قطب، خاصة "في ظلال القرآن"[31]. ورغم خلافه مع قيادات التنظيم المركزي، بدأ الاتصال الفردي بمجموعات أسّست أسرًا جديدة، خاصة في صفوف الطلاب. ثم أصبح مسودي وصحبه، وأبرزهم آنذاك محمد عيد مسك، قادة التنظيم في المنطقة، وممثّلوه في المكتب الإداري العام[32]. ومع تقدُّم نشاطهم واتساع دائرة المقتنعين بأفكارهم، أعلنوا تبنِّي الجماعة العمل المقاوم، وتأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، الذي تزامن مع الانتفاضة الأولى[33].

كتائب القسّام

تزامن تأسيس (حماس)، ومن قبلها حركة الجهاد الإسلامي، مع تراجع نشاط التنظيمات الفلسطينية الأخرى. فبعد حرب لبنان 1982، وخروج منظمة التحرير الفلسطينية والتنظيمات الفدائية من لبنان، الذي تَعَزَّز أثره في معارك الانشقاق، ومن ثم حرب المخيمات، ازداد الحديث عن "الحل السلمي"، الذي تبنَّته منظمة التحرير رسميًّا في بداية التسعينات. تُوِّج ذلك المسار بتوقيع اتفاق أوسلو، وتأسيس السلطة الفلسطينية، و"قطع الطريق على الانتفاضة الفلسطينية التي متدحرجة ومتصاعدة وواعدة"[34].

خلال تلك المرحلة، واجهت المقاومة المسلحة، ممثّلة بحركتَي المقاومة الإسلامية (حماس) والجهاد الإسلامي، تحدِّيًا وجوديًّا. وقد لخَّص إبراهيم حامد، القيادي المؤسس في كتائب الشهيد عز الدين القسّام، أوجه ذلك التحدِّي بقوله: "غلب على الوجود الفلسطيني بأجمعه التيه والضياع، وفقدان الدليل، ولا بأس في أن نسجِّل هنا، أننا كنَّا في أيام ذروة الطوفان الأوسلوي، والجميع يومها غرقى تحت مائه، وحيدين ونحن نقارع الشر الصهيوني الجاثم فوق ترابنا، وكنا نقول، ورأسنا فوق الماء ونبصر بشكل جيد: إننا غير متأكِّدين من شيء في ذلك التيه، سوى من مقارعة ذلك الشر، وإن الميدان والمواجهة فقط هما اللذان يمنحاننا معنى الحياة الحرة الكريمة"[35].

بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد الثانية، اندلعت الانتفاضة الثانية، فأحيت التنظيمات الفدائية الفلسطينية، وأسَّست لمرحلة جديدة علا فيها صوت المقاومة المسلحة مجدّدًا، وإن لم يُوأَد صوت دعاة الحل السلمي[36]. ومع انتهاء الانتفاضة، تولَّى محمود عباس رئاسة السلطة الفلسطينية خلفًا لياسر عرفات. ولكن، خلافًا لعرفات، الذي رفع المقاومة المسلحة ورقة، كان عباس، بتعبير إبراهيم حامد، "مستسلمًا مقتنعًا"، أسقط هذه الورقة نهائيًّا. وكان إعلان دولة الاحتلال انسحاب قواتها من قطاع غزة بداية مرحلة جديدة من فعل المقاومة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة. فأعادت تشكيل هياكلها التنظيمية وفق ما تسمح به الظروف الميدانية. وخلال سنوات تخللتها سلسلة من المعارك والحروب، نجحت تنظيمات المقاومة

المسلحة في تطوير قدراتها العسكرية إلى مستويات غير مسبوقة، خصوصًا في قطاع غزة. وكانت عملية "طوفان الأقصى"، في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، التجلي الأوضح لتلك القدرات، والحلقة الأبرز لترابط مسارات المقاومة الفلسطينية لمشروع الاحتلال الاستيطاني الصهيوني.

المراجع

1. سميح حمودة، *الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام 1828–1935م*، ط2 (عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1986)، 13.
2. صبحي الخضرا، "بريطانيا أصل الداء ورأس البلاء: ليست قضية الأورفلي سوى مظهر من سياسة منظمة لاضطهاد العرب والإسلام"، *الجامعة العربية*، 13 أغسطس 1930، 1.
3. إبراهيم طوقان، "مصارع أبطال فلسطين"، *الجامعة الإسلامية*، 17 يونيو 1933، 6.
4. أكرم زعيتر، "دفعوا الضريبة وغادروا الدنيا شرفاء"، *الدفاع*، 18 يونيو 1936، 1، 7.
5. "القسّام وأثره في ثورة فلسطين: الروح الجديدة في الثورة"، *مرآة الشرق*، 7 نوفمبر 1936، 2.
6. صبحي الخضرا، "خطبة الشهيد القسّام في يعبد: احتلَّ الرجل أشرف جبهة وأنصع صحيفة"، *الدفاع*، 7 يناير 1936، 6.
7. الخضرا، "خطبة الشهيد القسّام في يعبد"، 6.
8. خليل السكاكيني، *يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث: اختبار الانتداب وأسئلة الهوية 1919–1922*، تحقيق أكرم مسلم (رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي/ مؤسسة الدراسات المقدسية، 2004)، 52.
9. لتراجع كلمة عوني عبد الهادي في: "خطبة العرش عند افتتاح المؤتمر السوري"، *العاصمة*، ع107، 8 مارس 1920، 1؛ ويُنظر، بشكل عام، العدد 108 من *العاصمة*، 11 مارس 1920. وكذلك: محمد عزة دروزة، مج1، 448–452؛ محمد جمال باروت، "المؤتمر السوري العام (1919–1920): الدستور السوري الأول: السياق، الطبيعة والوظائف، المراحل والقضايا"، *تبيّن*، العدد 3 (شتاء 2013): 35؛ خيرية قاسمية، *الحكومة العربية في دمشق بين 1918–1920* (القاهرة: دار المعارف، 1971)، 157–170. لتراجع، عن الاحتفالات التي عمّت "فلسطين"، في: خيرية قاسمية، "تطوّر القضية الفلسطينية في عهد الحكومة العربية في دمشق"، *شؤون فلسطينية*، العدد 1 (مارس 1971): 67؛ دروزة، مج1، 465.
10. كان أول ظهور لتلك الأصوات احتفاءً بقرارات سان ريمو في أبريل 1920، وتكثّفت أثناء معارك إنهاء الحكم العربي مع المستعمر الفرنسي. لتراجع: محمد حسني عبد الهادي، "جواب"، *بيت المقدس*، 7 يوليو 1920، 2–3؛ محمد حسني عبد الهادي، "شكر وجواب"، *بيت المقدس*، 17 يوليو 1920، 1–3. مقارنًا مع وجهة نظر مغايرة في: يعقوب الغصين، "موضوع خطير إلى الأمة العربية وإلى الجمعيات"، *القدس الشريف*، 3 مايو 1920، 2؛ حسن صدقي الدجاني، "حالة فلسطين في المستقبل"، *القدس الشريف*، 12 يوليو 1920، 1؛ حسن صدقي الدجاني، "حوادث دمشق"، *القدس الشريف*، 19 يوليو 1920، 1؛ حسن صدقي الدجاني، "دمشق رأس الحركة"، *القدس الشريف*، 26 يوليو 1920، 1؛ "تكلم السيف فاسكت أيها القلم الحرب شبّت الحرب فماذا تنفع الكلم"، *القدس الشريف*، 29 يوليو 1920، 1. مع الإشارة إلى أن مقالات عبد الهادي في جزء منها هي جزء من سجال مع صحيفة *سورية الجنوبية*، لصاحبها محمد حسن البديري، لكن تعذّر الحصول على الأعداد الخاصة بهذه الفترة.
11. لتراجع وصفًا معاصرًا لأحداث أبريل 1920 في: خليل بيدس، "حديث السجون"، *النفائس العصرية* 7، ع18 (15 سبتمبر 1920): 253–258، 267–274؛ السكاكيني، 210–217؛ "حول

الفتنة في القدس"، *القدس الشريف*، 13 أبريل 1920، 2؛ "صدى الفتنة"، *القدس الشريف*، 16 أبريل 1920، 2–3.

12. لتراجع: تلغرافات السلطات الاستعمارية عن هجمات مسلحة على التجمُّعات الصهيونية وعلى الجنود البريطانيين في المنطقة الواقعة بين بيسان وطبرية خلال الفترة بين 16 و24 أبريل 1920، في: "حوادث بيسان"، *القدس الشريف*، 29 أبريل 1920، 4؛ و6 مايو 1920، 1–2. وللاستزادة، راجع:
Munir Fakher Eldin, "British Framing of the Frontier in Palestine, 1918-1923," *Jerusalem Quarterly*, no. 60 (2014): 42-58.

13. Charles W. Anderson, "State Formation from Below and the Great Revolt in Palestine," *Journal of Palestine Studies* 47, no. 1 (Autumn 2017): 39-55.

14. مصطفى كبها ونمر سرحان، *سجل القادة والثوار والمتطوعين لثورة 1936–1939* (كفر قرع: دار الهدى، 2009)، 77–88؛
Matthew Hughes, "Palestinian Collaboration with the British: The Peace Bands and the Arab Revolt in Palestine, 1936-9," *Journal of Contemporary History* 51, no. 2 (2015): 1-25.

15. من أبرز الشخصيات العربية التي عُرفت في ثورة 1936–1939، القائد العسكري فوزي القاوقجي، وكذلك القائد العسكري الشهيد سعيد العاص، وكلاهما من قادة الثورة السورية الكبرى. وكان نبيه العظمة – المقيم في القدس – من القادة السوريين الحاضرين في الإعداد العسكري للثورة، فضلًا عن عشرات الشخصيات التي شاركت في القتال المباشر وفي دعم الثورة وإسنادها من جُلِّ البلدان العربية والإسلامية.

16. كانت القدس احتضنت قيادة الثورة السورية الكبرى. لتراجع: منذر محمود جابر، *سجل: أنا رشيد طليع سيرة ومصير* (لندن: مؤسسة التراث الدرزي، 2008)، 260؛ خيرية قاسمية، *الرعيل العربي الأول: حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة* (بيروت: رياض الرياس للكتب والنشر، 1991)، 37–39. ولم يكن احتضان بيروت ودمشق والسلط للثوار فحسب، وإنما كانت قاعدة آمنة للتصنيع والإمداد بالسلاح وتأمين مستلزمات الثورة وإدارة عملياتها وجهاز إعلامها.

17. أكرم زعيتر، *بواكير النضال من مذكرات أكرم زعيتر 1909–1935* (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994)، 707.

18. أشار ممدوح السخن لاحقًا إلى لقاء في الحمة جمعه بعبد اللطيف صلاح ومحمد عزة دروزة ورشيد الحاج إبراهيم تناول حال الوطن. "رسالة ممدوح السخن إلى أكرم زعيتر"، 9 أبريل 1935، وثيقة مخطوطة محفوظة مصوّرة في أرشيف مشروع توثيق وبحث القضية الفلسطينية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

19. المرجع نفسه.

20. لتراجع عن ذلك النشاط ما خطّه أحد المشاركين فيه: بلال محمد شلش، *داخل السور القديم: نصوص قاسم الريماوي عن الجهاد المقدس: دراسة وتحقيق* (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020).

21. محمد عزة دروزة، *مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305–1404هـ/ 1887–1984م*، مج5 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، 598.

22. يتضح من النقاشات التي يشير إليها الهاشمي، والتي سجلها حمدي الباجه جي، ممثّل العراق، أن الدول العربية كانت راغبة في إزاحة الحاج أمين والهيئة العربية العليا عن كل ما يتعلَّق بفلسطين، لخلافاتها التاريخية معه. خلدون ساطع الحصري، تحقيق وتقديم، *مذكرات طه الهاشمي 1942–1955: العراق – سوريا – القضية الفلسطينية*، ج2 (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1978)، 148، 181، 191؛ *تقرير لجنة التحقيق النيابية في قضية فلسطين* (بغداد: مطبعة الحكومة، 1949)، 101.

23. بهجت أبو غربية، *من مذكرات المناضل بهجت أبو غربية: من النكبة إلى الانتفاضة (1949–2000)* (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004)، 19؛ شلش، داخل السور القديم، 158–170.

24. عن النشاط الفدائي خلال هذه المرحلة، يُنظر: الوزير، *البدايات*، 1915؛ حسين أبو النمل، "حرب الفدائيين في قطاع غزة (28 فبراير 1955–29 نوفمبر 1956)"، *شؤون فلسطينية*، العدد 62 (يناير 1977): 170–199؛

Shaul Bartal, The Fedayeen Emerge: The Palestine-Israel Conflict, 1949-1956 (London: Authorhouse, 2011).

25. لتراجع، يزيد صايغ، *رفض الهزيمة: بدايات العمل المسلح في الضفة والقطاع 1967* (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1992). ولوجه من وجوه الفرصة التي شكَّلتها الحرب للمنظمات الفدائية في بقية فلسطين الوسطى، بإنهاء البنى الأمنية القائمة، راجع: بلال محمد شلش، "هزيمة حزيران/ يونيو 1967 وإسهامها في إعادة بعث القوى السياسية المقاومة في الضفة الغربية"، في: *حرب حزيران/ يونيو 1967: مسارات الحرب وتداعياتها*، تحرير أحمد قاسم حسين (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020)، 223–252. ووجه ثانٍ مرتبط بإعادة توحيد فلسطين وانعكاس ذلك على البنى التنظيمية للتنظيمات الفدائية، يُنظر: بلال محمد شلش، "التقوا في الأسر': مقاتلو الأرض المحتلة (حزيران 1967 – أيلول 1970)"، في: عبد الرحيم الشيخ، محرّر، *مفهمة فلسطين الحديثة: نماذج من المعرفة التحرُّرية (2)* (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2023)، 193–224.

26. لتراجع، محسن محمد صالح، *الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني – قطاع غزة 1949–1967* (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2020).

27. للاستزادة، راجع: غسان محمد دوعر، *قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني 1968–1970* (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2018).

28. لتراجع، أنور أبو طه، "حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين: الأصول، الأيديولوجيا، التحوُّلات"، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1999؛ نهاد الشيخ خليل، *حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة 1967–1987* (غزة: مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، 2011)، 223–228.

29. من أبرز النصوص التي خطّها الشقاقي حول هذه الفكرة، ما نشره بمعيّة بشير موسى نافع في *المختار الإسلامي* بأسماء حركية؛ يُنظر: عز الدين الفارس (فتحي الشقاقي)؛ أحمد صادق (بشير موسى نافع)، "القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية... لماذا؟"، *المختار الإسلامي*، عدد 13 (يوليو 1980): 28–41، 28.

30. المرجع نفسه، 35.
31. يلاحظ أن أبناء هذه المسارات ومن قبله الشقاقي وإخوانه قدموا قراءة مغايرة لأفكار سيد قطب؛ إذ وُجّهت هذه الأفكار للمفاصلة لتكون مع العدو المحتل بدلًا من المجتمع المحلي. ولم يكن قطب الحاضر الوحيد؛ إذ حضرت واستعيدت كتابات وممارسة شخصيات أخرى، كان أبرزها المرشد العام المؤسس حسن البنا، وكأن هذا الحراك لم يكن إلا عودة لأصل الجماعة ومسارها المتصل بالقضية الفلسطينية.
32. المرجع نفسه، 96–97.
33. لم يكن مسودي فريدًا، فقد كان الشيخ أحمد ياسين أحد أبرز روّاد هذا الاتجاه في الجماعة؛ إذ لم يغادر الجماعة بعد رفض قائد التنظيم الفلسطيني عبد الله أبو عزة إسناد رغبته في التحوُّل للعمل العسكري أواخر الستينات، ومن رواده كذلك عضو المكتب الإداري للجماعة لحظة تأسيس حماس حسن القيق. لتراجع عن النشاط الموازي لهذا المسار في الأرض المحتلة: عبد الله غوشة، *المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية* (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2015)، 107–119، 152–162؛ شاكر الجوهري، إعداد، *د. موسى أبو مرزوق: مشوار حياة، ذكريات اللجوء والغرب وسنوات النضال، الجزء الأول* (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2019)، 77–93.
34. إبراهيم مرعي، "في إعادة الاعتبار إلى 'تحرير فلسطين'"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، عدد 136 (خريف 2023): 7–19، 11.
35. المرجع نفسه، 17.
36. لتراجع: بلال محمد شلش، "تحوُّلات المقاومة المسلحة لحركة حماس في الضفة الغربية في أثناء انتفاضة الأقصى: من المركزية إلى الشظايا المتفجرة"، في: *قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني*، الجزء الأول: في الهوية والمقاومة والقانون الدولي (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015): 417–464.

استراتيجيات المقاومة الفلسطينية في حرب طوفان الأقصى (2023-2025)

علاء جمال النجار

مقدمة

مثّلت عملية "طوفان الأقصى" يوم 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023 أكبر وأنجح الضربات العسكرية التي وجهتها المقاومة الفلسطينية إلى "إسرائيل" منذ إنشائها، لقد كانت عملية مفاجئة، منسّقة، حقَّقت أهدافها بنجاح وسرعة؛ فاقت توقعات الصديق والعدو، فأسقطت منظومة السياج الأمني العازل، وهزمت فرقة غزة التابعة لجيش الاحتلال، واقتحمت مواقعها، وقتلت نحو 1200 من جنود الاحتلال ومستوطنيه، وعادت بنحو 250 أسيرًا، لتكون الحدث الاستراتيجي الذي غيّر مجرى الأحداث في المنطقة.

ثم كانت الحرب التي تلت العملية أطولَ حروب المقاومة الفلسطينية مع "إسرائيل"، وأكثرها ضراوة، وأشدّها فتكًا بالشعب الفلسطيني ومقاومته؛ التي أنهكها الحصار المضروب على غزة منذ 17 عامًا. ورغم ذلك، فقد قاتلت ببسالة، في ظروف معقدة، على امتداد 15 شهرًا من الحرب، إلى أن توقفت باتفاق هدنة مؤقتة وتبادل للأسرى في 19 يناير/ كانون الثاني 2025.

لقد استخدمت المقاومة الفلسطينية استراتيجيات عسكرية وميدانية خاصة بها؛ كانت مزيجًا من استراتيجيات الحروب النظامية، والحروب غير المتماثلة، وحروب العصابات، وحروب التحرُّر الوطني، فأخذت المقاومة من كلٍّ منها ما يناسبها، وابتكرت بذلك مدرسة ثورية فريدة قائمة بذاتها.

لذا؛ تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة أهم الاستراتيجيات العسكرية للمقاومة الفلسطينية في حرب "طوفان الأقصى"، وتحليل استخدامها وأثرها في

الحرب، ثم تسليط الضوء على أهمّ الإنجازات الميدانية والسياسية التي حقَّقتها هذه الاستراتيجيات، وأهم التحدِّيات التي عجزت عن مواجهتها كليًّا أو جزئيًّا.

نظرة على أنماط مختلفة من الحروب

يُعرّف الجنرال والمفكر البروسي "كارل فون كلاوزفيتز" الحرب بأنها "عمل من أعمال العنف؛ المقصود منها إجبار الخصم على العمل وفق إرادتنا، وهي مجرد استمرار للسياسة بوسائل أخرى"[1].

والحرب في جوهرها واحدة، لكنها تُصنف إلى أنواع؛ حسب غاياتها السياسية، ووسائل خوضها، ومستوياتها، ومدّتها، وطبيعة القوى المتصارعة، ومن أبرز هذه الأنواع:

الحروب غير المتماثلة

نوع من الحروب، طرفاه جيش نظامي مقابل قوات غير نظامية، ويفضّلها الطرف الضعيف، مستفيدًا من توفُّر تقنيات المعلومات والأسلحة رخيصة الثمن، ومعتمدًا على السرية، والغموض، والحرب النفسية، والإبداع والابتكار في أدوات واستراتيجيات القتال. وعلى خلاف الحرب التقليدية، لا يوجد مسرح عمليات واضح يلتقي فيه المقاتلون، بل يعمل الطرف الضعيف على تجنب خوض مواجهة مباشرة وحاسمة، والتركيز على الالتفاف على قوة الخصم وقدراته، وتفاديها وتحويلها إلى نقاط ضعف. وأثبتت هذه الحروب قدرةً على هزيمة القوى العظمى، كما هُزمت الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان، وكما صمدت المقاومة الفلسطينية في وجه الاحتلال "الإسرائيلي"، وتسمى أحيانًا بالحروب غير المتكافئة، وغير المتوازنة، وغير المتناظرة، وغير التقليدية[2].

حروب التحرُّر الوطني

حروب تستخدم فيها الشعوب قدراتها الشاملة؛ من أجل تحرير أراضيها الوطنية المحتلة من دولةٍ معتدية، وهي فعل وطني عقائدي ومسلّح؛ وتعتمد على الشعب بشكل كبير، وعلى عدالة قضيته، وتقوم على الاستنزاف طويل الأمد، ولا

تتكافأ فيها القوى بين الطرفين، فهي أحد أشكال الحروب غير المتماثلة (غير المتوازنة)، ولها عدة تسميات، مثل: حروب التحرُّر الوطني، وحروب التحرُّر الشعبي، والحروب الثورية، وحرب الشعب، والمقاومة الوطنية[3].

حروب العصابات

شكل من أشكال الحروب غير المتماثلة، تقوم بها مجموعات قتالية صغيرة، يجمعها هدف واحد، ومدعمة بتسليح أقل عددًا ونوعية من تسليح الجيوش، وتعتمد في قتالها على مباغتة العدو في المكان والزمان والأسلوب، وترتكز على المناورة، والحركية، ومناعة الأرض، والعمل السياسي، وتعاون السكان، ومعرفة مسرح العمليات واستثماره، ولها تسميات أخرى؛ مثل: الحروب الصغيرة، أو الجماعة الصغيرة المسلحة، أو كما يسميها "شي جيفارا" فهي الطليعة الثورية وتكمن قوتها في جماهير الشعب[4].

استراتيجيات المقاومة الفلسطينية

أعدَّت المقاومة الفلسطينية جيّدًا لعملية طوفان الأقصى؛ وما تبعها من حرب طاحنة، واستخدمت خلالها استراتيجيات مختلفة ومتنوّعة؛ ضمن رؤيتها المتكاملة لطبيعة خوض الصراع مع الاحتلال، وكانت على النحو الآتي:

أسر جنود الاحتلال لتحرير الأسرى الفلسطينيين

يشكِّل الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال قضية دينية ووطنية وأخلاقية في وجدان الفلسطينيين؛ الذين تعزَّزت لديهم قناعة راسخة بألا أمل في تحرير أبنائهم إلا بامتلاك أوراق مساومة، ومفاوضة إسرائيل تحت الضغط؛ ولذلك نفذت المقاومة الفلسطينية عشرات العمليات والمحاولات لخطف جنود الاحتلال على مدار الصراع، ونجحت في تنفيذ صفقات تبادل، لكنها لم تصل إلى مستوى "تبييض السجون".

لقد تحوَّل أسر جنود الاحتلال إلى استراتيجية واضحة لدى المقاومة؛ سرعان ما تحوَّلت إلى سلسلة إجراءات ميدانية، مثل التدريب المستمر للوحدات المقاتلة

على عمليات أسر واحتجاز الجنود؛ سواء كانت خلال العمليات الدفاعية أم التعرضية (الهجومية)، والتجهيز لعمليات أسر جديدة كلّما تعنّت الاحتلال في إطلاق الأسرى، كما أُسست وحدة خاصة سُمِّيت "وحدة الظل"؛ مكلّفة بمهمة إخفاء وحماية الرهائن من جيش الاحتلال؛ الذي يسعى بكل قوة إلى قصفهم والتخلص من عبئهم التفاوضي[5].

وبعد مرور أكثر من 11 عامًا على آخر صفقة تبادل (صفقة وفاء الأحرار عام 2011)، بدأت المقاومة تجهز لعملية طوفان الأقصى، وكان من أهم دوافعها وأهدافها تحرير الأسرى، وفقًا لما كشفه الشهيد العاروري (نائب رئيس حركة حماس) بعد أيام من العملية، وقد تمكَّنت بالفعل خلال العملية من أسر نحو 250 من الإسرائيليين، ما بين جنود ومستوطنين، ونجحت في تأمين أغلبهم طوال مدة الحرب التي استمرت نحو 15 شهرًا[6].

وحتى خلال العمليات الدفاعية خلال الحرب، أعلنت المقاومة عن إيقاعها مجموعة جنود إسرائيليين بين قتيل وجريح وأسير في مخيم جباليا بتاريخ 25/ 5/ 2024 في إشارة إلى أسر بعضهم[7]. وقوبل الإعلان بتجاهل إسرائيلي؛ مما دفع إلى الاعتقاد بأن المأسورين مرتزقة أو عملاء يعملون مع الجيش الإسرائيلي؛ إلا أن الإعلان يؤكِّد إصرار المقاومة على هذه الاستراتيجية.

لقد أصبح الرهائن المحتجزون لدى المقاومة ورقة القوة الأساسية – وربما الأخيرة – بيد المقاومة، وصحيح أن إسرائيل حاولت تجاهلهم وعدم الخضوع للضغط، إلّا أنها خضعت أخيرًا لشروط المقاومة، وقرَّرت وقف الحرب على غزة، وإن كان دون التعهد بالتوقف التام، وبدأت بالإفراج عن الأسرى الفلسطينيين، بمن فيهم الأسرى ذوو الأحكام العالية، والمؤبدات، وقد رأى بعضهم النور أول مرة بعد 39 عامًا من الأسر؛ بفضل هذه الاستراتيجية[8].

لقد أثبتت هذه الاستراتيجية نجاحها وجدواها، وقد تحرَّر بفضلها آلاف الأسرى الفلسطينيين، ما كان لكثير منهم أن يروا النور – بعد عشرات السنوات في الأسر – إلا بفضلها.

حرب الأنفاق

تعمل المقاومة الفلسطينية في ظروفٍ غاية في التعقيد والخطورة، فهي تواجه سيطرة جوية إسرائيلية كاملة على كل ما يتحرَّك فوق الأرض في قطاع غزة، نتيجة المسح الجوي بأحدث وسائل التصوير والاستشعار والتتبع الاستخباري، باستخدام الأقمار الصناعية، وطيران الاستطلاع المسيّر، وقدرة الطيران الحربي المعادي على الإطباق على جميع الأهداف دون معوقات، وفي ظلِّ فقدان العمق الجغرافي الاستراتيجي بسبب ضيق مساحة غزة، وتضاريسها المنبسطة المكشوفة.

ونتيجة لكل ذلك، توجَّهت المقاومة نحو العمق العمودي بدلًا من الأفقي، وابتكرت استراتيجية فريدة؛ هي حرب الأنفاق، وكلّفت ركن العمليات بالمسؤولية عن هذا الملف ومتابعته، وحوّلته إلى مشروع كبير، فضاعف عمليات الحفر، لا سيما بعد حرب 2014، وخصصت لها أموالا طائلة، وطواقم فنية وهندسية كبيرة، وجهّزتها بما يتناسب مع حاجاتها القتالية، حتى أصبحت شبكة ممتدة متكاملة؛ يقدرها قادة عسكريون إسرائيليون بأنها تزيد على 720 كلم، في مساحة غزة الصغيرة التي لا تتجاوز 365 كلم^2، ما يجعلها أطول من ضعفي أنفاق فيتنام[9].

ويمكن تصنيف الأنفاق بناء على طبيعة استخدامها إلى أربعة أنواع: فالأول دفاعي؛ يوفر خطوط مواصلات للمناورة والتحرُّك بين العُقَد الدفاعية، وغرف لإعاشة القوات، ومخازن للعتاد العسكري، ومرابض للصواريخ والمدافع. والثاني: هجومي؛ مخصص للاقتراب من الأهداف والمواقع الإسرائيلية لشن عمليات هجومية. والثالث: لوجستي وإداري؛ يحتوي على غرف عمليات وقيادة وسيطرة، وسجون لاحتجاز أسرى العدو، وقاعات لاجتماعات القادة، وورش للتصنيع العسكري، ومخازن للعتاد والذخائر. والرابع: حدودي؛ لتهريب السلاح والعتاد واللوازم اللوجستية من مصر[10]، وقد أصبح وجود هذا النوع محلّ شك مؤخرًا، بسبب هدم السلطات المصرية أغلب هذه الأنفاق، وإنشائها منطقة عازلة جرداء بجانب الحدود الفلسطينية – المصرية مقابل قطاع غزة.

لقد أثبتت استراتيجية الأنفاق فعاليتها في حرب "طوفان الأقصى"؛ فقد كان لها دور رئيسي في تحقيق بعض التوازن بين المقاومة وجيش الاحتلال، إذ حرمت

الأخير من ميزات تفوُّقه الجوي والاستخباري والتسليحي والتنظيمي، وفي تعزيز صمود المقاومة، ونجاحها في التصدِّي للاجتياح البري لقطاع غزة، لا سيما في مناورة قوات المقاومة وتحرُّكها، وإدامة عمل العُقد الدفاعية، واستمرار إطلاق الصواريخ والقذائف، وتنظيم الإغارات على تجمّعات العدو، وتأمين العتاد والقادة والمقاومين والرهائن المحتجزين لدى المقاومة؛ ما أدَّى إلى استنزاف جيش الاحتلال، واقتناعه بالعجز عن حسم المعركة البرية ضد المقاومة؛ وفشله في فرض إرادته على الفلسطينيين.

الصواريخ والمسيّرات

تمتاز أسلحة الجو الموجّهة عن بُعد (كالصواريخ والمدفعية والطائرات المسيّرة)، بأنها رخيصة الثمن (مقارنة بالأسلحة الثقيلة للجيوش النظامية)، وبسهولة صناعتها وتركيبها (مقارنة بمنظومات التسلّح المتطورة)؛ ما جعلها من أهمّ أسلحة الفاعلين من غير الدول؛ مثل المقاومة الفلسطينية، وأوجد فرصة لتقليل اختلال موازين القوة بينها وبين إسرائيل، وزاد من القدرة على تهديد الأهداف "الإسرائيلية"، واختراق أنظمة الدفاع الجوي "الإسرائيلي"؛ باهظة الثمن ومحدودة العدد[11].

ولم تكن هذه مجرد أسلحة وأدوات امتلكتها المقاومة، إنما استراتيجية متكاملة، أوكلت مسؤولية إنتاجها لركن التصنيع العسكري، وكلفت ركن أسلحة الدعم والخدمات القتالية بتكتيك استخدامها، وقرَّرت تسخيرها لنقل التهديد إلى داخل عمق العدوّ، لتقويض مبدأ أساسيّ من مبادئ الاستراتيجية الأمنية الإسرائيلية القائمة على نقل المعركة إلى أرض العدو، والاحتفاظ بحدود آمنة لإسرائيل[12].

لقد بدأت المقاومة مشروعها في إنتاج ومراكمة وتطوير الصواريخ منذ عام 2001، ووصلت مدياتها من 1 كلم أول نموذج، وصولًا إلى صاروخ "عياش 250" الذي يصل مداه نحو 250 كلم، وأنتجت كميات كبيرة من الصواريخ المختلفة، كما دشنت مشروعها لامتلاك الطائرات المسيّرة؛ بدءًا من عام 2008، وأنتجت نماذج مختلفة منها، مثل طائرات "أبابيل، وشهاب، والزواري"، واستخدمتها في مهام

الاستطلاع والهجوم، واعتمدت في ذلك على خبرات مهندسيها، ومساهمات دول ومتطوعين من المسلمين والعرب، من أبرزهم المهندس التونسي محمد الزواري[13].

ومثلّت هذه الأسلحة (الصواريخ على وجه التحديد) سلاح الردع الأساسي؛ للرد على العدوان خلال السنوات الماضية، وساهمت في تثبيت معادلة ردع متبادلة بين المقاومة والاحتلال؛ استمرت عدة سنوات[14]، إلى أن جاءت عملية طوفان الأقصى في 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023؛ فاستخدمت المقاومة الصواريخ والمسيّرات والقذائف بشكل مكثّف خلال الضربة الافتتاحية؛ فأطلقت قرابة 3500 صاروخ وقذيفة نحو مواقع الجيش الإسرائيلي في غلاف غزة؛ من بينها 1000 نحو المطارات العسكرية الخمسة المحاذية لقطاع غزة؛ ما شلّ حركتها وتثبيتها أمام عبور قوات المقاومة إلى غلاف غزة، وساهم في هزيمة فرقة غزة التابعة للجيش الإسرائيلي[15].

وخلال الحرب التي تلت عملية "طوفان الأقصى"، ركزت المقاومة ضرباتها الصاروخية على الأهداف في عمق المدن الإسرائيلية، واستخدمت تكتيك "الإغراق الصاروخي"، بإطلاق أعداد كبيرة من الصواريخ دفعةً واحدة، نحو هدف واحد، ما أعجز المضادّات المعادية عن اعتراضها كلّها، ووصلت أعداد كبيرة منها إلى أهدافها، في حين نجحت قذائف الهاون والمسيّرات في استهداف تجمّعات الجيش الإسرائيلي في حدود غزة وغلافها[16]. لكن طول أمد المعركة أدّى إلى تراجع وتيرة صواريخ المقاومة، ونفاد الكمية الأكبر منها، وتدمير جزء منها في الاجتياح البري؛ ما مكن الجيش الإسرائيلي من التوغل وارتكاب المجازر دون رادع.

ورغم ذلك، تبقى الصواريخ سلاح الردع الأساسي؛ القادر على منع إسرائيل من استئناف العدوان، كالتوغل مجدّدًا في غزة، أو اغتيال قادة المقاومة. ويبقى السؤال قائما عن قدرة المقاومة على إعادة ترميم إنتاجها الصاروخي، ولو بالحد الأدنى، لاستعادة الردع أمام الاحتلال؛ الأمر الذي يصعب الجواب عنه حاليًّا.

الإغارات والكمائن والدفاع المرن

على الرغم من أنّ استراتيجية حروب العصابات دفاعية، فإن تكتيك هذه الحروب تعرّضي (هجومي)[17]، وقد كانت عملية "طوفان الأقصى" هجومًا منسّقًا، أخذت فيه المقاومة زمام المبادرة، ووجّهت ضربة استباقية للجيش الإسرائيلي، لا سيما بعد استشعارها قرب شنِّه ضربة مدمّرة لغزة ومقاومتها، لتصبح أكبر ضربة توجِّهها المقاومة الفلسطينية لجيش الاحتلال، إذ شارك فيها نحو 3500 مهاجم، و1500 في مهمة الدعم والإسناد الناري، وقد حقَّقت العملية نجاحًا فاق توقعات الصديق، وأذهل العدو، في آنٍ واحد[18].

وعندما بدأ الغزو البرّي الإسرائيلي لقطاع غزة، اتّسم سلوك المقاومة بالقتال التأخيري/ التراجعي في المناطق الزراعية والمفتوحة، وهي استراتيجية تقوم على تجنّب الزج بقوات كبيرة في القتال، مع العمل على تأخير تقدُّم العدو بهدف كسب الوقت، مقابل التخلِّي عن المساحة عند الضرورة، مع السعي المستمر إلى استنزاف جيش الاحتلال. أما في بدايات المدن والمناطق المأهولة، فبدأت المقاومة بالاصطدام بالقوات الغازية بدفاعٍ ثابت، مع محاولة طرد قوات العدو إلى خارجها؛ لكن القصف السّجادي الهائل الذي صبَّه الطيران الإسرائيلي على القطاع أدَّى إلى تدمير المباني؛ ما صعَّب الاستمرار في استراتيجية القتال الثابت، فتحوَّلت المقاومة إلى استراتيجية "الدفاع المرن"؛ التي أعلن عنها أبو عبيدة (الناطق باسم كتائب القسّام)[19]، والقائمة على الكرِّ والفر، والكمائن المفاجئة، وعمليات الإغارات الخاطفة، بهدف ضرب العدو أطول مدة ممكنة، وإجباره على الانسحاب تحت وطأة الاستنزاف[20].

لقد نفذت المقاومة مئات الكمائن ضد جيش الاحتلال، بالاعتماد على مجموعات صغيرة من المقاتلين، المسلّحين بالصواريخ المضادة للدروع قصيرة المدى، وبالعبوات الناسفة، والرشاشات الخفيفة والقنابل اليدوية، وبنادق القنص، وكاميرات للتوثيق الإعلامي.

ومن اللافت أن طبيعة هذه العمليات غاية في الخطورة والتعقيد، لذا تتطلّب نوعية مميزة من المقاتلين العقائديين، وعلى مستوى عالٍ من التدريب، ويتميَّزون

بالثبات والجرأة والحكمة في التصرُّف، وهو ما نجحت المقاومة في تجهيزه على مدار سنوات سابقة. وهكذا تحوَّل نمط القتال إلى ما وصفه ضباط في الجيش الإسرائيلي بأنه "قتال أشباح"، لا يظهر فيه المقاومون إلّا في لحظات إطلاق النار وضرب العدو، ما صعّب مهمة جيش الاحتلال وأفشل عملياته[21].

لقد نجحت استراتيجية "الدفاع المرن" في تجنّب سحق المقاومة، وضمان إدامة عملياتها لاستنزاف الاحتلال؛ الأمر الذي دفع قائد فرقة غزة السابق في جيش الاحتلال اللواء "غادي شامني" إلى الاعتراف بفشل جيشه في السيطرة على الأرض، وأنه كلّما اعتقد إتمام سيطرته على منطقة ما والقضاء على مقاوميها، سارعت المقاومة إلى إعادة انتشارها وتجديد ضرباتها، وإعادة سيطرتها على الأرض بعد دقائق من انسحاب الجيش "الإسرائيلي"، على حدّ وصفه[22].

مراكمة القوة وترميمها بالاعتماد على الذات

في بيئة غزة المحاصرة بإحكام من جميع الجهات منذ 17 عامًا متواصلة، كان من الصعب على المقاومة الاعتماد على الإمداد بالسلاح والعتاد من الخارج؛ لذا توجَّهت نحو استراتيجية الاعتماد على الذات وتقليل الاعتماد على الخارج؛ في تصنيع السلاح، والعتاد، وتطويره، وتعويض خسائرها الناتجة عن جولات القتال. وقد نجحت المقاومة في إنتاج الصواريخ، وقذائف المدفعية، وبنادق قنص، وطلقات، وقنابل، ومسيّرات، وقذائف مضادة للدروع، وعتاد متنوّع، من طائرات شراعية، وزوارق للكوماندوز البحري، ووسائل هندسية بجودة عالية، وكان لهذا التصنيع العسكري دور مهم في تنفيذ المقاومة عملياتها العسكرية[23].

وكانت كلمة السر في نجاح المعركة الدفاعية في قطاع غزة خلال هذه الحرب هي القذائف قصيرة المدى المصنّعة محليًّا؛ بنوعيها "تي.بي.جي" (TBG) المضادة للتحصينات والأفراد، و"ياسين 105" المضادة للدروع؛ وهي نسخة معدّلة من قذائف "آر.بي.جي" (RPG) الترادفية روسية الصنع، ذات الفعالية العالية في تدمير المدرعات. لقد كان لهذا السلاح أثره الفاعل في تدمير وإعطاب أكثر من 1100 مدرعة إسرائيلية، خلال أول 100 يوم من الحرب وحدها، وفقًا لإعلان القسّام[24]،

ما يعني أن المقاومة أطلقت على امتداد هذه الحرب قذائف مضادة للمدرعات أكثر بكثير من مجموع ما تعرّض له الجيش الإسرائيلي منذ تأسيسه[25].

وحين طال أمد الحرب، وفي ظلِّ انعدام الإمدادات الخارجية، ابتكرت المقاومة استراتيجية إعادة تدوير ذخائر الاحتلال التي ألقاها ولم تنفجر، والمقدّرة بنحو 10–15٪ منها، ففكّكت قنابل الطائرات من نوع "أم.كي" (MK) التي قد يصل وزن حشوتها التفجيرية إلى 225 كلغ، وذخائر المدفعية ذات العيارات 155 و175 ملم؛ التي تحوي كل منها 12.5–17 كلغ من المتفجرات، مما زوّد المقاومة بكميات كبيرة من الذخائر والمتفجرات، كانت ستحتاج سنوات طويلة لو أرادت إنتاجها في الداخل أو تهريبها من الخارج، وأعادت توظيفها، واستخدمتها في نصب الفخاخ الهندسية لمدرعات وجنود الاحتلال، وكان لها دور مهم في إدامة زخم المقاومة حتى اليوم الأخير من المعركة[26].

وحين فقدت المقاومة أعدادًا كبيرة من الشهداء على امتداد شهور الحرب، قامت بتجنيد مئات – وربما آلاف – المقاتلين الجدد من الشباب من أنصار المقاومة، الأمر الذي أحبط الاحتلال وشركاءه الدوليين، وبدد آمالهم بإمكانية القضاء على المقاومة، ودفع وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن (Antony Blinken) إلى الاعتراف بأن حماس استطاعت تجنيد آلاف الشباب الجدد، وعوّضت كل العدد الذي فقدته في الحرب[27]. لقد أبدعت المقاومة في استراتيجية الترميم والتصنيع في الداخل، واستطاعت ترميم قواها المستنزفة على المستوى البشري والتسليحي، وخاصة خلال الحرب، ما حافظ على بقائها، وأدام زخمها وفاعليتها طوال مدة القتال.

مركزية التخطيط والتنظيم ولامركزية التنفيذ

أدركت المقاومة الفلسطينية مبكّرًا صعوبة الاعتماد التام على العمل المركزي الهرمي خلال المعارك مع الاحتلال، وفي الوقت نفسه رفضت التحوُّل الكامل نحو اللامركزية، وما يصاحبها من عشوائية وضعف في الأداء القتالي على المستوى التكتيكي والاستراتيجي، فابتكرت استراتيجية هجينة تقوم على الجمع بين مركزيّة التخطيط والتنظيم والقيادة، ولامركزية القتال والتنفيذ المحلي.

وفي سبيل ذلك، نظمت كتائب القسّام نفسها في هيكل هرميّ، تقوده هيئة أركان مكونة من أركان العمليات، والاستخبارات، وأسلحة الدعم القتالي، والتصنيع العسكري، كما قسّمت قواتها لتغطّي كل جغرافيا قطاع غزة، التي قسمتها إلى مناطق دفاعية، تدافع عنها 5 ألوية، مكوّنة من 24 كتيبة مناطقية، تتولّى كل كتيبة الدفاع عن منطقتها الجغرافية التي قسّمتها كذلك إلى أجزاء، تتولّى سَرِيّة قتالية مسؤولية كل جزء منها، وداخل السَّرية الواحدة تتمركز فصائل قتالية يتكوَّن كل منها من مجموعة من نحو 10 مقاومين، يتمركزون في عُقَد دفاعية منتشرة، وتدرك كل عقدة واجبَها القتالي ومهمتها التفصيلية، وخضعت لعشرات المناورات التدريبية التي تحاكي القتال في هذه العُقَد[28]. والأمر ذاته ينطبق على بقية فصائل المقاومة الأخرى، ولكن بأعداد وأحجام أقلّ للقوات[29].

وهكذا، اعتمدت المقاومة طريقة القتال ضمن وحدات منظمة هيكلية كلما سمحت الظروف بذلك؛ كما في بداية الحرب، لكنها عندما خسرت العديد من قادتها، وتقطعت الاتصالات والتواصل الجغرافي نتيجة الاجتياح الإسرائيلي، أعادت ترتيب نفسها وتوجَّهت نحو القتال اللامركزي؛ في مجموعات صغيرة، بأسلوب حرب العصابات[30].

لكن هذا لا يعني التحوُّل نحو اللامركزية بشكل كامل، إنما حافظت القيادة العليا على مستوى معيّن من المركزية، فالقيادة العامة للمقاومة تضع الاستراتيجيات والتوجيهات العامة مثل قرارات التصعيد أو وقف القتال، والوفد المفاوض واحدٌ موحّد يمثل المقاومة بكل مناطقها وفصائلها، والإدارة المحليّة للسكان مركزيّة، والإعلام العسكري للمقاومة يعمل بمركزية، يدير من خلالها الحرب النفسية وعملياته الدعائية، وفي المقابل يستقبل صور المعارك والعمليات القتالية الواردة من الكتائب الميدانية لامركزيًّا، ويبثها بشكل مركزي، وبشعار موحد[31]. كما أن القتال اللامركزي لم يكن عشوائيًّا، بل ضمن الخطط الدفاعية المعدّة مسبقًا، مع تعديلها وفق مستجدات الميدان، فقد كان واضحًا أن التنسيق والتعاون استمر على قدم وساق بين الكتائب والألوية المتجاورة، لتحقيق مستوى من الدعم والإسناد والتعاون، وإنجاح خطة الدفاع المرن. لقد نجحت هذه

الاستراتيجية في بناء وإدارة جيش شبه نظامي، ذي قيادة مركزية موحّدة، قادرٍ على خوض القتال بشكل وحداتي مركزي كلما سنحت الفرصة، والانتقال إلى القتال بوحدات صغيرة لامركزية عندما تتعسّر الأمور، وبذلك تجمع بين استراتيجيات الجيوش شبه النظامية من جهة، وحروب العصابات من جهة أخرى.

المعنويات والحرب الإعلامية

تُعدُّ التعبئة المعنوية والحرب الإعلامية والنفسية أحد أهم مبادئ حروب العصابات، لذا ومنذ اللحظة الأولى لعملية "طوفان الأقصى"، حرصت المقاومة على بثّ مشاهد عبور مقاوميها للحدود، واقتحامهم مواقع ومستوطنات غلاف غزة بعد وقت قصير جدا من بدء الهجوم، بهدف تحويل هذه المشاهد إلى سلاح مهم في الحرب النفسية، الأمر الذي ضاعف الصدمة لدى القادة والمستوطنين في "إسرائيل"، وأحدث أثرا إيجابيا لدى الفلسطينيين، وأنصارهم على المستوى الإقليمي والدولي. كما ركزت المقاومة على تصوير عملياتها القتالية، وبثّها بعد وقت قصير إلى الإعلام، وجعلت جزءًا من المعركة شفافًا أمام الجمهور المتابع لمجريات الحرب، وعزَّزت صدقيتها، وتعمَّدت تكرار ظهور ناطقها العسكري أبو عبيدة باستمرار، وبعشرات الخطابات خلال الحرب، وخصته بالحديث عن تفاصيل العمليات العسكرية دون غيره، حتى أصبح أيقونة المقاومة والنضال من أجل الحرية في العالم[32].

لقد استهدفت خطابات قادة المقاومة رفع معنويات الفلسطينيين، وتثبيتهم، وطمأنتهم أن مقاومتهم بخير، وأن الهزيمة بعيدة كل البعد، وأن تهديدات إسرائيل بالنصر المطلق والقضاء على المقاومة حلم بعيد المنال، كما استهدفت مخاطبة أنصار القضية الفلسطينية من الشعوب العربية والإسلامية، ومحاولة حشدهم وتجييشهم لدعم القضية وإسناد مقاوميها[33].

فضلًا عن ذلك، كثفت المقاومة خطاباتها وموادها الدعائية الموجهة نحو الجمهور الإسرائيلي وقادته، فبثت عشرات الفيديوهات ما بين مشاهد للرهائن الإسرائيليين المحتجزين في غزة، أو تهديدات بهزيمة جيشهم على أرض غزة،

وكانت تحمل حربا نفسية شديدة التأثير على معنويات الإسرائيليين، باعتراف كثير من مفكريهم وقادتهم[34]. لقد كانت الحرب الإعلامية واحدة من أهم استراتيجيات المقاومة المميزة في حرب طوفان الأقصى، ونجحت في استثمار أثر القتال الميداني، بكشف زيف روايات جيش الاحتلال عن النصر والسيطرة، ونشر رواية المقاومة، ورفع معنويات الجمهور الفلسطيني وأنصاره، وتحفيز المقاومين في الميدان للتنافس على إنجاز الضربات المصورة الناجحة، ونشر الإحباط في صفوف الإسرائيليين قادة وجنودًا ومستوطنين، وتحفيز أنصار فلسطين على صعيد الأمة العربية والإسلامية.

التنسيق والتعاون مع قوى وجمهور المقاومة

اعتمدت المقاومة استراتيجية التنسيق والتعاون مع كل قوى ومكونات المقاومة، بدءًا بالمستوى المحلّي، المتمثّل في التنسيق بين كتائب وأركان المقاومة، والتنسيق مع الفصائل والحاضنة الشعبية، ووصولًا إلى قوى المقاومة الإقليمية.

ففي داخل بنية المقاومة، كان التنسيق على أعلى مستوى، لا سيما خلال عملية العبور يوم 7 أكتوبر، فقد كانت العملية مشتركةً بين صنوف الأسلحة؛ برًّا، بقوات النخبة الراجلة والمحمولة بالعربات، وجوًّا، بالطائرات الشراعية والمسيّرات، وبحرًا، بقوات الكوماندوز البحري المحمولة بالزوارق الخفيفة، زيادة على قوات المدفعية والصواريخ[35]. وفي المعركة الدفاعية؛ استمرّ التنسيق والتعاون والدعم المتبادل بين الألوية والكتائب المقاتلة، لا سيما المتجاورة منها، والتنسيق والتعاون بين أركان الاستخبارات والعمليات وأسلحة الدعم القتالي.

وعلى مستوى التنسيق بين فصائل المقاومة، فبمجرد إعلان القائد العام لكتائب القسّام محمد الضيف عن بدء عملية طوفان الأقصى، التحقت بها كل فصائل المقاومة، فعبرت الحدود، وشاركت في أسر إسرائيليين، وطبّقت ما تدربت عليه في التدريبات المشتركة التي عُرفت بمناورات "الركن الشديد"[36].

وتجلّى التنسيق على المستوى السياسي، في وحدة موقف فصائل المقاومة، ووحدة فريق المفاوضات الذي قادته حماس نيابةً عن كل فصائل المقاومة،

ورفضت حركة الجهاد الإسلامي عرضًا من بعض الوسطاء بفتح قناة تفاوض منفصلة. أمّا على المستوى الميداني، فظهر التعاون في الإمداد بالأسلحة والذخائر المتوافرة، وتنفيذ عمليات مشتركة ضد قوات الاحتلال، والقتال معًا في عُقَدٍ دفاعية مشتركة في بعض الأحيان، وفي تأمين الرهائن الإسرائيليين، وإجراءات تسليمهم في صفقة التبادل[37].

وعلى مستوى التنسيق مع جمهور المقاومة، فقد حافظت على شفافية المعلومات بالقدر الممكن، وسرعة توضيح المواقف السياسية والميدانية لجمهورها، ورفع المعنويات وكشف خطط الاحتلال، وقد بدا واضحًا اهتمام قيادة المقاومة بحاضنتها الشعبية، وتخصيصها جزءًا كبيرًا من خطابها لها، لا سيما في خطابات الناطق باسمها أبو عبيدة، فقد كانت ترى في ثبات شعبها كلمة السر للثبات في الحرب الطاحنة، لكونه رفض الذل والانكسار، وقدَّم كل غال ونفيس من أجل وطنه ومقدساته، على حدٍّ وصف قائد كبير في المقاومة[38].

وقد لبَّت المقاومة في الضفة الغربية نداء المقاومة في غزة، ورغم أن الاستجابة لم تكن على المستوى المتوقع، لكنها نفذت العديد من العمليات العسكرية ضد جيش الاحتلال، وشهدت طفرة في عدد عملياتها، ونوعيتها؛ المتمثّلة في العمليات المصوّرة وتفجير العبوات الناسفة في آليات الاحتلال؛ الأمر الذي ساهم في استنزاف جيش الاحتلال في ميادين موزّعة[39]. ورغم أن قرار عملية "طوفان الأقصى" كان فلسطينيًّا خالصًا، فإن التنسيق والتعاون كان وثيقًا بعدها بين المقاومة الفلسطينية وقوى المقاومة الإقليمية المتمثّلة في ما يُعرف بمحور المقاومة، والمكوّن من المقاومة اللبنانية واليمنية والعراقية وإيران، وحاولت تحقيق مفهوم وحدة الساحات، ونجحت في ذلك إلى مستوى معيّن[40].

لقد أثمر هذا التعاون على تشجيع قوى المقاومة على الاشتباك مع إسرائيل من لبنان، وعلى ضربها انطلاقا من مناطق جديدة، كاليمن وإيران والعراق، مما استنزف إسرائيل، وشتّت جهودها، وعزَّز عزلتها في المنطقة العربية والإسلامية والعالم. كما تحوَّلت الحرب من محلية إلى إقليمية، الأمر الذي أعاد قضية فلسطين إلى صدارة القضايا العالمية والإقليمية من جديد. ومن جهة أخرى، رفع

هذا التعاون من معنويات الفلسطينيين، وأشعرهم بالإسناد من جزء من أمّتهم؛ بما عـزَّز ثبـاتهم، وإن كـان التفاعـل العربـي والإسـلامي بقـي أقـلّ ممـا كـان يأملـه الفلسطينيون أمام حرب طاحنة بهذه القسوة والخطورة.

الصبر الاستراتيجي والاستنزاف

تعتمد المقاومة في سلوكها على استراتيجية النفس الطويل، ففي مرحلة ما بعد حـرب 2014 إلـى مـا قبـل "طوفـان الأقصـى" 2023، التزمـت الصـبر الاسـتراتيجي، وركَّزت على بناء القوة وإنتاج الصواريخ وحفر الأنفاق، وتدريب القوات، وإحكام الخطـط الدفاعيـة، وخـلال تلـك المـدة كانـت تـدخل الجـولات القتاليـة بـين فينـة وأخرى، لتحقيق أهداف سياسية، وأحيانًـا مطلبيّة، لتحسين حيـاة السـكان في غـزة، وتخفيف وطأة الحصار المفروض عليهم، لكنها لم تبادر إلى حرب كبيرة؛ وربطت على نفسها، وتجنَّبت كثيرًا من جولات التصعيد غير الضرورية، وتحمَّلت من أجل ذلك كثيرًا من اللمز، فقد كان الهدف الأساسي من هذا السـلوك هـو مراكمـة القـوة، والخداع الاستراتيجي للاستخبارات الإسرائيلية.

إلى أن جاء الوقت الذي بادرت فيه إلى الهجوم يوم 7 أكتوبر، فضمنت النجاح في الساعات الأولى للعملية، وحقَّقت أهدافها الاستراتيجية من العملية، ثم تحوَّلت بعدها إلى الوضعية الدفاعية التي تتقنها، مع الاستعداد لحرب استنزاف طويلة إذا طال أمد الحرب، وقد صرح أبـو عبيـدة بـأن "المقاومـة أعـدت نفسـها لـدفاع طويـل ومستمر ومرن، ومن كافة الاتجاهـات، وأنّ كـل وقـتٍ تقضيـه قـوات العـدو في غـزة سيكبدها خسائر متواصلة"[41].

إن احتمالات نجاح حروب الاستنزاف في حالة قطاع غزة هـو احتمـال مرتفـع للغاية، فنتائج العديد من الحروب منذ عام 1914 تشير إلى أن المدافع الماهر الـذي يناور من خطوط داخلية، وبأسلوب التقرُّب غير المباشر، ويمتلـك مرونـة الحركـة؛ فإنه يفرض معادلته في المعركة، بحيث تتحوَّل نسبة الموارد التي يحتاجها المهـاجم بمعدل 8–10 مقابل المدافع؛ الأمر الـذي يستنزف المهـاجم علـى مستوى الجنـود والعتاد[42].

لكن خوض المدافع حرب الاستنزاف يتطلَّب وجود إمدادات خارجية مستمرة لتعويض خسائره من عتاد وسلاح وذخائر، وهو ما تفتقده المقاومة في غزة؛ لذا يُلاحظ أنها تكيَّفت مع الوضع الجديد، فقلّلت في الأشهر الأخيرة من الحرب وتيرة عملياتها المعتمدة على الرمايات الصاروخية وقذائف الهاون واستهداف المدرعات بالصواريخ المضادة للدبابات؛ واستعاضت عن ذلك بالتركيز على العمليات المعتمدة على العبوات الناسفة ضد المدرّعات والأفراد؛ تلك المصنّعة خلال الحرب من مخلّفات الاحتلال، ومن صواريخه وقنابله التي ألقاها على غزة ولم تنفجر، وبذلك تجاوزت هذه الأزمة، ونجحت في مواصلة القتال واستنزاف عدوها.

أبرز النجاحات والتحديات

حقَّقت الاستراتيجيات التي اعتمدتها المقاومة إنجازات ونجاحات كبيرة واضحة، لكنها عجزت عن مواجهة بعض التحدِّيات التي كانت أكبر من قدرتها بكثير، فكانت أبرز النجاحات على النحو الآتي:

1. حقَّقت المبادأة والمبادرة الجريئة بعملية طوفان الأقصى إحياءَ القضية الفلسطينية، وفرضها على رأس القضايا العالمية، بعدما تراجع حضورها وكادت تُنسى.
2. نجحت استراتيجية أسر الجنود والمستوطنين في ضمان تحرير آلاف الأسرى الفلسطينيين، وأن لم يتحقَّق هدف تبييض السجون من كل الأسرى أو أغلبهم على الأقل.
3. خلقت "حرب الأنفاق" بُعدًا جديدًا للقتال، ساعد على بقاء المقاومة واستمرارها بفاعلية، واستنزف الاحتلال، وأفشل أهدافه في الحسم ومحاولة فرض الإرادة على الفلسطينيين.
4. نقلت الصواريخ والمسيرات التهديد إلى عمق إسرائيل، وقوضت جزءًا من استراتيجية الأمن القومي الإسرائيلي، كما دعمت بفعالية العمليات الدفاعية بنيران مؤثرة وصائبة.

5. حقَّقت الكمائن المفاجئة والإغارات الخاطفة مبدأ "الدفاع المرن" بنجاح، مما حال دون انكسار المقاومة أمام الزخم العسكري "الإسرائيلي"، واستنزف الاحتلال.
6. أدَّى الاعتماد على الذات في بناء القوة إلى النجاح في إنتاج أدوات وأسلحة فعالة، عدّلت في ميزان المعركة، كما رممت جزءًا من خسائر المقاومة البشرية والمادية.
7. اعتماد المقاومة على هيكل تنظيمي هرمي يجمع بين المركزية في التخطيط والقيادة، واللامركزية في التنفيذ الميداني، ساهم في تعزيز فعالية المقاومة في مواجهة الاجتياح الإسرائيلي.
8. أبدعت الحرب الإعلامية في رفع معنويات الصديق، والتأثير على معنويات العدو، وحافظت على صدقية المقاومة، وحشدت الأنصار لها.
9. أثمر التنسيق والتعاون مع قوى المقاومة المحلية والإقليمية في تطوير الحرب نحو الإقليمية، وزيادة الضغط على إسرائيل، وفرض القضية الفلسطينية على أجندة الإقليم.
10. نجحت استراتيجية استنزاف العدو والنفس الطويل في الحيلولة دون انكسار الفلسطينيين، واستنزفت إسرائيل، وأوصلت قادتها إلى الإحباط واليأس من القدرة على الحسم السريع.

في المقابل، واجهت المقاومة الفلسطينية العديد من التحدِّيات؛ مثّل بعضها تهديدات وجودية لها ولشعبها، ولم تفلح استراتيجياتها المعتمدة في التغلب عليها، ومن أبرزها:

1. العجز عن التصدي للطيران الحربي الإسرائيلي، ما أطلق يده لارتكاب المجازر بحقِّ المدنيين، فقتل وأصاب أكثر من 167 ألف فلسطيني، ودمر نحو 70٪ من المباني والبنية التحتية[43].
2. ظهور خلل في تقدير الموقف لدى المقاومة قبل وبعد عملية "طوفان الأقصى"، فلم تتوقع تحمّل الاحتلال للخسائر في الاجتياح البرّي، واستعداده لخوض معركة طويلة الأمد، وتنكّره لأسراه لدى المقاومة ما

قلل من أهميتهم على أنهم ورقة ضغط.

3. خذلان الأنظمة الحاكمة في الدول العربية والإسلامية للفلسطينيين، مقابل الدعم الغربيّ اللامحدود "لإسرائيل"، ما أدَّى إلى الاستفراد بالفلسطينيين وتعريض وجودهم وقضيتهم للخطر.
4. ضعف استجابة والتحاق الفلسطينيين في مناطق الضفة والقدس والداخل المحتل بالمعركة، ما سهّل على الاحتلال الاستفراد بقطاع غزة، ومضاعفة العدوان عليه.

خلاصة

أعدت المقاومة الفلسطينية جيدًا لعملية "طوفان الأقصى"، وما تبعها من حرب طاحنة، واستخدمت استراتيجيات متنوّعة ومبتكرة لمواجهة التفوُّق العسكري الإسرائيلي؛ كانت مزيجًا من استراتيجيات الحروب غير المتماثلة، وحروب العصابات، وحروب التحرُّر الوطني، فاستعارت من كلٍّ منها ما يناسبها، وابتكرت بذلك مدرسة ثورية فريدة خاصة بها، وحقَّقت بها نجاحات مهمة. فقد نجحت المبادأة الاستراتيجية عبر القيام بهجوم طوفان الأقصى في إحياء القضية الفلسطينية، وفرضها على رأس القضايا العالمية، وضمنت استراتيجية أسر الرهائن الإسرائيليين تحرير آلاف الأسرى الفلسطينيين وفي مقدّمتهم أسرى المؤبدات والأحكام العالية، ونجحت "حرب الأنفاق" في تقليل الاختلال الهائل في ميزان القوة، وتجاوز معضلة السيطرة الجوية الإسرائيلية، ما سهّل عمل المقاومة، وأنجح عملياتها. كما نجحت استراتيجية السابحات الجويّة (كالصواريخ والمسيّرات) في نقل المعركة والتهديد إلى عمق إسرائيل، وقوضت نظرية أمنها القومي، وأنجحت الكمائن والإغارات استراتيجية "الدفاع المرن"؛ فمنعت انكسار المقاومة، واستنزفت الاحتلال.

وأفلحت استراتيجية مراكمة القوة وترميمها في إنتاج معدات وأسلحة مؤثرة عدّلت في ميزان المعركة، ورممت جزءًا من خسائر المقاومة البشرية والمادية خلال الحرب، وأدامت زخم القتال وأمده. كما أنّ النموذج التنظيمي الهرميّ للمقاومة –

المكوّن من مركزية التخطيط والقيادة ولامركزية التنفيذ الميداني – ساهم في تعزيز فعالية المقاومة في مواجهة الاجتياح الإسرائيلي. ونجحت الحرب الإعلامية والنفسية التي شنتها المقاومة في تعزيز صدقيتها، ورفع معنويات الفلسطينيين وأنصارهم، وإضعاف معنويات عدوهم، كما أسهمت استراتيجية التنسيق والتعاون في حشد الجهود المحلية والإقليمية لمقاومة إسرائيل، ودعمت الموقف الفلسطيني، وشتتت جهود إسرائيل، في حين نجح رهان المقاومة على استراتيجية الاستنزاف في إنهاك جيش الاحتلال، وإفشال خططه لحسم الحرب والنصر المطلق.

ورغم هذه النجاحات، فإن المقاومة عجزت عن التصدي لتحدِّياتٍ خطرة، من أبرزها التصدي للطيران الحربي الإسرائيلي الذي ارتكب أبشع المجازر بحقِّ المدنيين الفلسطينيين على مدار الحرب. ولم يكن تقدير المقاومة دقيقا لما سيكون عليه رد فعل إسرائيل وقدرتها على تحمّل الخسائر البشرية والحروب الطويلة واهتمامها بأسراها. كما عانت المقاومة من ضعف استجابة الفلسطينيين في الضفة والقدس والداخل المحتل والتحاقهم بالمعركة، ومن خذلان النظام الرسمي العربي؛ مقابل الدعم الغربي غير المحدود لإسرائيل وغير المشروط. لقد أدَّى كل ما سبق إلى نتيجة واحدة، مفادها أن المقاومة أبدعت ولم تُهزم، وأن إسرائيل رغم نجاحها في الإبادة الجماعية ضد المدنيين فإنها لم تنتصر في ساحة المعركة العسكرية.

المراجع

1. صباح نوري العجيلي وصلاح حسن الربيعي، *استراتيجية حروب التحرير الوطنية*، ط 1 (عمّان: مركز الكتاب الأكاديمي، 2015)، 45.
2. العجيلي والربيعي، *استراتيجية حروب التحرير الوطنية*، 176؛ وآلان شافر وآخرون، *التحوُّل في منظور الحرب: الحرب الهجينة*، تحرير يوجيل أوزيل وإرتان إينالتكين، ترجمة مركز نورس للدراسات (إسطنبول: جامعة الدفاع الوطني، 2017)، 30–31، 76.
3. العجيلي والربيعي، *استراتيجية حروب التحرير الوطنية*، 46–48، 59–60.
4. العجيلي والربيعي، *استراتيجية حروب التحرير الوطنية*، 51-52.
5. "مقابلة تلفزيونية مع عز الدين الحداد، قائد لواء غزة في كتائب القسّام"، في برنامج *ما خفي أعظم*، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
6. "طوفان الأقصى: أكبر هجوم للمقاومة الفلسطينية على إسرائيل"، موسوعة الجزيرة، 30 يونيو 2024.
7. أبو عبيدة، "كلمة الناطق العسكري باسم كتائب القسّام في اليوم (233) من معركة طوفان الأقصى"، منشور تلغرام، 26 مايو 2025.
8. "بينهم أسير معتقل منذ 39 عامًا.. قائمة بأسماء الأسرى الفلسطينيين المقرّر الإفراج عنهم"، الجزيرة نت، 25 يناير 2025.
9. Majd Abuamer, "Gaza's Subterranean Warfare: Palestinian Resistance Tunnels vs. Israel's Military Strategy," *Studies in Conflict & Terrorism*, May 5, 2024, 1-26.
10. Abuamer, "Gaza's Subterranean Warfare."
11. حسين أغا وأحمد الخالدي، *إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني* (رام الله: مؤسسة مواطن، 2006)، 73؛

Natan Sachs and Kevin Huggard, *Israel in the Middle East: The Next Two Decades* (Washington, DC: The Brookings Institution, 2020), 12, https://brook.gs/3TEQ7r5

12. غادي آيزنكوت وغابي سيبوني، *توجيهات أساسية لاستراتيجية الأمن القومي الإسرائيلي* (واشنطن: معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، 2019)، 33.
13. كتائب القسّام، *صناعات قسامية* (غزة: المكتب الإعلامي لكتائب القسّام، 2016).
14. أحمد قاسم حسين، *كتائب القسّام ومعركة سيف القدس: ممكنات الردع النسبي في حرب غير متناظرة*، سلسلة أوراق استراتيجية، ورقة رقم 4 (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021)، 13.
15. "مقابلة مع عز الدين الحداد"، في *ما خفي أعظم*، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
16. د. م.، الغزو الخائب: تحليل المواجهة البرية في قطاع غزة من 27/ 10/ 2023 حتى 16/ 7/ 2024 (لبنان: مركز الاتحاد للأبحاث والتطوير، 2024)، 110، 131، 137، 162.
17. العجيلي والربيعي، استراتيجية حروب التحرير الوطنية، 54.
18. "مقابلة مع عز الدين الحداد؛ ومقابلة مع قائد ميداني في كتائب القسّام"، في *ما خفي أعظم*، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
19. أبو عبيدة، "خطاب الناطق العسكري باسم كتائب القسّام في اليوم (42) من معركة طوفان الأقصى"، منشور تلغرام، 17 نوفمبر 2024.

20. مركز الخطابي، *الدفاع في الحرب الثورية*، ط 1 (سوريا: مركز الخطابي للدراسات، 2022)، 44–55.
21. "بالكاد نراهم: جندي إسرائيلي يروي حرب الأشباح بغزة"، العين الإخبارية، 6 نوفمبر 2023.
22. Adam Rasgon, "The War in Gaza Has Left a Power Vacuum, and Scant Planning to Fill It," *The New York Times*, March 20, 2024.
23. "مقابلة مع قائد ميداني في كتائب القسّام"، في *ما خفي أعظم*، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
24. أبو عبيدة، "خطاب الناطق العسكري باسم كتائب القسّام في اليوم 100 من معركة طوفان الأقصى"، منشور تلغرام، 14 يناير 2024.
25. "مقابلة مع إلياس حنا"، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
26. د. م.، *الغزو الخائب*، 124، 127؛ و"ثلاثة أسباب مكنت المقاومة في جباليا من الصمود والإبداع تعرف عليها"، فلسطين بوست، 16 نوفمبر 2024.
27. سامح فواز، "بلينكن: حماس عوضت خسائرها البشرية"، بوابة أخبار اليوم، 14 يناير 2025.
28. "العُقَد القتالية.. تكتيك القسّام في مواجهة جيش الاحتلال"، الجزيرة نت، 5 مارس 2024؛ وفريق العمل، "ما نعرفه عن ألوية القسّام (شمال الوادي)"، متراس، 17 فبراير 2024.
29. العجيلي والربيعي، استراتيجية حروب التحرير الوطنية، 53.
30. "مقابلة مع إلياس حنا"، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
31. "من يقف خلف الرسائل الإعلامية التي تبثها كتائب القسّام؟"، الجزيرة نت، 25 فبراير 2025.
32. "بعد مرور 100 يوم.. هذا ما جاء في خطابات أبو عبيدة منذ بدء طوفان الأقصى"، الجزيرة مباشر، 15 يناير 2024.
33. محمد الضيف، "خطاب قائد هيئة أركان القسّام محمد الضيف"، موقع كتائب القسّام، 7 أكتوبر 2023.
34. "بعد مرور 100 يوم.. هذا ما جاء في خطابات أبو عبيدة منذ بدء طوفان الأقصى"، الجزيرة مباشر، 15 يناير 2024.
35. "مقابلة مع إلياس حنا"، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
36. عبد العالي رقاد، وريتشارد إرفينغ – براون، وبنديكت غارمان، "كيف أعدَّت حماس قوة لضرب إسرائيل في 7 أكتوبر؟"، BBC، 28 نوفمبر 2023.
37. "الجهاد الإسلامي: نرفض محاولات العدو التفاوض معنا بانفراد حول صفقة الأسرى"، وكالة تسنيم، 7 سبتمبر 2024.
38. "مقابلة مع عز الدين الحداد"، قناة الجزيرة، 24 يناير 2025.
39. د. م.، *الغزو الخائب*، 44.
40. د. م.، *الغزو الخائب*، 48–54.
41. أبو عبيدة، "خطاب الناطق العسكري باسم كتائب القسّام في اليوم (42) من معركة طوفان الأقصى"، منشور تلغرام، 17 نوفمبر 2024.
42. د. م.، *الغزو الخائب*، 34.
43. الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني (PCBS)، "عدوان الاحتلال الإسرائيلي على فلسطين منذ 07/ 10/ 2023"، 24 فبراير 2025.

اللغة المبصرة وسلطتها الرمزية:
دراسة في خطابات الملثم أبو عبيدة

فاطمة الصمادي

مقدمة

تتجاوز اللغة في السياقات الاستعمارية وظيفة التواصل، لتصبح كذلك أداة لإنتاج المعنى وإعادة صياغة الوعي والهوية. وقد أبرزت الأدبيات النقدية، وخاصة تراث فرانز فانون، أن الهيمنة الاستعمارية لا تكون بالقوة المادية فحسب، إنما تعتمد كذلك على ما يمكن تسميته "بالاستلاب اللغوي"، إذ تُفرض أنماط تعبير تسعى إلى إعادة تعريف الذات المستعمَرة وفق منظورات القوة المهيمنة. وبذلك تغدو اللغة في هذا السياق، ميدان صراع رمزي لا يقلّ أهمية عن ميدان الصراع المسلح.

برزت اللغة، منذ القرن 16 كأداة بنيوية في المشروع الإمبريالي الإسباني، إذ لم تُستخدم باعتبارها وسيطًا تواصليًّا فحسب، إنما كآلية لإعادة تشكيل المجال الرمزي وإعادة إنتاج علاقات السلطة، كما يبيِّن دافيد غونزالز نييتو (David Gonzalez Nieto)[1]. في المقابل، اتخذت حركات المقاومة والتحرُّر اللغة أداة فعالة في مواجهة الهيمنة الاستعمارية وما تفرضه من "استلاب ثقافي" على الذات المستعمَرة. وفي هذا السياق، تبرز خطابات المقاومة بوصفها ممارسة لغوية مضادة، تسعى إلى تفكيك سرديات الهيمنة وإعادة إنتاج المعنى من داخل التجربة التاريخية للشعوب. ويُعدُّ خطاب الناطق باسم كتائب القسّام، المعروف "بالملثم" أو "أبو عبيدة"[2]، نموذجًا لافتًا لهذا النمط من الخطاب، إذ يتجاوز البعد الإخباري إلى بناء منظومة رمزية متكاملة تستهدف التأثير النفسي والمعنوي، وإعادة تغيير إدراك جمهور المقاولات والرأي العام العالمي لمعادلات القوة والصراع.

منهجيًّا، يعتمد تحليل الخطاب على التحليل الكيفي الذي يركِّز على فهم المعنى والسياق، مستفيدًا من أدوات اللغويات والسيميولوجيا لدراسة المحتوى الخطابي. كما يولي هذا التحليل اهتمامًا بالغًا بالسياق الاجتماعي والسياسي، حيث يُستخدم لفهم دور اللغة في تكوين المعنى ضمن بيئات محددة وتأثيرها على العلاقات الاجتماعية والسياسية.

أسَّس جون أوستين (John Osteen) نظرية أفعال الكلام، التي صاغ مبادئها في مؤلفه "كيف ننجز الأشياء بالكلمات"[3] (How to Do Things with Words). وقد أبرز من خلالها الدور التداولي للغة في إنتاج المعنى، مؤكّدًا الطابع الإنجازي للكلام[4]. وبذلك، فإن الفعل الكلامي يشكِّل أداة للتغيير في وضع المتلقِّي وسلوكه، من خلال التفاعل القائم بين المرسل الذي يسعى إلى إحداث أثر إنجازي وبين المتلقِّي، وهنا تبرز أهمية التداولية باعتبارها أداة لتحقيق مقاصد وأهداف اجتماعية[5]. والتداولية كما ناقشها جيوفري ليتش (Geoffrey Leech) في كتابه "مبادئ التداولية" (Principles of Pragmatics)[6] لا تقلِّل من قيمة الدلالة، بل قدّم نظرية تجمع بين التداولي والنحوي في مزج للفونولوجيا[7] والنحو الملفوظ ودلالته التداولية، ليقدم المعنى المباشر وما يحمله فعل الكلام من إنجاز وقوة، ولهذا يقول إن التداولية تتكئ على علم الدلالة، وتتفاعل مع النحو بواسطة الدلالة.

في هذه الدراسة تعتمد الباحثة على منهج بحثي مركب يركِّز بصورة أساسية على المنهج الوصفي التحليلي، القائم على تتبُّع وتفسير الظواهر الاتصالية والإعلامية التي مارستها المقاومة الفلسطينية خلال معركة طوفان الأقصى، وذلك من خلال تحليل محتوى الرسائل الإعلامية المصوّرة والبيانات الصادرة عن المقاومة (أبو عبيدة)، وعددها 33 رسالة تمَّ بثها في الفترة من 8 أكتوبر/ تشرين الأول 2023 إلى 18 يوليو/ تموز 2025. وتحاول الكشف عن الآليات الاتصالية والاستراتيجيات الخطابية التي استخدمتها المقاومة لتثبيت سرديتها، واعتمدت منهجًا تحليليًّا تداوليًّا، يستند إلى نظرية أفعال الكلام لجون أوستين، وذلك بتصنيف خطابات أبو عبيدة منذ معركة طوفان الأقصى وما لحقها؛ وفق التصنيفات الأوستينية المتعلقة بالأفعال، وتحليلها تداوليًّا للكشف عن القوة الإنجازية والإقناعية للخطاب.

كما حللت استدعاء مفهوم "النازية" في خطابات أبو عبيدة على سبيل المثال، وعمدت إلى مقاربة متعدّدة المستويات تجمع بين أدوات تحليل الخطاب النقدي والسيميائيات الثقافية وتحليل المعنى التداولي. والجمع بين هذه الأدوات يتيح قراءة شاملة للخطاب على ثلاثة مستويات: المستوى اللغوي - التركيبي، والمستوى الدلالي - الرمزي، والمستوى التداولي - الوظيفي. وهذا المنهج المركب يمكّن من الكشف عن الكيفية التي يُعاد بها إنتاج المعنى في الخطاب المقاوم، إذ تشكّل سردية المقاومة قوة أخلاقية في مواجهة الشرّ المطلق.

تُظهر الدراسات السابقة التي تناولت خطاب أبو عبيدة، الناطق الرسمي باسم كتائب القسّام، تنوُّعًا واضحًا في المقاربات التحليلية التي سعت إلى تفكيك ذلك الخطاب وفهم وظائفه الاتصالية والسياسية والنفسية. فقد انصرفت فئة من هذه الدراسات إلى تحليل البنية الإقناعية والدعائية للخطاب، كما في دراسة الأساليب الإقناعية وتقنيات الدعاية في خطابات الناطق الرسمي لكتائب القسّام خلال معركة طوفان الأقصى[8]، التي بينت اعتماد الخطاب على استمالات المنطق والمصداقية والعاطفة، إلى جانب توظيف جملة من التقنيات الدعائية مثل حشد التأييد الشعبي.

في السياق ذاته، تناولت دراسة استراتيجية بناء الخطاب السياسي المقاوم: خطابات أبو عبيدة نموذجًا[9] الكيفية التي يُبنى بها الخطاب المقاوم بوصفه أداة لإنتاج الهوية الجماعية، وتوجيه الرسائل السياسية، وتعزيز الروح المعنوية داخل المجتمع الفلسطيني. بينما اتجهت دراسات أخرى إلى استكشاف الأبعاد الرمزية والنفسية في ذلك الخطاب، وركزت دراسة توظيف لغة الجسد كآلية للحرب النفسية[10] على دور العلامات غير اللفظية في مضاعفة الأثر النفسي للرسالة الخطابية، في حين أبرزت دراسة تمظهر رموز المقاومة الفلسطينية في خطابات أبو عبيدة[11] حضور الرموز الثقافية والوطنية بوصفها مكونات دلالية تسهم في ترسيخ الهوية الوطنية واستنهاض المخيال المقاوم. وانتهت دراسة خطاب المقاومة الفلسطينية والحرب النفسية - الإعلامية[12] إلى أن ذلك الخطاب يتجاوز حدود التعبير السياسي المباشر، ليتحوَّل إلى أداة سيكو - إعلامية مركبة تعتمد على

توظيف الرموز والاستراتيجيات الخطابية في التأثير على الخصم وإعادة تشكيل موازين الإدراك في المجال الاجتماعي – سياسي.

من ناحية أخرى، استعانت بعض الدراسات بأطر لسانية وتداولية ونقدية أكثر تخصصًا في تحليل الخطاب، كما في دراسة "تحليل خطاب حرب طوفان الأقصى"[13] (Analyzing the Rhetoric of the Aqsa Flood War (2023-2024)، التي وظفت تحليل الخطاب النقدي ونظرية الاستعارة المفاهيمية للكشف عن البنى الدلالية التي تحكم تمثيل الحرب والجهاد والعدو في خطاب حماس الرسمي. وناقشت دراسة "تحليل نقدي لخطابات أبو عبيدة" (Critical Analysis of Abu Ubaida's Speeches) الجوانب البلاغية والترجمية في الخطاب[14]، وركزت على إشكالات نقل فاعليته التأثيرية من لغة إلى أخرى. وفي السياق التداولي، تناولت دراسات أخرى أفعال تهديد الوجه والأفعال الكلامية في خطابات أبو عبيدة، سعيًا إلى فهم المقاصد الإنجازية للخطاب، وآليات بناء السلطة الرمزية، وأنماط العلاقة بين المتكلم وخصومه وجمهوره.

واهتمَّت بعض الدراسات بسياق الوسيط الإعلامي والمنصة الرقمية التي يُبث عبرها الخطاب، كما في دراسة "تحليل مضمون خطاب أبو عبيدة على إنستغرام الجزيرة مباشر خلال عملية طوفان الأقصى" (Content Analysis of Abu Ubaida's Speech on Aljazeera Mubasher's Instagram During Operation Al-Aqsa Tempest)، التي رصدت خصائص الخطاب في البيئة الرقمية من حيث أسلوب اللغة، وطريقة إيصال الرسالة ودور العربية الفصحى في تعزيز القبول والتأثير[15].

يكشف هذا التعدُّد في المقاربات عن ثراء الحقل البحثي المتصل بخطابات أبو عبيدة، غير أن أغلب هذه الدراسات ظلَّت متمركزة حول أبعاده البلاغية أو النفسية أو الإعلامية المباشرة، دون قراءته قراءة تكاملية تربط بين بنيته اللغوية، وسياقه الحربي، ووظيفته في إنتاج المعنى السياسي وصياغة الوعي الجمعي داخل فضاء المقاومة. فهذه الدراسات تساعد على فهم الأبعاد المختلفة في خطاب أبو عبيدة، بما فيها الاستراتيجيات البلاغية وهياكل الخطاب والجوانب التداولية،

وتكشف أن خطابه يشكِّل منظومة اتصالية متكاملة تمزج بين الإقناع البلاغي والحرب النفسية وبناء الهوية المقاومة.

ومع أهمية هذا التراكم الملحوظ في الدراسات التي تناولت خطاب أبو عبيدة، فإنه يعاني عددًا من الإشكاليات المنهجية والمعرفية. فأغلب هذه الدراسات اتسمت بالنزعة الوصفية، ومالت نحو تفكيك الخطاب إلى عناصره الإقناعية أو الرمزية أو التداولية، من غير أن تنجح في مقاربته بوصفه بنية دلالية متكاملة تنتج خطابًا سياسيًّا مقاومًا يتجاوز حدود الأداء الإعلامي المباشر. كما أن هيمنة المقاربات الأداتية في هذا الحقل جعلت كثيرًا من التحليلات تنشغل بتعداد التقنيات الخطابية أكثر من انشغالها بفهم شروط إنتاج الخطاب ومرجعياته ووظائفه في إعادة بناء العلاقة بين المقاومة والجمهور والخصم. ولذلك، فإن الفجوة البحثية لا تكمن في نقص الدراسات، بقدر ما تكمن في غياب قراءة نقدية شاملة تربط بين اللغة، والسياق الحربي، والوظيفة السياسية، والبعد الرمزي للخطاب ضمن إطار تحليلي واحد.

تنطلق هذه الدراسة من مقاربة نقدية تجمع بين مقولات فرانز فانون عن اللغة والتحرُّر، ورؤية غسان كنفاني للغة بوصفها كائنًا حيًّا متغيرًا، زيادة على أدوات تحليل تداولية وسيميائية، وتهدف إلى تفكيك البنية اللغوية والدلالية في خطاب أبو عبيدة خلال مرحلة طوفان الأقصى وما تلاه من حرب إبادة لأهل غزة، للكشف عن الكيفية التي بنيت بها سردية المقاومة في مواجهة سردية الاحتلال الصهيوني، اعتمادا على "لغة مبصرة".

اللغة والروح الإنسانية

تكشف أعمال فرانز فانون الأهمية العميقة للغة في تكوين الروح الإنسانية، خاصة أن القوى الاستعمارية استخدمتها عبر التاريخ سلاحًا فعّالًا لفرض الهيمنة. فقد أدرك المستعمرون الدور المحوري للغة في عملية "إعادة التسمية"، أي في إعادة تشكيل الوعي والهوية وفق منظورهم. ويصف فانون في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" هذا الفعل "بالاستلاب اللغوي"، الذي يولّد لدى المستعمَرين إحساسًا

بالدونية والتبعية، إذ يُنتزع منهم ارتباطهم بعالمهم ومشاعرهم ولغتهم، ومع فقدان اللغة تزداد صعوبة مقاومة الاحتلال واستعادة الهوية الذاتية[16].

كان من الوجاهة أن يستهل فانون كتابه المذكور بالحديث عن اللغة، فتجربته مع فقدان الصوت والقدرة على التعبير جعلته يدرك أن "الكلام هو الوجود المطلق للآخر". لقد حُددت أهمية اللغة بوصفها ركيزة أساسية في تشكُّل الهوية الإنسانية وتطوُّرها، إذ لا يمكن للإنسان أن يكون كائنًا اجتماعيًّا أو واعيًا لذاته بدون التواصل. فحرمان الفرد من القدرة على التواصل هو، في جوهره، سلب لإنسانيته ومحو لوجوده ذاتًا فاعلةً في العالم[17]. ولعل قدرة الفرد على تسمية العالم من حوله بكلماته الخاصة التي تحدّث عنها فانون هي التي تمنحه شعورًا بالامتلاك والانتماء؛ فالتسمية كما يصنفها تعني الامتلاك. وبناء عليه، فالإنسان الذي يمتلك لغة يمتلك، نتيجة لذلك، العالم الذي تعبّر عنه تلك اللغة وتدل عليه[18]. إن تَمكُّن المرء من تسمية مشاعره، دلالة على تمكُّنه من السيطرة عليها كما يقول دانيال غولمان (Daniel Goleman) في كتابه "الذكاء العاطفي"[19] (Emotional Intelligence: Why It Can Matter More Than IQ) إنه لا يمكن الحديث عن اللغة والتحرُّر دون العبور من بوابة فرانز فانون، فاللغة تعني أن تمتلك صوتا، وبدونه تكون أبكم، وهو ما عبَّر عنه بقوله: "أن تتكلم يعني قطعًا أن تكون موجودًا من أجل الآخر"[20]. لكن المسألة لا تقف عند حدود أن الكلام فعل تواصلي، بل إنه يحدد موقع الإنسان الذي يتيح له استخدام عبارات معينة، والتقاط مورفولوجيا هذه اللغة أو تلك، إلا أنَّ الأهم من ذلك، أنه يعني امتلاك ثقافة.. فالمرء الذي يمتلك لغة، يمتلك العالم المعبَّر عنه، والمتضمن في تلك اللغة كذلك[21].

ولكن، ليس أي لغة، بل اللغة المبصرة التي تتحدى اللغة العمياء التي تحدث عنها الأديب والروائي غسان كنفاني[22]. ففي محاضرة ألقاها عام 1968 بعنوان "أفكار عن التغيير و(اللغة العمياء)"، ينظر كنفاني إلى اللغة بوصفها أحد أهم ميادين الصراع الفكري والسياسي، وليست مجرد أداة تواصل أو تعبير. فاللغة عنده مرآة الوعي الجمعي ومؤشر على حيوية الفكر وقدرته على التفاعل مع الواقع. وحين تنفصل اللغة عن الممارسة الاجتماعية وتغدو مجموعة من الشعارات المنفصلة عن التجربة الملموسة، تتحوَّل إلى ما يسمِّيه "اللغة العمياء"؛ أي اللغة التي لا ترى

الناس ولا تحسّ بآلامهم ولا تعبّر عن قضاياهم. هذه اللغة العاجزة، في رأيه، تفقد بُعدها التغييري، وتصبح وسيلة لتزيين الخطاب لا لتغيير الواقع.

وفي ساحة كهذه فإن الكلمة ليست زينة بل أداة وعي وتحليل، وقيمتها تُقاس بقدرتها على تسمية الأشياء بأسمائها وكشف التناقضات وإثارة الفعل الجمعي. لذلك، يدعو كنفاني إلى وحدة القول والفعل، بحيث تكون الكلمة امتدادًا للممارسة، والممارسة تجسيدًا للوعي الذي تعبّر عنه اللغة. كما يرى أن اللغة نفسها ميدان للصراع؛ فهي قد تُستخدم لتثبيت البنى القائمة، أو تُستعاد بوصفها أداة للتحرُّر وإعادة تشكيل الوعي الشعبي. ومن ثمّ، فإن تحرير اللغة من الاستخدام السياسي الدعائي شرطٌ لتحرير الوعي من التزييف[23].

في هذا الإطار، تصبح اللغة الحية عند كنفاني تلك التي تتطور بتطور المجتمع وتتماهى مع حركته التاريخية، بينما يعكس الجمود اللغوي جمود الفكر والعجز عن الفعل. فالثورة الحقيقية لا تحتاج فقط إلى سلاح أو برنامج، وإنما أيضا إلى لغة جديدة تعبّر عن الوعي الجديد وتواكب التحوُّلات في الواقع. بهذه الرؤية يربط كنفاني بين التغيير الفكري والتغيير اللغوي، جاعلًا تجديد اللغة مدخلًا ضروريًّا لبناء وعي نقدي قادر على تجاوز الهزيمة واستئناف مشروع التحرُّر[24]. وتُعدُّ اللغة صنوة الثقافة لكونها فعل مقاومة، إذ ترى حنة آرندت (Hannah Arendt) أن الثقافة ليست مسألة فطرية[25]، بل مشروع يتحقَّق عبر الزمن من خلال التلقي والاعتناء؛ وهي تهدف باعتبارها ممارسة؛ إلى مقاومة النسيان والزوال. وبناء عليه، لا يمكن النظر إلى الثقافة على أنها ترف، بل هي فعل مقاومة في وجه استهلاك الحياة للأشياء والذكريات.

ضمن هذه المعاني، يبرز اسم الأكاديمي الفلسطيني الدكتور رفعت العرعير[26]، الذي جمع بين التعليم والمقاومة، والثقافة والمقاومة، واللغة والمقاومة، ولم يكن التعليم عنده مسارًا مهنيًّا وإنما وسيلة مقاومة ثقافية. كما استخدم اللغة الإنجليزية لتوثيق الرواية الفلسطينية ومواجهة السردية الإسرائيلية. ولإبقاء الذاكرة حيّة ومواجهة عمليات الطمس، أسَّس مشروع "نحن لسنا أرقامًا"[27] لتوثيق قصص شهداء غزة. رفض العرعير مغادرة القطاع، مؤمنًا بأن

رواية القصة شكل من أشكال المقاومة، وبقي فيه حتى استشهاده مع أفراد من عائلته في غارة إسرائيلية يوم 7 ديسمبر/ كانون الأول 2023.

رأى العرعير في القصص الشفوية أداة لاستمرار المقاومة الثقافية، ونجح في تحدِّي هيمنة المنظور الاقتصادي القائم على الإنتاج – الاستهلاك، والذي وصفته آرندت بأنه يختزل الإنسان إلى "مورد بشري" ويجعل حياته قابلة للاستهلاك كذلك[28]. كما يحوّل البشر إلى أشياء ذات "قيمة استخدامية" فحسب. لقد قدم العرعير نموذجًا سياسيًّا مع رغبة جارفة في حماية العالم المشترك ورعاية الآخر، وليس من منطق المكاسب الفردية أو المنفعة، وإنما كانت السياسة والثقافة لديه فعل رعاية.

احتلَّت اللغة موقعًا مركزيًّا في مسيرة العرعير، فقد كانت عنده أداة لتجاوز الحصار على فلسطين وروايتها، وسلاحًا للتحرُّر وكسر هيمنة المصطلحات الإسرائيلية التي تسيطر على اللغة الخاصة بنضال الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال. وحرص على تدريب وتطوير قدرات طلابه لامتلاك قدرات لغوية تمكِّنهم من المساهمة في سرد القصة الفلسطينية بعيدًا عن الهيمنة الإسرائيلية، وفق ما يرويه عدد من طلابه[29].

في آخر أشعاره، كتب العرعير يقول: "إذا كان لا بد أن أموت، فليأتِ موتي بالأمل، فليصبح حكاية"، فالحكاية ستتحدى الغياب. ويبرز الجمال في قصيدة العرعير هذه ليشكِّل لحظة انقطاع عن العادي في الدفع إلى التقدير والسعي لحفظ الأشياء من الزوال، في تحفيز لظهور "الذات الثقافية" لدى المتلقِّي. والثقافة فعل تربية وتنمية مستمر للإنسان كما للطبيعة، في علاقة تبادلية مع العالم تنبع من فعل "الاهتمام". إن التحوُّل نحو الثقافة لا يحدث بالعقل فحسب وفق ما تراه آرندت، إنما بحاجة إلى "أثر" يهزُّ وجودنا. ولذلك، فالوعي الثقافي هو بذاته شكل من أشكال المقاومة[30]. وكما كان تدمير الثقافة أداة للهيمنة منذ احتلال فلسطين، كان الحفاظ عليها وسيلة للمقاومة.

لقد شكَّلت اللغة مجالًا مركزيًّا للمقاومة الثقافية في سياقات الاستعمار وعنفه البنيوي، إذ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بإنتاج الوعي وصياغة الهوية الجماعية، وهو ما

يناقشه الكاتب الكيني نغوغي واثيونغو (Ngũgĩ wa Thiong'o) في كتابه "فكّ الاستعمار عن العقل"، إذ يرى أن اللغة هي ساحة الصراع الأولى بين المستعمِر والمستعمَر، وأن استعادتها خطوة تأسيسية في التحرير الثقافي[31]. ويمكن للغة أن تمارس "سلطة رمزية" يمكن توظيفها للهيمنة أو لمقاومتها، وذلك حسب من يمتلك حق إنتاج الخطاب وتداوله داخل الحقل الاجتماعي[32]. ولعل مقدمة كتاب إدوارد سعيد "الثقافة والإمبريالية"، قد بينت أهمية السرديات المضادة في تفكيك الخطاب الإمبريالي وإنتاج خطاب مقاوم، في تحليله للسردية الفلسطينية[33]. تُظهِر هذه المساهمات أن العلاقة بين اللغة والثقافة والمقاومة علاقة جدلية؛ فاللغة تصبح فضاءً لإعادة إنتاج الهوية وتعزيز الوعي الجمعي القادر على مواجهة محاولات الإلغاء الاستعماري. ويؤكِّد إدوارد سعيد أن الهيمنة لا تُمارَس بالقوة المادية فحسب، بل عبر السيطرة على الذاكرة والهوية والرواية، وفي حالةٍ "تتعرّض فيها الهوية السياسية للتهديد، تصبح الثقافة وسيلةً لمقاومة الفناء والمحو. فالثقافة شكلٌ من أشكال الذاكرة في مواجهة الطمس"[34].

تعريف الخطاب

تمكَّن ميشيل فوكو من فهم الخطاب عبر إدراجه في إطار السلطة والمعرفة، فهو يرى أن الخطاب ليس مجرد أقوال متفرقة، بل هو نظام يتحكم فيما يمكن قوله ومن يحق له القول والسياق الذي تُنتَج فيه الحقيقة[35]. ويعمِّق فوكو هذا المعنى في "أركيولوجيا المعرفة"، فيعرِّف الخطاب بأنه "مجموعة من العبارات الخاضعة لقواعد تَشكُّل تحدِّد شروط إنتاجها"[36]، ما يجعل الخطاب بنية معرفية تحدِّد إمكانات التفكير وحدود القول.

ويقدِّم الاتجاه النقدي في تحليل الخطاب، ممثّلًا في نورمان فيركلوف (Norman Fairclough)، منظورًا اجتماعيًّا يرى الخطاب ممارسة اجتماعية ترتبط بعلاقات القوة والهيمنة، إذ تُنتج اللغة الواقع الاجتماعي وتعيد تشكيله[37]. وعلى المنهج نفسه، يُعرِّف تون فان ديك (Teun A. van Dijk) الخطاب باعتباره حدثًا تواصليًّا يتضمن نصًا وسياقًا وفاعلين اجتماعيين وبنى معرفية وأيديولوجية تتحكم

فيه[38]، مما يربط بين الخطاب وبين المعرفة والسلطة. ومن زاوية تحليل الخطاب الاجتماعي، يرى جيمس بول جي (James Paul Gee)، أن الخطاب لغةٌ في الاستعمال تُجسّد هويات وأنشطة اجتماعية، ولا يمكن فصلها عن السياق الثقافي الذي تُنتَج فيه[39].

يُعَدّ مفهوم الخطاب من أكثر المفاهيم مركزية في الدراسات اللغوية والاجتماعية والسياسية، ويتجاوز كونه مجرد كلام أو نص إلى كونه بنية معرفية وسياقية تتشكَّل داخل المجتمع وتؤثر في تشكيله. وقد تناولت المراجع العربية هذا المفهوم بوصفه نصًّا لغويًّا ممتدًّا يحقِّق الترابط والدلالة عبر وحدات تتجاوز حدود الجملة. فتمّام حسن يرى أن الخطاب "نص لغوي ممتد تتآزر وحداته في إنتاج المعنى"[40]، وهو بذلك يتحدَّد من خلال ترابط عناصره وتكامله الدلالي. ويؤكِّد محمد خطّابي هذا البعد التواصلي حين يعرِّف الخطاب بأنه نشاط اجتماعي وتواصلي يُبنى داخل سياق محدد ويهدف إلى التأثير في المتلقِّي[41]. وفي الاتجاه نفسه، يرى عبد السلام المسدّي أن الخطاب ممارسة لغوية ذات مقصد، تتشكَّل ضمن علاقة بين مرسِل ومتلقٍّ وسياق، بما يجعل منه بنية دلالية ذات غاية[42].

أبو عبيدة.. غائب الوجه حاضر التأثير

يوصف حضور الناطق العسكري باسم كتائب القسّام "أبي عبيدة" بأنه حضور استثنائي، وكان له دور رمزي وإعلامي في المقاومة الفلسطينية. فمنذ ظهوره الأول عام 2004، اختار أبو عبيدة أن يغيّب ملامحه عن العلن، ليجعل من غياب الوجه حضورًا أقوى. لم يكن القناع والكوفية والعصابة العسكرية مجرّد وسيلة أمنية، بل تحوَّل كل منها إلى رمز بصري يجسد فكرة المقاومة والثبات، حتى صار مظهره الموحّد أحد أبرز العلامات الدالّة على هوية الخطاب المقاوم في الوعي العربي والفلسطيني[43]. وتُعدُّ ظاهرة الشخصية الملثّمة في الخطاب السياسي والمقاوم "أيقونة رمزية تتجاوز وجودها الفردي لتتحوَّل إلى نموذج أسطوري ذي طابع جمعي"[44].

يُكرِّس اللثام أبا عبيدة سلطةً رمزية خاصة، إذ يحوِّله من فرد إلى صورة جمعية تمثِّل المقاومة، بما يعزِّز تأثيره الدعائي في رفع معنويات المؤيدين وإرباك رواية

العدو. وتندرج هذه الصورة ضمن تقليد ثوري قديم ظهر في حركات تحرُّرية مثل الثورة الجزائرية، إذ أصبح الوجه المخفي رمزًا للجماعة لا للفرد. كما تتعزَّز هذه الأيقونة بصريًّا عبر الكوفية والزي العسكري والعلم، بوصفها علامات تستحضر الذاكرة التاريخية للمقاومة وتعيد إنتاجها في الإعلام الرقمي بصيغة تجمع بين الأصالة والراهنية[45].

اكتسب أبو عبيدة صدقية عالية، سواء لدى الجمهور الفلسطيني والعربي أو حتى في الإعلام الإسرائيلي، الذي يتعامل مع تصريحاته على أنها مصدر موثوق. فهو نادرًا ما كان يستخدم لغة مبالغا فيها أو يخطئ في تقدير المواقف العسكرية، ما جعله يحظى بثقة المتابعين. وقد تعرّض لعدّة محاولات اغتيال إسرائيلية، بينما واصل الظهور في كل جولة تصعيد بصوته المعتاد، متحدِّيًا الاحتلال ومرسّخًا حضوره الرمزي. وفي سبتمبر/ أيلول 2025، قال وزير الدفاع الإسرائيلي يسرائيل كاتس، عبر منصة إكس، إن أبا عبيدة قُتل في غارة شارك فيها سلاح الجو والشاباك والاستخبارات العسكرية، واصفًا العملية بأنها "إعدام متقن"[46]. وفي 29 ديسمبر/ كانون الأول 2025، نعت حركة حماس أبا عبيدة في بيان ولقّبته بصوت القسّام ورمزها الإعلامي، وأكَّدت حضوره المؤثِّر في وجدان الجمهور، وسمته باسمه الحقيقي وهو حذيفة سمير عبد الله الكحلوت، مع التأكيد أن لقب "أبو عبيدة" سيظل حاضرًا بعد رحيله، إذ حمل الناطق الجديد باسم القسّام كنية "أبو عبيدة".

أبو عبيدة.. القيادة الخطابية الرمزية

في المواجهة التي أعقبت عملية "طوفان الأقصى" وبدء العدوان على غزة (السيوف الحديدية)، برز خطاب أبو عبيدة بوصفه واحدًا من أبرز الخطابات السياسية والعسكرية في المواجهة، إذ مثّل أداة مركزية لإدارة الصراع نفسيًّا وإعلاميًّا، وتثبيت السردية الفلسطينية في مواجهة الرواية الإسرائيلية. وقد أظهر حضور الناطق باسم كتائب القسّام، في الفضاءين الإعلامي والرقمي، نمطًا اتصاليًّا يتجاوز الوظيفة الإخبارية إلى وظيفة رمزية تقع عند تقاطع ما يسميه منظّرو الاتصال السياسي "القيادة الخطابية

الرمزية" (Symbolic Communicative Leadership)، وهي تلك التي تنتج تأثيرًا جماهيريًّا لا عبر مضمون الرسالة فقط، وإنما عبر شكل المتحدث وطريقة الأداء والإيقاع العاطفي للنص.

وقد تجلَّى هذا التأثير في سلسلة من المؤشرات الرقمية الشاهدة على انتشار خطابه، إذ تصدّرت الوسوم المرتبطة باسمه منصاتٍ مثل "إكس" و"تيك توك" في موجات متكرّرة، محقّقة مئات الآلاف من التفاعلات في غضون ساعات. كما شكَّلت تسجيلاته مادة لملايين المشاهدات في مقاطع الفيديو القصيرة، سواء في سياقات جدية توثّق بيانات القسّام، أم في سياقات شعبية وثقافية مثل المقاطع المعاد توزيعها "الريمكس" والمقاطع الساخرة "الميمز" التي حملت صوته وصورته الرمزية، وهو ما يشير إلى انتقال الخطاب من "الاتصال الحربي" إلى "الثقافة الرقمية المقاومة" (Resistance Digital Culture).

وتعزّز هذا الانتشار عبر توسّع المحتوى الداعم له خارج المجال العربي، حيث انتشرت نسخ مترجمة لخطاباته في تركيا وماليزيا وإندونيسيا وإيران. ترافق هذا الاهتمام العالمي مع ظاهرة "التأهب الرقمي" التي تسبق ظهوره الإعلامي، وهو ما يوافق مفهوم "حدث الظهور" في دراسات الأداء السياسي، إذ يصبح المتحدث نفسه موضوعًا للتلقي بغض النظر عن محتوى الرسالة. وأصبح حضوره مثالًا بارزًا على كيفية تحوُّل الصوت المقنّع، رغم غياب الصورة الكاملة، إلى علامة خطابية ذات أثر ممتد، تنتج المعنى كما تنتج المخيال الجمعي، وتعيد تعريف علاقة الجمهور بخطاب المقاومة في العصر الرقمي.

تؤكِّد مؤشرات عدة مثل انتشار الوسوم وإعادة تداول مقاطع الملثم المصورة؛ حدوث تأثير استثنائي مقارنة بالمتحدثين العسكريين التقليديين. وجاء في تقرير لشبكة الجزيرة عن دراسات تناولت تأثيره في العالم، إذ كشفت دراسة لمعهد كلينغندايل (Clingendael Academy) الهولندي بالتعاون مع الجامعة الأمريكية في القاهرة؛ عن التأثير النفسي العميق لخطابه الإعلامي وقدرته على تأطير السردية الفلسطينية لغويا، بينما يظهر بحث لجامعة نورث إيسترن الأميركية اكتساحا رقميا للمحتوى المؤيد لفلسطين على منصة تيك توك (TikTok) بنسبة تصل إلى 20

مقابل 1، بالتوازي مع ما رصده مركز بيو للأبحاث (Pew Research Center) من تزايد تأييد الشباب الأمريكي للرواية الفلسطينية. وقال التقرير إن 13.5 مليون منشور على تيك توك[47] لم يروا فيه "إرهابيًّا"، بل رأوا فيه "النسخة الحقيقية" من أبطالهم الخياليين[48]. لقد أصبحت مقاطع أبو عبيدة جزءًا من ثقافة الفضاء الرقمي في المنطقة، ما يعني أن حضوره تجاوز السياسة إلى الثقافة الشعبية الرقمية (Pop Digital Culture).

سمات خطاب الملثم

إن من أبرز السمات الأساسية في خطاب أبو عبيدة هو انتهاج المدخل الديني الواضح، إذ غالبا ما يفتتح كثيرًا بالآيات والأدعية التي تسم الخطاب بهالة من القدسية تُضفي على المعركة بعدًا أخلاقيًّا وروحيًّا. يعتمد الخطاب كذلك على التكرار والإيقاع، حيث تتكرّر صيغ مختصرة وقوية مثل "وإنه لجهاد، نصر أو استشهاد" لتأكيد الخيار الثابت وإحداث وقع صوتي يُحفّز السامع. وتكثر فيه الصور الرمزية المقصودة: تصوير إسرائيل بذكريات فاجعة متجسّدة في استعارات "النازي/ الفاشي"، بينما يُقدَّم الفلسطينيون كَرمز للبطولة والقداسة "شهداء ومجاهدون وأحرار" لتكريس التمايز الأخلاقي بين طرفي الصراع.

عند مخاطبة الجمهور، يتباين الخطاب في مضامينه ومراميه حسب الجماعات المستهدفة: داخليًّا يُطمئن الجمهور الفلسطيني على ثبات القدرة والسيطرة، ويُرسّخ فكرة التماسك والمثابرة. وعلى مستوى الأمة العربية والإسلامية تتكرَّر الدعوات إلى النفير والدعم، سواء ماديًّا أم معنويًّا، بينما يسعى الخطاب الموجه إلى الرأي العام العالمي لإبراز البُعد الإنساني للنزاع، وفضح الاحتلال كقوة عنصرية واستعمارية تُهدّد قيمًا إنسانية عالمية، بغية كسب تعاطف واسع. ويجمع الأسلوب الخطابي نفسه بين أبعاد دينية وجهادية تؤكِّد ثنائية "النصر أو الشهادة"، وبين نبرة عاطفية تحفيزية تستعين بصور وجدانية عن الأطفال والشهداء لشدّ العاطفة. كما يَظهر طابع تعبوي وتصعيدي في النداءات المباشرة للنفير والمشاركة، ما يجعل الخطاب أداة للحشد لا مجرد وسيلة إعلامية لنقل معلومات.

بناء على ما تقدَّم، فإن للنسيج الخطابي هدفًا مزدوجًا: ترسيخ صورة حركة مقاومة متماسكة وذات مشروع؛ وفي الوقت نفسه تحويل كل كلمة وصورة إلى سلاح رمزي يسعى لتعبئة الداخل، واستدعاء الأمة، وكسب العالم.

يستهلُّ الملثم خطابه دائمًا بالبسملة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾[49] وتليها الحمدلة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، بما يعكس الطابع الإيماني الذي يُؤطر الخطاب من بدايته، ويوجه المتلقِّي نحو مرجعية دينية عليا. ويتعزَّز هذا الطابع بالاستشهاد بآيات قرآنية تعبِّر عن مفاهيم الجهاد والصبر والنصر الإلهي، مثل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ...﴾، و﴿... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا...﴾، و﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ...﴾. هذه الآيات تُضفي على الخطاب بعدًا تعبويًّا وإيمانيًّا يُشرعن الصراع ويمنحه صفة القداسة.

يمثِّل الإطار الشرعي والديني أحد أعمدة الخطاب، إذ تُعرض الآيات والأحاديث لا بوصفها مجرد استشهادات، وإنما باعتبارها إطارا أخلاقيا يبرّر المواقف ويحدد حدودها. هذا الإطار يعمل على شرعنة الفعل السياسي والعسكري أمام الجمهور، حيث تُحوَّل قيَم دينية مثل الصبر والجهاد والنصر؛ إلى مقولات أخلاقية قابلة للاستدعاء في كل مناسبة، وبذلك يمنح الخطاب مشروعيّة أخلاقية تتجاوز الجدل السياسي لتستند إلى مرجعية أعلى لدى المتلقِّين. وإلى جانب ذلك، تتجلَّى الرمزية الدينية في استخدام تعبيرات مثل "الأرض المباركة"، "المسجد الأقصى"، "مسرى النبي"، "الدماء الزكية"، ما يعمّق البعد الروحي والرمزي للقضية ويجعلها مرتبطة بالمقدّسات الإسلامية.

الاتجاهات التداولية في خطاب أبو عبيدة

يتبيّن من خلال تحليل البنية اللغوية والإنجازية للنص أن خطاب أبو عبيدة يستند إلى مجموعة من الاتجاهات التداولية التي لا تعمل منفصلة، بل تتكامل لتشكِّل منظومة تواصلية ذات بعد تعبوي وتأثيري. ويمكن تحديدها على النحو التالي:

- الاتجاه التوجيهي (Directive Orientation): يتجسَّد في الأوامر والدعوات المباشرة الموجهة إلى المتلقِّي، مثل قول: "قاتلوهم.." أو

"دافعوا عن أقدس مقدساتكم". ويُوظَّف هذا النمط التداولي لحثِّ المخاطَب على الفعل والتحرُّك.

- الاتجاه الالتزامي (Commissive Orientation): يتمثَّل في وعود أو تهديدات تصدر عن المرسل، مثل: "وسوف نواصل القتال.." أو "سيدفع العدو الثمن..". ويكشف هذا النمط عن التزام المرسل بموقف مستقبلي محدد، سواء كان موجهًا للجمهور من أجل الطمأنة، أم للخصم من باب الردع والتخويف.
- الاتجاه التصريحي/ الإنجازي (Declarative Orientation): يظهر في صيغ الإعلان والتقرير التي تَخلق واقعًا جديدًا عبر القول نفسه، كما في: "أعلن أن.." أو "لقد انتصر المجاهدون..."، ضمن صيغ تؤسس شرعية جديدة وتُعيد تشكيل الوعي الجماعي بالموقف.
- الاتجاه التعبيري (Expressive Orientation): يتجلَّى في أفعال لغوية تعبِّر عن الموقف الوجداني للمرسل، مثل: "الحمد لله رب العالمين" أو "هنيئًا للشهداء". ويُسهم هذا الاتجاه في تعزيز البعد العاطفي الوجداني بين المرسل والجمهور.
- الاتجاه الرمزي التداولي (Symbolic-Pragmatic Orientation): استدعاء الرموز الدينية والتاريخية (الأقصى، الشهادة، الدم) بوصفها أدوات تداولية ذات قوة إقناعية. هذا النمط يرسّخ هوية جماعية ويؤسس لمعنى مشترك يتجاوز المعلومة المباشرة إلى البعد الرمزي.

فالخطاب محل التحليل يوظف الاتجاهات التداولية بشكل متكامل؛ فالاتجاه التوجيهي والالتزامي يتصدر لتحقيق الغاية التعبوية والتحفيزية، بينما يدعمها الاتجاه التعبيري والرمزي لبناء هوية جماعية ووجدانية، أما الاتجاه التصريحي فيضفي الشرعية اللازمة على الفعل والخطاب معًا. بهذا المعنى، يتحوَّل الخطاب من أداة للتبليغ إلى وسيلة إنجازية تُحدث أثرًا اجتماعيًّا وسياسيًّا مباشرًا.

جدول يوضح التداولية في خطاب أبو عبيدة

نوع الفعل التداولي	الجملة الواردة في النص	الوظيفة التداولية
توجيهية (Directives)	﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾	أمر مباشر بالتحريض على القتال
	أن تُدَافِعُوا عَنْ أَقْدَسِ مُقَدَّسَاتِكُمْ	دعوة للدفاع عن المقدسات
تصريحية/ إنجازية (Declarations)	أعلن أن	إعلان موقف رسمي
	لقد انتصر المجاهدون	إعلان انتصار
التزامية (Commissives)	وسوف نواصل القتال	وعد بالاستمرار
	سيدفع العدو الثمن	تهديد وتعهد بإيقاع العقاب
تعبيرية (Expressive)	الحمد لله رب العالمين	تعبير عن الشكر والثناء
	نسأل الله النصر والتأييد	دعاء ورجاء
	هنيئًا للشهداء	مباركة وتعزية

أنماط المحاججة في الخطاب

يُعرف الحجاج بأنه "فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها بغرض التأثير في المخاطب وتغيير سلوكه وهو يُعدُّ فعلًا سلوكيًّا غايته الإقناع"[50] وتتجلَّى في خطاب "أبو عبيدة" عدة استراتيجيات حجاجية، يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

- الحجاج الأخلاقي القيمي، ويقوم على استدعاء المرجعية الأخلاقية والدينية لتسويغ المواقف، ومثال ذلك: التأكيد على أن تعاليم الإسلام توجب معاملة الأسرى معاملة إنسانية. ومن المهم هنا أن نتذكر أن أي سرد تاريخي لم يكتب بالاعتماد على الوعي الأخلاقي فحسب، وإنما استنادا إلى السلطة الأخلاقية للراوي[51]. فالوعي الأخلاقي حجر مهم في بنية خطاب الناطق باسم كتائب القسّام، إذ يحقِّق "الامتلاء السردي" في سعيه إلى سدِّ فجوة يمكن وضع اليد عليها في الخطاب. وهذا الامتلاء بالاستحضار الصريح والمتكرّر لشرعية مقاومة الاحتلال وكونه واجبا دينيا ومكفولا في القانون الدولي؛ يجعلها نقطة مرجعية

ثابتة يمكن أن تضفي على أفعال المقاومة معنى أخلاقيا بصورة واضحة. والحجة التي يقدمها الخطاب في أكثر من موضع (نلتزم بتعاليم الدين) و(موقفنا أخلاقي مقابل وحشية العدو).

- الحجاج بالمقارنة والتناقض، ومثال ذلك إبراز التناقض بين سلوك "العدو" وسلوك "المقاومة"، فنجد مقارنة بين قصف العدو للمدنيين وحرص المقاومة على حماية الأسرى. لتكون الحجة: (العدو يقتل المدنيين، بينما نحن نلتزم بضبط النفس) إذن (نحن أصحاب الشرعية).
- الحجاج بالتهديد والتحذير، يتمثَّل في استعمال لغة الوعيد للتأثير على الطرف الآخر. ومثال ذلك التهديد بأن استمرار العدوان سيلحق أذى بالأسرى. والحجة هنا (إذا استمر العدوان سيتضرر الأسرى ولذلك فإن على العدو التوقف).
- الحجاج بالتاريخ والرمزية، وهو ببراعة استثمار الرموز التاريخية والدينية؛ فالحجة هنا (الأقصى رمز مقدس للأمة) ولذلك فإن (المعركة مبرّرة ومشروعة). ومن خلال السرد المستقى من التاريخ يقوم أبو عبيدة ببناء "نمط أطروحي"[52] في المخاطبة، فما يقدمه ليس مجرد سرد للوقائع، إنما يقدم عرضًا منطقيًّا يحتوي أفكار الراوي للأحداث وما يتعلَّق بأسبابها ودلالاتها. والسرد هنا وسيلة لتتمّ رواية القصة الحقيقية.
- الحجاج بالواقعية العملية، فالمقاومة ليست عدمية والدليل تقديم حلول عملية مثل التبادل أو التفاوض وعرض إمكانية الإفراج عن أسرى مقابل وقف العدوان. الحجة هنا (إمكانية الاتفاق قائمة)؛ لأن (التفاوض خيار مصلحي).

التأدب في الخطاب

سعى جيوفري ليتش (Geoffrey Leech) إلى بناء فن خطابة تفاعلية مؤثرة، في مزيج من مبدأ التعاون مع التأدب والكياسة، وذلك بأساليب لسانية تحصن السلوك التحاوري من الانزلاق نحو نتائج غير مؤدبة[53]. ونجد في خطابات "أبو عبيدة"

مفردات التأدب بارزة في بياناته[54] من خلال العبارات والتراكيب التي تُظهر احترامًا أو تهذيبًا أو التزامًا بقيم دينية واجتماعية. ومثال ذلك ألفاظ الدعاء والابتهال التي تلازم أحاديثه "الحمد لله رب العالمين" و"نسأل الله النصر والتأييد"، وهي تعكس التهذيب عبر إرجاع الفضل إلى الله وإظهار التواضع أمامه. ونجدها كذلك في عبارات التهنئة، ومن ذلك "هنيئًا للشهداء"، في صيغة أدب لغوي تجاه من قدّموا التضحيات، محملة بكمّ كبير من معاني الاحترام والتكريم. ومن ذلك أيضا "التعزية والرثاء"، ومثال ذلك "رحم الله الشهداء"، وهي تعبر ضمنيًّا أو تصريحيًّا في النص على المشاركة الوجدانية مع ذوي الشهداء والضحايا، وهذا من صيغ التأدب الاجتماعي والديني. ولا يغيب التعبير عن الامتنان عن هذا العنوان، ويتضح ذلك في الثناء على الله في نصرته للمقاتلين "الحمد لله الناصر.."، وهي صيغة تظهر الامتنان وتُنكر الفضل.

إن هذا الاستخدام المكثف للمفردات الدينية لا يقتصر على التعبير عن قِيَم روحية فحسب، إنما يعمل كذلك آليةَ إقناع تُحيل السلوك السياسي والعسكري إلى واجب ديني، وتحوَّل المتلقِّي من موقع المشاهدة إلى موقع المشاركة أو التضامن عبر استدعاء مرجعيات مشتركة. ونجد صاحب الخطاب حذرا في صيغ التوجيه ويراعي فيها التلطف، فبعض الأوامر وضعت بصيغة جماعية تُشرك المخاطب بدلًا من فرض الإلزام الفردي "أن تدافعوا عن أقدس مقدساتكم"، وهو ما يمكن وضعه في باب "التأدب التداولي" في إشراك الجماعة وعدم توجيه الأمر بشكل مباشر لشخص واحد. واستدعاء القيم الأخلاقية مثل "معاملة الأسرى معاملة إنسانية"، يمكن إدراجه أيضا ضمن مفردات التأدب؛ لأنه يقدّم الذات بصورة أخلاقية مقابل إظهار وحشية الآخر. وكلها يمكن عدُّها صيغا تداولية تؤدِّي وظيفة مزدوجة؛ فهي من جهة تعكس هوية دينية/ أخلاقية قائمة على التواضع والاحترام، ومن جهة أخرى تُضفي على الخطاب بعدًا إقناعيًّا يوازن بين الحِدة التعبوية والتهذيب اللغوي.

التصديق في خطاب "أبو عبيدة"

اعتمد طه عبد الرحمن في تأسيسه لمبدأ التصديق الذي نقله عن أبي الحسن الماوردي؛ على قاعدة مشهورة في التراث الإسلامي متمثّلة في الربط بين القول

والفعل، بل في مطابقة القول للفعل، وتصديق العمل للكلام. وقد صاغ عبد الرحمن هذا المبدأ على الشكل الآتي: "لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعلك"[55]. أما القواعد التعاملية فهي: قاعدة القصد "لتتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير"، وقاعدة الصدق "لتكن صادقا فيما تنقله إلى غيرك"، وقاعدة الإخلاص "لتكن في تودك للغير متجردًا عن أغراضك"[56].

يتجلَّى لدى "أبو عبيدة" حضور لافت لمفردات الصدق والإخلاص، كونهما ركيزتين أساسيتين في بناء الصدقية والإقناع. فمفردات الصدق مثل الحق، تؤدِّي وظيفة إبراز الخطاب في صورة مطابقة للواقع، بما يعزِّز ثقة المتلقِّي بمضمون القول ويمنحه مشروعية معرفية. أما مفردات الإخلاص مثل "الشهادة" و"الجهاد في سبيل الله" و"الوفاء بالعهد"، فهي تعكس نكران الذات وتكريس الجهد لخدمة غايات دينية وجماعية، بما يرسّخ البعد القيمي والوجداني للنص. وتتكامل دلالة الصدق ودلالة الإخلاص، بما يمنح الخطاب قوة تأثيرية مضاعفة تجمع بين المشروعية الأخلاقية والشرعية التداولية.

التوجُّهات الاستراتيجية والعلاقات

يستند خطاب الحركة إلى تأطير الصراع على أنه معركة طويلة الأمد تتجاوز الأحداث العارضة والاشتباكات المؤقتة، إذ يُعرَض العدو بوصفه خصمًا لا يُهزم بسرعة، بل يخضع لعمليات استنزاف متواصلة. إن تأكيد طول مدة الصراع لا يهدف فقط إلى تبرير استمرار الجهد العسكري فحسب، إنما يعمل أيضًا على تشييد أفق استراتيجي لدى الجمهور يُهيئه لتحمّل التضحيات وصبر طويل المدى، كما يخلق توقعاتٍ زمنية تُقوّي منطق الصبر والثبات وتقلّل من أثر الصدمات قصيرة المدى على الروح المعنوية.

في البعد العسكري يُبرز الخطاب القدرة التكتيكية والعملياتية عبر سرد مفصل للعمليات وذكر استخدام أسلحة نوعية وعناصر مباغتة، ما يمنح الخطاب طابعًا واقعيًّا يستهدف إقناع المتلقِّين بكفاءة الأداء الحربي. إن هذا العرض التفصيلي لا يقتصر على مدح الذات، بل يؤدّي وظيفة مزدوجة: أولًا؛ إظهار القدرة للداخل من أجل ضمانا الاستمرارية والثبات، وثانيًا؛ إرسال رسائل رادعة إلى العدو تفيد أن

الطرف الآخر يمتلك إمكانية المبادرة والردّ المؤثر.

تضطلع الشرعية الدينية والسياسية بدور محوري في تأطير العمليات، إذ تُسند الأفعال الميدانية بنصوص قرآنية وأحاديث شريفة تُحوِّل العمل العسكري إلى فعلٍ يملك جذورًا أخلاقية ودينية، وهي تعتمد وسيلة لانتقال الخطاب من مستوى محلي إلى مستوى الأمة ويستدعي تضامنًا أخلاقيًّا وسياسيًّا. وعلى صعيد التعبئة النفسية والمعنوية، يُوجَّه الخطاب إلى جماهير فلسطين والعالمين العربي والإسلامي بهدف حشد الدعم وتحفيز التماسك الاجتماعي (التثبيت). وعبر خطابٍ يركّز على القيم المشتركة والتضحيات والآمال، يسعى المرسل إلى إعادة إنتاج حالة جماعية من العزم والثبات، ما يعزِّز قدرة المجتمع على تحمُّل الضغوط، ويضمن استمرارية الدعم الشعبي والسياسي للجهد المقاوم.

أخيرًا، تُشكِّل استراتيجية الردع عنصرًا تكتيكيًّا واستراتيجيًّا متكاملًا، فالخطاب يروِّج لفكرة أن أي عدوان سيقابله ردّ أعنف، مع إبراز قدرة المقاومة على الوصول إلى عمق العدو وإيذائه بمعطيات ملموسة. وبذلك يتحوَّل الخطاب إلى أداة مانعة ومُنظِّمة للسلوك الاستراتيجي للطرفين.

يتجاوز الخطاب حدود الجغرافيا المحلية ليخاطب الأمة العربية والإسلامية بصيغ نداء جامعة مثل: "يا أمتنا العربية والإسلامية، شعوب هذه الأمة الحية، أمة ثالث الحرمين مسرى رسول الله، نخب وعلماء ودعاة الأمة..". ومن خلال هذه النداءات، يُعاد تعريف الصراع بوصفه قضية الأمة جمعاء، لا مجرد معركة محلية، وبذلك يتمُّ استدعاء البعد القومي والديني لتوحيد الصفوف وتحشيد الدعم المعنوي والمادي حول القضية المركزية.

تقاطع الداخل والخارج

على المستوى الداخلي يُعرض الشعب الفلسطيني بقوّةٍ على أنه جامعة وقاعدة للصبر والثبات، فتُثبَّت وحدة المكوّنات الشعبية وتُكرَّم ذكرى الشهداء والأسرى بوصفها عناصر مركزية في بناء الذاكرة الوطنية والشرعية المحلية. هذا التقاطع بين التقديس الرمزي للتضحيات والعرض العملي للقدرات، يهدف إلى استباق الإحباط

والانهزامية عبر رفع المعنويات وتكريس رواية استمرار المقاومة عبر مسارٍ طويل الأمد. ويتمحور الخطاب الموجّه إلى الداخل الفلسطيني حول تعزيز الوحدة والتمسك بالمقاومة، وتحويل الشهداء والأسرى إلى رموز جامعة تحفظ الذاكرة والهوية الوطنية، مع توظيف لغة تحفيزية ترفع المعنويات وتحدّ من آثار الخسائر. كما يبرز الخطاب الإنجازات العسكرية لإقناع الجمهور بفاعلية المقاومة، ويستند إلى شحنة عاطفية تستحضر التاريخ والقدس لربط الحاضر بسياق ثقافي ووجودي ممتد.

يحضر في خطاب أبو عبيدة بُعدٌ عربي وإسلامي واضح، يهدف إلى تجاوز حدود القضية الفلسطينية الضيقة نحو فضاء أوسع يستوعب الأمة جمعاء. في هذا السياق، تتجلَّى إدانة التطبيع بوصفها إحدى الركائز الخطابية المركزية، إذ تُصوَّر الدول التي أقامت علاقات مع إسرائيل بأنها متنكّرة للقيم والمبادئ التاريخية التي تأسَّس عليها الموقف الجمعي العربي والإسلامي تجاه فلسطين. هذا التأطير الأخلاقي والسياسي يُستخدم آليةً لإعادة رسم حدود الانتماء والشرعية، بحيث تُفصل القوى المطبّعة عن سياق الأمة الملتزمة بالمقاومة.

العبارات الموجهة إلى الشعب الفلسطيني

العبارة	السياق
يا أهلنا في فلسطين الأبية، يا أبناء شعبنا الصامد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته	افتتاح خطابات تعبويّة تشكر الشعب على صموده
يا أبناء شعبنا الفلسطيني في غزة والضفة والقدس والشتات	دعوة للوحدة والمقاومة وتأكيد الاستمرار في النضال
يا أهلنا وأبناء أمتنا في الضفة والقدس وأرض فلسطين المباركة	تحفيز على الصمود أمام العدوان وتثبيت معنويات المدنيين
يا أبناء شعبنا المجاهدين وأسر الشهداء والأسرى والمصابين	خطاب تضامن مع المتضررين من الحرب
تحية إلى شعبنا البطل الذي يواجه العدوان بالصبر والإيمان	إشادة بصمود الشعب الفلسطيني ووفائه
يا أهلنا الأبطال، نعدكم أن دماء الشهداء لن تذهب سدى	وعد بالوفاء لدماء الشهداء وتأكيد استمرارية المقاومة
تحية لأبناء شعبنا المجاهدين في الضفة وغزة والقدس والشتات	خطاب ختامي يربط وحدة الشعب بالتحرير القادم

يعمل الخطاب على استدعاء البعد العربي والإسلامي للقضية، مؤكّدًا أن فلسطين ليست شأنًا محليًّا يخصُّ شعبًا بعينه، بل هي قضية الأمة بأسرها، ومسؤولية جماعية لا يجوز التنصّل منها. هذا التوسيع لمجال الانتماء يسهم في تحويل الصراع إلى رمزٍ جامعٍ لهوية الأمة، ومجال اختبار لصدق التزامها بقيم العدالة والوحدة. وبذلك يُعيد الخطاب إنتاج الرابطة الدينية والسياسية بين القدس والعالم الإسلامي، في محاولة لبعث الشعور بالواجب الجماعي تجاه المقاومة. كما يتضمّن الخطاب رسائل ضمنية موجّهة إلى الأنظمة العربية والإسلامية، تتراوح بين التحذير واللوم المبطن، إذ يذكّرها بمسؤوليتها التاريخية والدينية في نصرة فلسطين، ويحذّر من عواقب التقاعس أو الانخراط في مسارات التطبيع التي تُقدَّم خيانة للأمة. هذا النمط من الخطاب غير المباشر يتيح الاحتفاظ بنبرة دينية وأخلاقية دون الانزلاق إلى مواجهة سياسية صريحة، مما يمنحه مرونة في توجيه النقد دون الإخلال بالبعد الدعوي والرمزي للخطاب.

إلى جانب النقد، يتضمن الخطاب دعواتٍ متكرّرة إلى التضامن الميداني والسياسي، سواء من خلال الدعم اللوجستي والمادي للمقاومة أم عبر المواقف الدبلوماسية والإعلامية المساندة. بهذه الطريقة، يُحافظ الخطاب على طابع تعبوي إيجابي يسعى لتحويل التأييد العاطفي إلى فعلٍ عملي، وخلق بيئة تضامن مستمرة قادرة على إمداد المشروع المقاوم بالشرعية والتأييد في المجالين الإقليمي والدولي. وبذلك، تتكامل هذه العناصر لتجعل الخطاب السياسي والديني للناطق باسم القسّام أداة مزدوجة: فهو من جهة يُدين الانحراف عن الإجماع ويُحمّل الأنظمة مسؤولية تاريخية، ومن جهة أخرى يُحفّز الجماهير والمؤسسات على المساندة الفاعلة، مؤطّرًا الصراع في إطارٍ أمميٍّ جامعٍ يربط بين الواجب الديني والالتزام السياسي.

في الأفق الإقليمي يُكرّس الخطاب حضور "محور المقاومة" من خلال إشارات متكرّرة إلى وفصائل ودول مثل لبنان واليمن والعراق وإيران، ما يضفي على العمل المحلي بعدًا تحالفيًّا واستراتيجيًّا. فتأكيد التضامن الإقليمي يعمل على توسيع قاعدة الدعم، ويُستخدم وسيلة لتعزيز الشعور بالأمن الجماعي، وتعظيم أثر عملية الردع عبر تبنّي سردية وجود شبكة دعم قادرة على المساس بعمق الخصم.

أما على الصعيد الدولي، فيسعى الخطاب إلى مخاطبة "الأمة الإسلامية" و"أحرار العالم" ومنظمات حقوقية دولية لتأمين شبه شرعية أممية وتوليد حاضنة تعاطفية قد تُخفف من عزلة الجانب المعلنة سياسيًّا أو إعلاميًّا.

يتضمن خطاب أبو عبيدة الموجَّه إلى الحلفاء بُعدًا سياسيًّا - استراتيجيًّا واضحًا، يعكس إدراك الحركة أهمية التحالفات الإقليمية في دعم ثباتها وتعزيز موقعها في معادلة الصراع. ويتميَّز هذا الخطاب بلغة امتنانٍ وتقديرٍ متوازنة تجمع بين الشكر والتطمين والتأكيد على وحدة المصير.

يبدأ الخطاب عادةً بعبارات تقديرية مثل: "إلى إخواننا في محور المقاومة، نثمِّن مواقفكم الداعمة لشعبنا ومقاومتنا بصيغة تعبّر عن امتنان واضح للحلفاء الإقليميين، إذ تُستخدم لغة تعبويّة ودبلوماسية في آنٍ واحد، تكرّس الشرعية الأخلاقية للتحالف من خلال ربطه بالدفاع عن قضية عادلة. يتعزَّز هذا الاتجاه في مقاطع لاحقة من الخطاب، كما في العبارة: نوجِّه الشكر لحلفائنا في المنطقة الذين ثبتوا مع المقاومة في وجه العدوان". هذه الإشادة لا تقتصر على الشكر الرمزي، بل تُعدُّ جزءًا من سياسة تواصل ممنهجة تهدف إلى تثبيت التحالفات القائمة وتعزيز صورة "المحور" ككتلة صلبة متماسكة في مواجهة الضغوط الخارجية.

ويأتي البعد المبدئي الوحدوي في عبارات مثل: "إلى كل قوى المقاومة في الإقليم، إن معركتنا معركة واحدة ضد الاحتلال"، التي تؤكِّد وحدة الجبهات والمصير المشترك، وتربط ساحات الصراع المتعدّدة ضمن منظومة واحدة في مواجهة الاحتلال. هذا الخطاب يهدف إلى تجاوز الحدود الوطنية الضيقة لصالح سردية كفاحية جامعة تصوغ "المقاومة" مشروعًا أمميًّا يمتد من فلسطين إلى سائر جبهات المواجهة في المنطقة. وتتوج هذه الرسائل بعبارات رمزية توحد الجغرافيا السياسية في إطارٍ واحد، كما في قوله: "تحية إلى محور المقاومة من طهران إلى صنعاء، من الضاحية إلى غزة". ومع هذا الترتيب الخطابي، يتمُّ الانتقال من الشكر إلى التأكيد على التنسيق، وصولًا إلى التوحيد الرمزي، في إطار خطابٍ يسعى لترسيخ حضور محور المقاومة جبهةً واحدة متماسكة في مواجهة المشروع الإسرائيلي وحلفائه.

الخطاب الموجه نحو الخارج

يمثِّل إطار الشرعية الدينية والإنسانية محورًا مركزيًّا في صياغة خطاب أبو عبيدة الموجّه نحو الخارج، حيث يُقدم المقاومةَ بوصفها دفاعًا عن حقوق شعب مُحتلّ، مستندًا إلى مرجعيات شرعية ودينية وإلى مبادئ القانون الدولي ومواثيق حقوق الإنسان. هذا المزج بين الشرعي والدولي يهدف إلى إعطاء الفعل المقاوِم مشروعية مزدوجة: أخلاقية ودينية تجاه الجمهور المحلي والإقليمي، وقانونية وإنسانية تستطيع مخاطبة مؤسسات الرأي العام العالمي والمنظمات الحقوقية.

في مخاطبة الرأي العام الدولي، يتجه الخطاب إلى تأطير الصراع ضمن بُعدٍ إنساني واضح عبر إبراز معاناة المدنيين، وبخاصة النساء والأطفال، لتحويل الاهتمام من بُعدٍ عسكري ضيِّق إلى قضية إنسانية ذات آثار عالمية. وعبر توظيف شهادات الضحايا، وصور الدمار، واستحضار وقائع الانتهاكات، يسعى الخطاب إلى خلق ظرفٍ أخلاقي يُستثمر في كسب تعاطف عالمي ووضع الضغوط على صانعي القرار الدولي لتبنِّي مواقف أو تدخلات تخفِّف من معاناة المدنيين. وتتضمَّن الاستراتيجية الخطابية في جزء منها محاولة نزع الشرعية عن إسرائيل عبر تصويرها كيانا استعماريًّا يمارس "أعمال عنف منظّم وإرهاب مَنفَّذ ضدّ شعب مُحتل". هذه الرواية تُستخدم لتقويض الاستناد الدولي للعدو وداعميه، ولإعادة صياغة منطق الصراع من نزاعٍ بين جيشين إلى حالة احتلال وانتهاك حقوق قابلة للرقابة والملاحقة من قِبل المجتمع الدولي والمنظمات الحقوقية.

العبارات الموجهة إلى العالم	السياق
يا أحرار العالم في كل مكان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته	افتتاح بيانات موجهة إلى الأمة الإسلامية والعالم الحر تتضمن نداءً للتضامن ضد العدوان
يا جماهير أمتنا ويا كل أحرار العالم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته	دعوة عالمية لدعم المقاومة والتنديد بالعدوان الصهيوني
يا من يسمعنا في العالم	نداء إعلامي لتسليط الضوء على الجرائم المرتكبة بحقِّ المدنيين
يا أهلنا ويا أمتنا ويا أحرار العالم	ضمن بيان تبادل الأسرى، يوجّه الخطاب إلى العالم لتوثيق الالتزام الأخلاقي في التعامل مع الأسرى

العبارات الموجهة إلى العالم	السياق
إلى العالم الذي يشاهد جرائم العدو في وضح النهار	عتاب للعالم على صمته تجاه الانتهاكات والقتل
يا أحرار العالم إننا نناشدكم الوقوف مع المظلومين في فلسطين	دعوة مباشرة لتأييد القضية الفلسطينية
وللعالم نقول: إن مقاومتنا تدافع عن حقها المشروع	تبرير العمليات العسكرية أمام الرأي العام الدولي
يا أمّتنا ويا أحرار العالم ما زلنا على العهد ماضون حتى التحرير	خطاب تعبوي ختامي يربط المعركة بالكرامة والحرية العالمية

في الوقت نفسه، يُبنى خطٌ موازٍ من التحالفات الرمزية عبر استدعاء "أحرار العالم" كحلفاء أخلاقيين؛ هؤلاء ليسوا بالضرورة شركاء استراتيجيين رسميًّا، بل هم جمهور عالمي وفعاليات مدنية ومنظمات حقوقية يُنظر إليها مسانِدًا أخلاقيًّا يمكن استثماره لخلق ضغط دبلوماسي وإعلامي. هذه التحالفات الرمزية تُوسِّع فضاء الشرعية من الإطار المحلي والإقليمي إلى بعدٍ عالمي يضفي على القضية بعدا أخلاقيا وسياسيا أوسع.

يتّسم الخطاب الموجه للخارج بلغة عاطفية أقل وسياسية وتحليلية أكثر، مقارنةً بالخطاب الداخلي، إذ يعتمد على أدوات الإقناع المقنّنة: استدعاء مبادئ القانون الدولي، إحصاءات موثّقة، سرديات إنسانية مركزة، ودعوات عملية واضحة تجاه المجتمع الدولي. هذه المنهجية تهدف إلى مخاطبة جمهور متنوّع، من منظمات حقوقية وصحافة دولية إلى جماهير مدنية وحزبية، بآليات مقنعة ومنطقية تسهّل تحويل التعاطف إلى مواقف سياسية أو ضغط دبلوماسي فعّال.

خطاب أبو عبيدة (الداخل – الإقليم – الخارج)

المستوى	الميزات الرئيسية
الداخل	✓ التركيز على الوحدة والصمود ✓ تمجيد الشهداء والأسرى ✓ رفع المعنويات ✓ إظهار الإنجازات العسكرية ✓ خطاب تعبوي عاطفي
الإقليم	✓ الارتباط بمحور المقاومة ✓ إدانة التطبيع والأنظمة المتقاعسة ✓ استدعاء البعد العربي والإسلامي ✓ رسائل ضمنية للأنظمة ✓ دعوة للتضامن الميداني أو السياسي
الخارج	✓ تأطير الشرعية الإنسانية ✓ خطاب للرأي العام العالمي ✓ نزع الشرعية عن إسرائيل ✓ بناء تحالفات رمزية مع أحرار العالم ✓ لغة سياسية أقل عاطفية

صفات العدو

في تصوير العدو في هذا الخطاب فإن إسرائيل كيان مؤقت وزائل، ويحمّل قياداته تهمة الخيانة تجاه شعوبهم عبر ما يُصوَّر من إهمال لقضايا الأسرى وضحايا الجيش. هذا السرد لا يهدف فقط إلى بيان التشوه في صورة العدو فحسب، وإنما يعمل كأداةٍ نفسيةٍ لتسويغ الاستهداف وشرعنة المقاومة أخلاقيًّا وسياسيًّا أمام الجمهورين الداخلي والخارجي، كما يستدعي منطقًا ثنائيًّا يسهِّل تقييد الخيارات السياسية للخصم ويُبرِّر المضي في عمليات الاستنزاف والردع.

من خلال تحليل الخطاب، وردت مجموعة كبيرة من العبارات التي تصف "العدو"، وتعبّر عن شدة العداء وتركّز على تجريمه، ووصفه بصفات سلبية أخلاقيًّا وعسكريًّا وسياسيًّا. ففي الأوصاف المباشرة للعدو فهو "مجرم"، "خائف"، "واهم"، "حالم"، "نازف"، "مهزوم"، "فاشل"، "همجي"، "ناقض للعهود"، "صهيوني تائه" وهو "الجبان الذي يهرب ويصرخ في الميدان"، "المغرور"، "المتوهم بقوته"، "الذليل الخاسر"، "المنهك المتخبط"، "المدحور"، "الملعون"، وهو "الكيان المنبوذ من جلّ الأحرار".

قائمة الأوصاف المستخدمة لوصف العدو في الخطاب

رقم	العبارة	نوع الوصف	السياق في الخطاب
1	العدو المجرم	أخلاقي/ قيمي	يصف العدو بأنه فاقد للقيم ومعتدٍ على الأبرياء
2	العدو المرتعد	نفسي/ عسكري	يظهر الخوف والارتباك أمام المقاومة
3	العدو الواهم	نفسي/ سياسي	يعيش على أوهام القوة والنصر الزائف
4	العدو النازف	عسكري	يشير إلى الخسائر البشرية والميدانية في صفوف العدو
5	العدو المهزوم	عسكري/ رمزي	يؤكّد انكسار العدو في الميدان رغم تفوّقه التكنولوجي
6	العدو الفاشل	سياسي/ عسكري	يعجز عن تحقيق أهدافه رغم القوة والدعم الخارجي
7	العدو الهمجي	قيمي/ سلوكي	يمارس العنف والتدمير بلا تمييز
8	العدو الناقض للعهود	ديني/ أخلاقي	ينقض الاتفاقات ويتصف بالغدر والخيانة
9	العدو الصهيوني التائه	أيديولوجي	يصور الكيان كمنحرف عن القيم والحق
10	العدو الجبان	نفسي/ عسكري	يفتقر إلى الشجاعة في مواجهة الميدان
11	العدو المغرور	نفسي	ينخدع بقوته المادية وينكر هزيمته
12	العدو الذليل	أخلاقي/ رمزي	يخضع ويُهان أمام صمود المقاومة
13	العدو المنهك	عسكري	تعبير عن إنهاك قواه نتيجة استمرار المعارك
14	العدو المتخبط	نفسي/ إداري	يتصرَّف بارتباك نتيجة فشل التخطيط والسيطرة
15	العدو المدحور	عسكري/ رمزي	تمَّت هزيمته وانكفاؤه بفعل ضربات المقاومة
16	العدو الملعون	ديني/ رمزي	يُصوّر كمنبوذ من الله ومن الشعوب الحرة
17	يرتكب جرائم الإبادة	سلوكي/ قيمي	يُتهم بقتل المدنيين والأبرياء
18	يشنُّ عدوانًا همجيًّا	عسكري/ قيمي	يوصف بأنه يستخدم القوة المفرطة دون مبرّر
19	يمارس الكذب والخداع الإعلامي	سياسي/ اتصالي	يحاول تزييف الحقائق أمام العالم
20	كيان نازي مغتصب للأرض والمقدسات	ديني/ أيديولوجي	يُربط بالاحتلال التاريخي والاغتصاب الديني
21	عدو الله وعدو الإنسانية	ديني/ قيمي	يوصف بأنه يقف ضد الحق الإلهي والإنساني
22	جيش مهزوم ومفكك المعنويات	عسكري	يفقد تماسكه المعنوي والتنظيمي
23	قادة مجرمون ومنهارون نفسيًا	نفسي/ قيادي	إشارة إلى فشل القيادة وضعفها
24	كيان هش يعتمد على دعم خارجي	سياسي/ اقتصادي	يُصور على أنه غير قادر على البقاء دون مساندة الغرب
25	يتلقّى ضربات موجعة من المقاومة	عسكري	تأكيد على فعالية المقاومة في إضعافه

"المحرقة النازية الجديدة"

في أحد خطاباته، وصف أبو عبيدة ما تفعله إسرائيل في غزة "بالمحرقة النازية الجديدة"، مشبِّهًا العدوان بسياسات الإبادة النازية ضد المدنيين: "المحرقة النازية الصهيونية ضد أمتنا وأهلنا"، كما استخدم التعبير للإشارة إلى أن أفعال إسرائيل تمثِّل محرقة نازية صهيونية موجهة ضد الفلسطينيين والعرب: "حكومة نازية فاشية". ووصف الحكومة الإسرائيلية في أكثر من موضع بأنها "النازية الفاشية" في سياق الحديث عن جرائم الحرب والتجويع المتعمد: "المحرقة التي يعيد الكيان النازي الصهيوني إنتاجها". واستخدم تشبيها صريحا بأن إسرائيل "تعيد إنتاج المحرقة" عبر ممارساتها ضد المدنيين في غزة: "العدو الصهيوني النازي". واستخدم هذا التعبير بشكل مباشر في مواضع متعدّدة عند الحديث عن العدوان على الضفة وغزة.

جدول تحليلي للعبارات التي تصف إسرائيل بالنازية

رقم	النص أو العبارة	نوع الاستخدام	السياق	التاريخ	الدلالة الخطابية
1	"ما يعرف بالمحرقة النازية الجديدة"	تشبيه مباشر	إنساني/ حقوقي	أواخر 2023	تأطير العدوان كجريمة إبادة مماثلة للهولوكوست لتجريم إسرائيل أمام الرأي العام
2	"وجه المحرقة النازية الصهيونية ضد أمتنا وأهلنا"	استعارة مركبة	تعبوي/ عقائدي	أواخر 2023	دمج النازية بالصهيونية لتقديم العدو في صورة "الشر المطلق" الموجّه ضد الأمة
3	"الكيان النازي الصهيوني"	توصيف أيديولوجي ثابت	سياسي/ دعائي	أواخر 2023	ترسيخ معادلة: الصهيونية = النازية، ونزع الشرعية الأخلاقية عن إسرائيل
4	"العدو الصهيوني النازي"	توصيف تعبوي	عسكري/ ميداني	2024	تحفيز الجمهور والمقاتلين عبر استحضار صورة "النازي القاتل" مقابل "المقاوم البطل"
5	"حكومة نازية فاشية"	تشبيه سياسي نقدي	سياسي/ إعلامي	2024	وضع إسرائيل في خانة الأنظمة الشمولية (هتلر، موسوليني) لتأطيرها كعدو للإنسانية

دلالة استدعاء "النازية" في الخطاب

إن استدعاء مفردة "النازية" في الخطاب الفلسطيني، وخصوصًا في مثل خطابات أبو عبيدة، يحمل أبعادًا بلاغية وأيديولوجية وتاريخية معقدة، فاستدعاء مفهوم النازية عند وصف إسرائيل يشكِّل استراتيجية لغوية وحجاجية متعدّدة الأبعاد، تهدف إلى تشكيل فهم محدّد للصراع الفلسطيني – الإسرائيلي. إن أحد أهم أبعاد هذا الاستدعاء هو الإسقاط الرمزي للعقوبة الأخلاقية، فالنازية تمثِّل في الوعي العالمي أقصى درجات الشر والوحشية، وعندما يُشبَّه الإسرائيليون بها، يُصبح استهدافهم مُبَررًا أخلاقيًّا بالنسبة للمقاومة، وينزع عن إسرائيل موقع "الضحية التاريخية".

إضافة إلى ذلك، يعمل الخطاب على قلب السردية الغربية، فالغرب غالبًا ما يبرِّر قيام إسرائيل كدولة بضرورة "تعويض اليهود عن الهولوكوست"، إلا أن الاستدعاء اللغوي للنازية يعكس معادلة معاكسة: إسرائيل تمارس أعمال إبادة مماثلة ضد الفلسطينيين، مما يضعها في موقف المنتهك بدل الضحية. كما يمتد أثر هذا الاستدعاء إلى البعد التعبوي الداخلي، إذ يُصوّر العدو في صورة مطلقة لا تفاوض معه، ما يرفع المعنويات ويجعل استمرار المقاومة ضد "نازية جديدة" أمرًا مشروعًا. ويمتد التأثير إلى البعد الإعلامي الدولي، إذ يستثمر الخطاب قوة الذاكرة التاريخية للهولوكوست في الغرب لإدانة إسرائيل بلغة يفهمها الإعلام الغربي ويصعب تجاهلها، مما يمنح الخطاب قوة أكبر على الساحة العالمية. كما يسهم الاستدعاء في تحويل المظلومية، إذ يُقدَّم الفلسطيني في هذا السياق على أنه "ضحية محرقة القرن 21" الذي يتعرض لمحاولة إبادة على يد كيان يزعم أنه ضحية لإبادة تاريخية.

ويكشف تتبع المفردات المتعلقة بالنازية في خطابات أبو عبيدة بين عامي 2023 و2025؛ كيف تحوَّل الاستدعاء من مجرد أداة خطابية انفعالية إلى ركيزة أيديولوجية وسردية في الخطاب المقاوم:

المرحلة الأولى: التشبيه العاطفي الانفعالي (أكتوبر – نوفمبر 2023): ظهر توصيف "نازي" بصورة عَرَضية بوصفه أداة إدانة رمزية للعدوان واستثارة التعاطف، دون أن يتحوَّل إلى إطار ثابت يعرّف العدو.

المرحلة الثانية: الدمج الأيديولوجي (ديسمبر 2023 – منتصف 2024): مع اتساع العمليات انتقل الخطاب من توصيف الحدث إلى إعادة تعريف الخصم عبر تراكيب مثل "الكيان النازي الصهيوني"، لتتحوَّل "النازية" من استعارة إلى هوية أيديولوجية تؤكِّد "مشروعية المقاومة" وتؤسس لقطبية أخلاقية حادة.

المرحلة الثالثة: الترسيم السردي (النصف الثاني من 2024–2025): استقر المصطلح بوصفه مفتاحًا سرديًّا متكرِّر البنية، يربط بين السياسة والعقيدة والتاريخ لتفسير "العدوان الدائم"، ويُقدِّم المقاومة هويةً أخلاقية في مواجهة "شر مطلق".

لقد انتقل توظيف مفردة "النازية" في خطابات أبو عبيدة بين 2023 و2025 من توصيف احتجاجي ظرفي إلى سردية خطابية مؤسسة ليستقر المفهوم في إطار سردي شبه دائم، بوصفه تفسيرًا تاريخيًّا وأخلاقيًّا للعدوان، ومكوّنًا مركزيًّا في بناء "هوية المقاومة" باعتبارها امتدادًا لمعركة الإنسان ضد الإبادة والعنصرية، بما يمنح الخطاب قابلية تعبئة وتدويل تتجاوز السياق الزمني المباشر.

المرحلة	2023	2024	2025
طبيعة الاستخدام	تشبيه عاطفي	توصيف أيديولوجي	سردية مركزية
اللغة	سياسية	مقنّنة أيديولوجيًا	لاهوتية – تاريخية
الهدف	التعاطف الدولي	حشد الجماهير	تأسيس "ذاكرة مقاومة"
صورة إسرائيل	مجرم حرب	كيان نازي	تجسيد للشرّ التاريخي

لقد أحدث ذلك تحوُّلًا دلاليًّا من توصيفات سياسية تقليدية لإسرائيل إلى توصيفات أخلاقية – وجودية كثيفة، تتقدَّمها مفردة "النازية". ولا يقتصر هذا التحوُّل على التشبيه التاريخي، بل يؤسِّس لصراعٍ يُعاد تأطيره بوصفه مواجهة بين الخير والشرّ المطلقيْن، مع قلب الذاكرة العالمية للهولوكوست عبر إعادة تقديم الفلسطيني ضحية جديدة للمحرقة، ونزع صفة الضحية الأبدية عن إسرائيل.

بلاغيًّا، توظف "النازية" استعارةً كبرى ورمزا جامعا للشرّ ومماثلات تاريخية تستحضر الهولوكوست بوصفه مرجعًا كونيًّا للإدانة. ويعزّز التكرار المعجمي والصوتي للمصطلح بناءَ ذاكرة سمعية ورمزية تُكثّف التأثير الإقناعي والتعبوي. وسيميائيًّا، تتحوَّل "النازية" إلى علامة مركّبة تستدعي شبكة من الرموز البصرية

والسمعية والتاريخية، وتُرسّخ صورة العدو داخل مخيال الإبادة، بينما تُعاد صياغة المقاومة امتدادًا للذاكرة الإنسانية في مواجهة الظلم، ما يُنتج هوية أخلاقية جامعة ويمنح المقاومة شرعية مزدوجة: وطنية وإنسانية كونية.

البعد التحرُّري في الخطاب

يُعدُّ خطاب أبو عبيدة خطابًا تحرُّريًّا متكاملًا، يدمج بين الهوية والدين والسياسة والميدان، ويضع المقاومة ضمن مشروع وطني وإنساني شامل، على غرار أدبيات حركات التحرُّر في الجزائر وفيتنام وجنوب أفريقيا. ويقوم الخطاب على ركائز أساسية هي: تثبيت الشرعية الوطنية والدينية والأخلاقية للمقاومة، تقديم الكفاح المسلح خيارًا استراتيجيًّا طويل الأمد، تأطير القضية الفلسطينية بإطار العدالة الإنسانية العالمية، تعبئة المجتمع بوصفه حاضنة جماعية للتحرُّر، وربط النضال الفلسطيني بسرديات التحرُّر العالمية. وبهذا المعنى، لا يقتصر الخطاب على إضفاء الشرعية على الفعل المقاوم، إنما يعيد صياغة المقاومة كمشروع تحرُّري جامع يتقاطع فيه المحلي والعالمي، والرمزي والعملي، في إطار صراع طويل النفس ضد استعمار استيطاني يُقدَّم بوصفه عابرًا ومحكومًا بالزوال.

خطاب أبو عبيدة وحركات التحرُّر التاريخية

المحور	خطاب أبو عبيدة	الجزائر	فيتنام	جنوب أفريقيا
الشرعية الأخلاقية/ القيمية	الإسلام والقدس كمرجعية دينية وقيمية	الإسلام والهوية الوطنية	القومية والاشتراكية	العدالة والحرية ضد الأبارتهايد
الكفاح المسلح	السلاح أداة مركزية للتحرير	الثورة المسلحة ضد فرنسا	حرب العصابات ضد أمريكا	الكفاح المسلح والمقاومة المدنية[57]
تصوير العدو	إسرائيل كيان استيطاني زائل	فرنسا قوة استعمارية زائلة	أمريكا قوة استعمارية ستُهزم[58]	النظام العنصري مؤقت وزائل
التعبئة الشعبية	كل فئات الشعب (نساء، أطفال،	"كل الشعب جبهة التحرير"[59]	"الشعب كله جبهة قتال"	تعبئة جماهيرية شاملة ضد النظام

المحور	خطاب أبو عبيدة	الجزائر	فيتنام	جنوب أفريقيا
	أسرى، شهداء) جزء من المقاومة			
البعد الدولي/ التضامني	نداء لأحرار العالم والرأي العام الدولي	دعم عربي ودولي واسع	حركات السلام العالمية وحلفاء اشتراكيون	مقاطعة دولية وحملة تضامن عالمية[60]
الزمن الطويل	الصراع ممتد وتضحياته تراكمية	حرب طويلة حتى الاستقلال	حرب طويلة النفس حتى النصر	صراع طويل انتهى بإسقاط الأبارتهايد

في الخلاصة، ينسجم خطاب أبو عبيدة مع سمات حركات التحرُّر التاريخية في عدة محاور رئيسية: أولها، الشرعية الأخلاقية التي تبرّر المقاومة وتمنحها مشروعية أمام الجمهور المحلي والإقليمي، متى ارتبطت بالواجب الوطني والديني. ثانيها، الكفاح المسلح خيار رئيسي للتحرُّر، حيث يُنظر إلى العمليات العسكرية ليس كأحداث عابرة، بل خطوات استراتيجية في مسار طويل الأمد نحو الاستقلال والتحرير الكامل.

يتقاطع خطاب أبو عبيدة بوضوح مع خطابات حركات التحرُّر الوطني الكبرى، إذ يؤسس شرعيته على مرجعية قيمية عليا، ويضع الكفاح المسلح في قلب مشروع التحرير، ويصوغ العدو باعتباره كيانًا استعماريًّا مؤقتًا إلى زوال. كما يعتمد على التعبئة الشعبية الشاملة، والرهان على التضامن الدولي، والنظر إلى الصراع باعتباره حربا طويلة النفس تتراكم فيها التضحيات حتى بلوغ التحرُّر. لذلك يمكن فهم هذا الخطاب بوصفه امتدادًا حديثًا لأدبيات التحرُّر التي مثّلتها الجزائر وفيتنام وجنوب أفريقيا، مع خصوصيته المستمدة من المرجعية الإسلامية الفلسطينية.

خاتمة

يمثِّل خطاب أبو عبيدة نموذجًا متقدِّمًا لما يمكن تسميته "اللغة المبصرة"؛ لغة تتجاوز حدود الوصف إلى بناء وعي جمعي، وتشكيل سردية مقاومة قادرة على التأثير والتحشيد وإعادة إنتاج القوة. ويستند هذا الخطاب إلى تراث لغوي وثقافي واسع، وإلى إدراك دقيق لدور الرموز والاستعارات والتأطير في صناعة المعنى.

تتضح الاستراتيجية الكبرى في مجموعة من العناصر التي تعمل على تثبيت المعنويات لدى الأتباع والداعمين، ونزع الشرعية السياسية والأخلاقية عن الخصم عبر التأطير الرمزي والبلاغي، وتوحيد الهوية حول محور القدس قاسما مشتركا، وسعيًا لتوسيع دائرة المواجهة بشبكات دعمٍ إقليمية ودولية تُحدث ولو ضغطًا سياسيًّا أو معنويًّا يخدم مآلات المواجهة.

لقد أظهر التحليل أن الخطاب ليس عملًا انفعاليًّا، بل ممارسة لغوية محسوبة، تُوظّف استراتيجيات خطابية معقدة تجمع بين البعد التداولي، والبعد السردي، والبعد النفسي. وبذلك يشكِّل الخطاب أداة مركزية في ثبات المجتمع الفلسطيني وفي تشكيل رواية مقاومة متماسكة في مواجهة الرواية الإسرائيلية.

(إنفوغراف مولد بالذكاء الاصطناعي)

المراجع

1. David Gonzalez Nieto, "The Emperor's New Words: Language and Colonization," *Human Architecture: Journal of the Sociology of Self-Knowledge* 5 (2007): 231-238.

2. وُلد أبو عبيدة عام 1984 في مخيم جباليا بقطاع غزة، وتلقّى تعليمه في مدارس وكالة الأونروا، قبل أن يستكمل دراساته العليا في الجامعة الإسلامية بغزة، حيث نال درجة الماجستير في تفسير القرآن الكريم. انخرط في صفوف حركة حماس منذ الانتفاضة الثانية عام 2000، وتدرّج في العمل التنظيمي والعسكري حتى تولّى بعد 2005 مهام إعلامية ضمن كتائب القسّام، ليصبح لاحقًا أحد أبرز وجوهها وأكثرهم تأثيرًا في المشهد الإعلامي والسياسي. شغل موقع "رئيس دائرة الإعلام العسكري" في الكتائب، مشرفًا على توثيق العمليات والتصوير وإدارة الحملات الإعلامية والنفسية. وقد عُرف بصوته الواثق ونبرته القوية، وباختياره الدقيق للكلمات التي تجمع بين البلاغة والرسالة الاستراتيجية. كل ظهور له يتحوَّل إلى حدث بحدِّ ذاته، إذ يُحلَّل خطابه من حيث اللغة والإيقاع والمضمون لفهم ما وراء الرسائل المعلنة.

3. تنطلق الفكرة المركزية في هذا الإطار من فرضية أساسية في الفلسفة اللغوية الحديثة، مؤداها أن الاستعمال اللغوي لا ينحصر في إنتاج مقولات لغوية فحسب، إنما يتجاوز ذلك إلى إحداث أفعال اجتماعية محددة في السياق نفسه. وعليه فإن وظيفة اللغة لا تقف عند حدود الوصف والإبلاغ أو الحكم على صدق العبارة وكذبها، وإنما تمتد لتشمل الإنجاز والتأثير في المخاطب.

4. مصطفى المكاوي، الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر: الخطابات الرئاسية والخطابات المضادة من سنة 2011 إلى سنة 2021، رسالة دكتوراه، جامعة القاضي عياض، 2022–2023، 39.

5. المكاوي، الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر، 40.

6. جيوفري ليتش، *مبادئ التداولية*، ترجمة عبد القادر قنيني (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2013)، 23.

7. الفونولوجيا هي علم الأصوات اللغوية الوظيفي، انظر: سعاد بسناسي، "فونولوجيا الأصوات العربية عند اللغويين: المصطلحات والوظائف التعليمية"، 29 يونيو/ حزيران 2024، تاريخ الدخول: 30 سبتمبر/ أيلول 2025، https://bit.ly/basnasi-phonology

8. فريد أبو ضهير وآخرون، "الأساليب الإقناعية وتقنيات الدعاية في خطابات الناطق الرسمي لكتائب القسّام في حركة حماس (أبو عبيدة) خلال معركة طوفان الأقصى"، *مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية* 3، العدد 5 (2024): 132–160.

9. يسري صيشي وطيب شايب، "استراتيجية بناء الخطاب السياسي المقاوم: خطابات أبو عبيدة أنموذجًا"، *جسور المعرفة*، العدد 10 (21 يونيو/ حزيران 2024): 606–615.

10. منار عبد الغني، "توظيف لغة الجسد كآلية للحرب النفسية في خطابات أبو عبيدة الناطق باسم كتائب القسّام"، المركز العربي للبحوث والدراسات، 14 أيار/ مايو 2024، تاريخ الدخول: 30 سبتمبر/ أيلول 2025، https://bit.ly/abdulghani-bodylanguage

11. كريمة بن عوة، "تمظهر رموز المقاومة الفلسطينية في خطابات أبو عبيدة: دراسة تحليلية سيميوثقافية لخطاب 'لا سمح الله' (أكتوبر 2023)"، *المجلة الجزائرية للعلوم الاجتماعية والإنسانية* (2025)، تاريخ الدخول: 30 سبتمبر/ أيلول 2025، https://bit.ly/benaoua-resistance-symbols

12. صاير شباط، "خطاب المقاومة الفلسطينية والحرب النفسية – الإعلامية: من لغة المقاومة والكفاح إلى لغة السيطرة والتحكم.. قراءة في خطابات أبو عبيدة الملثم"، *مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية* (2024)، تاريخ الدخول: 30 سبتمبر/ أيلول 2025، https://bit.ly/shabat-resistance-discourse

13. Raghad Minawi, "Analyzing the Rhetoric of the Aqsa Flood War (2023-2024): A Study of Hamas' Official Discourse through Conceptual Metaphor Theory and Critical Discourse Analysis," *International Journal of Linguistics, Literature and Translation* 7, no. 1 (2024): 191-197.

14. Duaa Talafha et al., "Critical Analysis to Abu-Obieda's Speeches: Strength and Weak Points from a Translational Perspective," *Forum for Linguistic Studies* (2024), accessed October 6, 2025, https://bit.ly/talafha-abuobaida

15. Ilya Husna et al., "Content Analysis of Abu Ubaidah's Speech on Al Jazeera Mubasher's Instagram During Operation Al-Aqsa Flood," *Journal CMES* (2024), accessed October 6, 2025, https://bit.ly/husna-content-analysis

16. Frantz Fanon, *Black Skin, White Masks* (New York: Grove Press, 1967), 17.

17. Gonzalez Nieto, "The Emperor's New Words."

18. Fanon, Black Skin, White Masks, 17-231.

19. Gonzalez Nieto, "The Emperor's New Words."

20. Gonzalez Nieto, "The Emperor's New Words."

21. Daniel Goleman, *Emotional Intelligence* (New York: Bantam Books, 1995), 17-18.

22. غسان كنفاني، "أفكار عن التغيير واللغة العمياء"، ضمن أعمال "ندوة بيروت"، مارس/ آذار 1968، نشرتها مجلة الهدف في يوليو/ تموز 1988، تاريخ الدخول: 27 أكتوبر/ تشرين الأول 2025، https://bit.ly/kanafani-blind-language

23. كنفاني، "أفكار عن التغيير واللغة العمياء".

24. كنفاني، "أفكار عن التغيير واللغة العمياء".

25. Timofei Gerber, "Hannah Arendt: Culture as Care and Resistance," Issue no. 60 (March 2023), accessed June 2, 2025, https://bit.ly/gerber-arendt.

26. رفعت العرعير، أكاديمي وشاعر ومترجم فلسطيني، من مواليد غزة، حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة بوترا بماليزيا عام 2017. كان أستاذا للأدب الإنجليزي بالجامعة الإسلامية في غزة، وأحد أعمدة القسم الإنجليزي بالمركز الفلسطيني للإعلام. استشهد في 7 ديسمبر/ كانون الأول 2023 في قصف إسرائيلي على قطاع غزة رفقة شقيقه وشقيقته وأولادها الأربعة، من إنتاجه الأدبي "غزة تعود للكتابة" (2014) و"غزة تخرج عن صمتها" (2015)، انظر: "رفعت العرعير.. اللسان الإنجليزي للمقاومة في غزة"، موسوعة الجزيرة، 11 ديسمبر/ كانون الأول 2023، تاريخ الدخول: 2 يونيو/ حزيران 2025، https://bit.ly/alareer-biography

27. "We Are Not Numbers: Emerging Writers from Palestine Tell Their Stories and Advocate for Their Human Rights," accessed 2025, https://bit.ly/we-are-not-numbers.

28. Gerber, "Hannah Arendt: Culture as Care and Resistance."

29. مأمون أبو جراد، "رفعت العرعير.. قصيدة تعاند قاتلها"، TRT، 10 ديسمبر/ كانون الأول 2023، تاريخ الدخول: 2 يونيو/ حزيران 2025، https://bit.ly/abujarad-alareer

30. Gerber, "Hannah Arendt: Culture as Care and Resistance."
31. Ngũgĩ wa Thiong'o, *Decolonizing the Mind* (London: Heinemann Educational Books, 1986), 4-10, 16-27.
32. Pierre Bourdieu, *Language and Symbolic Power* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991), 37-42, 45-65.
33. Edward W. Said, *Culture and Imperialism* (New York: Vintage Books, 1993), xx-xvi, 239-276.
34. David Barsamian and Edward W. Said, *Culture and Resistance* (London: Pluto Press, 2003), 159.
35. ميشيل فوكو، *نظام الخطاب*، ترجمة محمد سبيلا (الدار البيضاء: توبقال، 1991)، 11.
36. فوكو، *أركيولوجيا المعرفة*، ترجمة سالم يفوت (الدار البيضاء: توبقال، 2002)، 55.
37. نورمان فيركلوف، *اللغة والسلطة*، ترجمة أحمد مرسي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)، 23.
38. فان ديك، *تحليل الخطاب: مقاربة متعدّدة التخصصات*، ترجمة سعيد بنكراد (الدار البيضاء: توبقال، 2008)، 15–21.
39. James Paul Gee, *An Introduction to Discourse Analysis* (London: Routledge, 2011), 29-30.
40. حسن تمام، *اللغة العربية: معناها ومبناها* (القاهرة: عالم الكتب، 1980)، 323–324.
41. محمد خطابي، *تحليل الخطاب: مفاهيمه وأساليبه* (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006)، 14.
42. عبد السلام المسدي، *الأسلوبية والأسلوب* (بيروت: الدار العربية للكتاب، 1983)، 47.
43. حسن قديم، "أبو عبيدة.. الصوت الذي أرَّق الاحتلال"، *العربي الجديد*، 2 سبتمبر/ أيلول 2025، تاريخ الدخول: 12 أكتوبر/ تشرين الأول 2025، https://bit.ly/qadeem-abuobaida
44. أحمد نظيف، "أسطورة تحت اللثام"، *حبر*، 21 نوفمبر/ تشرين الثاني 2023، تاريخ الدخول: 27 أكتوبر/ تشرين الأول 2025، https://bit.ly/nazif-mask
45. نظيف، "أسطورة تحت اللثام".
46. "خطأ قاتل قاد أبو عبيدة إلى النهاية"، *الوطن*، 1 سبتمبر/ أيلول 2025، تاريخ الدخول: 12 أكتوبر/ تشرين الأول 2025،

https://bit.ly/elwatan-abuobaida

47. TikTok, "Our Continued Actions to Protect the TikTok Community during the Israel-Hamas War," October 15, 2023, accessed November 26, 2025, https://bit.ly/tiktok-war-policy
48. "كيف تحوَّل أبو عبيدة إلى أيقونة عالمية أربكت رواية الاحتلال في الفضاء الرقمي؟"، الجزيرة، إنستغرام، 29 ديسمبر/ كانون الأول 2025، تاريخ الدخول: 5 يناير/ كانون الثاني 2026، https://bit.ly/aljazeera-abuobaida
49. تسمَّى البسملة تاج السور وتبدأ سور القرآن كلها بالبسملة عدا التوبة، وهي مفتاح القرآن، وأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، وأول ما أمر الله به جبريل أن يُقرِئَه النبي محمدًا عليه الصلاة والسلام في سورة العلق **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾**، فكان أول أمرٍ يُنزَل عليه. والغرض من التسمية حصول البركة والتوفيق.
50. المكاوي، الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر، 94.

51. هايدن وايت، *محتوى الشكل*، ترجمة نايف ياسين (المنامة، 2017)، 67.
52. وايت، *محتوى الشكل*، 79–80.
53. ليتش، مبادئ التداولية، 187.
54. زاهر بن مرهون الداودي، "ظاهرة التأدب في خطب أبو عبيدة"، *مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة*، العدد 80 (أبريل/ نيسان 2025): 49–74.
55. هو مبدأ يختلف عن مبدأ الكيف عند كرايس، الذي يقتضي "أن لا تقول إلا ما تعتقد صدقه"، إذ الفرق شاسع بين الاعتقاد بصدق الشيء وبين تصديق العمل له. ومبدأ التصديق عند عبد الرحمن ينبني على عنصرين هما: "نقل القول" وهو متعلق بالجانب التبليغي، و"تطبيق القول" المرتبط بالجانب التهذيبي من التخاطب، ضمن صنفين من القواعد: قواعد تواصلية وأخرى تعاملية. فأما التواصلية فينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر؛ وينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه ويتوخَّى به إصابة فرصته؛ وينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته؛ ويجب أن يتخيَّر اللفظ الذي به يتكلم. انظر: المكاوي، *الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر*، 82–83.
56. المكاوي، الأبعاد التداولية في الخطاب السياسي العربي المعاصر، 83.
57. African National Congress, "Report on the Strategy and Tactics…," April 26, 1969, accessed April 13, 2026, https://bit.ly/anc-strategy-1969.
58. "Manifesto of Umkhonto we Sizwe," December 16, 1961, accessed April 13, 2026, https://bit.ly/umkhonto-manifesto.
59. Ho Chi Minh, *Against U.S. Aggression* (Hanoi, 1967), 35-36.
60. Front de Libération Nationale, "Declaration," November 1, 1954, accessed April 13, 2026, https://bit.ly/fln-declaration-1954.
61. United Nations General Assembly, Resolution 1761 (1962), accessed April 13, 2026, https://bit.ly/un-resolution-1761

مقاومة الاستعمار الأوروبي في الأميركتين وأصداؤها في مسيرة النضال الفلسطيني

مويزيس غاردونيو غارسيا

مقدمة

يُعيد المشروع الاستعماري الإسرائيلي في فلسطين إنتاج بعض الخصائص الجوهرية لعمليات نزع الملكية التي رافقت الاستعمار الأوروبي لأميركا اللاتينية. فقد انطلقت القوى الإمبريالية الأوروبية، في سعيها المحموم وراء الموارد والأسواق، نحو غزو أراضٍ جديدة وفتح طرق تجارية بديلة إلى آسيا، وهو ما أدَّى إلى استغلال القارّة الأميركية منذ عام 1492 فصاعدًا. وقد انطوى هذا المسار على فرض نموذج استعماري شكَّل الأساس البنيوي الأول للرأسمالية الأوروبية المتمركزة حول ذاتها في مرحلتها التأسيسية. ولاحقًا، تبلورت مرحلة ثانية تمثَّلت في استعمار داخلي مارسته نخب أميركا اللاتينية نفسها، عبر توظيف تصوُّرات التفوُّق الثقافي ضد الشعوب الأصليّة.

يدرس هذا الفصل منطق الهيمنة الأوروبية في أميركا اللاتينية، لفهم إدماجها اللاحق في النّظام الرّأسمالي العالمي وخلق وضعية دائمة من الاستغلال. وترتكز الحجّة المركزية على أطروحات باتريك وولف، التي تؤكّد أن الدّافع الأساسي لإبادة السكان الأصليّين لم يكن العرق ولا الدّين ولا الإثنيّة ولا درجة "التحضّر"، بل كان الوصول إلى الأرض والثّروة. بناء على ذلك، يربط هذا الفصل بين بعض عناصر الاستعمار الأوروبي والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، حيث تغدو الأرض، بوصفها مجالًا ترابيًّا، العنصر المركزي وغير القابل للاختزال في "كولونيالية السلطة".

ينقسم الفصل إلى ثلاثة أقسام، يتناول القسم الأوّل منها طبيعة الاستعمار الأوروبي في أميركا اللاتينية، مع التركيز على منطق السيطرة الإقليمية وإبادة السكان

الأصليين. أما القسم الثاني فيناقش المرحلة الاستعمارية الثانية، التي قادتها الدول المستقلة في أميركا اللاتينية ضد الشعوب الأصلية في إطار عملية التحديث الأوروبي. ويقدم القسم الثالث عرضا لبعض تلك التجارب في تفاعلها مع القضية الفلسطينية.

المشروع الاستعماري الأوروبي في الأميركتين: المرحلة الأولى

شكَّل التوغل الأوروبي في القارّة الأميركية منعطفًا تاريخيًّا حاسمًا، فقد مثَّل الولادة العنيفة لبنية عالمية جديدة تقوم على الرّأسمالية والاستعمار والحداثة والتّمركز الأوروبي[1]. وقد انطلق هذا المسار مع سعي الغزاة المحموم وراء مراكمة الثروة، ثم ترسّخ عبر عملية شاملة ومتعدّدة الأبعاد لنزع ملكية الشعوب الأصلية.

في هذا السياق، يُقدّم مفهوم الاستعمار الاستيطاني، كما صاغه باتريك وولف، إطارًا دقيقًا لفهم طبيعة هذا المشروع. فمنطقه "الإقصائي يقوم على تفكيك المجتمعات الأصلية وبناء مجتمع استعماري جديد فوق الأرض المُنتزعة من أهلها"[2]. ووفقًا لما يورده مخطوط فلورنسا[3]، يمكن تحليل هذه العملية عبر ثلاثة أبعاد مترابطة: الأول يتعلَّق باستخراج الثّروات المعدنية، والثاني بالإبادة الجماعية واستغلال العُمَّال، والثالث بالاستيلاء على الأرض.

يمثِّل البعد الأول، المتعلق باستخراج الثروات المعدنية، المحرّكَ الرئيسي للغزو الرامي إلى السيطرة على المعادن النفيسة، التي وصفها إدواردو غاليانو بأنّها "المفاتيح التي استخدمتها النهضة لفتح أبواب الفردوس، وفتح أبواب الميركانتيلية على الأرض"[4]. هذا الدافع لخصه برنال دياث ديل كاستيو، أحد جنود جيش هرنان كورتيس، بقوله إن الإسبان جاؤوا إلى الأميركتين "لخدمة الله والملك، وكذلك لاكتساب الثّروة"[5]. ويشير كارلوس ماريشال إلى أن أميركا الإسبانية زوّدت العالم، بين القرنين 16 و17، بنحو 80٪ من الفضة النقدية العالمية[6]. واستنادًا إلى ألكسندر فون همبولت، فقد بلغت كمية الفضة المستخرجة بين عامي 1500 و1800 ما يقارب 150 ألف طن[7].

أما المجازر وعمليات الإبادة، فقد بدأت عبر أنظمة تصنيف عنصري تهدف إلى تسويغ منطق استغلال العمل والإقصاء الإثني[8]. ورغم أن مفهوم الاستعمار الاستيطاني ارتبط تقليديا بالاستعمار البريطاني، فمن الضروري التّأكيد، هنا، أن أميركا اللاتينية شهدت بدورها شكلًا من أشكال الاستعمار الاستيطاني الإسباني. وقد استند هذا المشروع إلى سياسات التوسُّع الإقليمي، وفرض الطابع الإسباني، وتشجيع الهجرة البيضاء، وارتكاب المجازر بحقِّ الشعوب الأصلية. وكانت كل تلك الممارسات تهدف إلى إحلال السكان الأوروبيين محل السكان الأصليين للوصول إلى المناطق التي تتركَّز فيها الثروة. ويتقاطع ذلك مباشرة مع أطروحة باتريك وولف القائلة إن "الهنود الأميركيين لم يُقتَّلوا أو يُهجَّروا لأنهم مالكو الأرض الأصليون، وإنما قُتلوا لأنهم هنود، أي كائنات دنيا جرى استهدافها بالإبادة من أجل الاستيلاء على أراضيها"[9].

وقد تمكَّن هيرالد براون وبن كيرنان من توثيق سلسلة من أحداث الإبادة الجماعية في منطقة الكاريبي وأميركا الوسطى، من بينها مجازر خاراغوا (هيسبانيولا، 1503)، وتشولولا (المكسيك، 1519)، وتوكسكاتل (المكسيك، 1520)، وغيرها من الأحداث. وقد شكلت تلك المجازر لحظة تحوُّل سياسية في تاريخ التوسُّع العسكري الإسباني في الأميركتين، نظرًا لكونها مجازر مخطّطًا لها كليًّا أو جزئيًّا ونُفِّذت عمدًا[10]. ومن بين المسؤولين عنها رهبان ومسؤولون سياسيون ومستثمرون، مثل فراي نيكولاس دي أوفاندو، وهرنان كورتيس، وبيدرو دي ألفارادو[11].

من الجوانب المهمّة التي ينبغي إبرازها هي أن سياسات الإقصاء وإبادة الشعوب الأصلية في مناطق مثل الأرجنتين وتشيلي وأوروغواي، كانت تسعى إلى تحقيق تجانس سكاني من أجل تسهيل بناء الدولة الوطنية الحديثة. ففي تشيلي، مثلا، ورغم أن المقاومة الأروكانية نجحت في البداية في طرد الإسبان، فقد أصدر التّاج الملكي لاحقًا مرسومًا يقضي باستعباد السكان الأصليين الأسرى، ما أطلق سلسلة من الغارات الإسبانية العنيفة المعروفة باسم "مالوكاس" (malocas) واجهها السكان الأصليون بردود فعل انتقامية عُرفت باسم "مالوناس" (malones)[12].

في الوقت نفسه شكلت مؤسسة "الإنكوميندا" (encomienda) مؤسسة مركزية لاستغلال العُمّال. فقد منحت الغزاة الإسبان سلطة تحصيل الإتاوات وفرض العمل القسري على السكان الأصليين مقابل الحماية والتبشير. إلا أنها تحوَّلت عمليًّا إلى نظام قائم على التعذيب والمجازر والعبودية الفعلية. وأسهمت الإنكوميندا في انهيار ديمغرافي كارثي نتيجة ظروف العمل القاسية وانتشار الأوبئة، التي فاقمها غياب الرعاية الصحية. وتشير لندا نيوسون إلى أنّ عدد سكان الأميركتين انخفض من نحو 50 مليون نسمة عام 1492 إلى 5 ملايين فقط بحلول عام 1650[13]. وقد جمعت الإنكوميندا، بوصفها بنية استعمارية للاستغلال، بين الإبادة والاستعباد، سعيًا إلى تحقيق "أقصى مردود ممكن" من السكان الأصليين. وفي مناطق مثل جزر الأنتيل، تحوَّلت إلى "مؤسسة رعب" أدَّت إلى "إبادة هنود الأنتيل"، إذ كان المستعمرون يجلدون السكان الأصليين ويقتلونهم، زيادة على اغتصاب نسائهم و"تدمير زراعتهم"[14].

وقد أدان الراهب بارتولومي دي لاس كاساس فظائع نظام الإنكوميندا، مؤكّدًا أن الإسبان كانوا "في غاية القسوة، وبلا شفقة أو رحمة، وكانوا منشغلين بمراكمة الثروة على حساب دماء أولئك البائسين"[15]. وكان منسوب الرعب قد بلغ حدًّا جعل الهنود، بحسب لويس مورا، "يفضلون الذهاب إلى الجحيم على أن يلتقوا بالمسيحيين"، لأنّ "الحرب كانت حربًا ظالمة"[16].

خلاصة القول إن نظام الإنكوميندا شكل أحد أعمدة الرأسمالية الاستعمارية، وأداة لمُراكمة الثروة على المستوى الدولي لصالح أوروبا، وهو ما أعاق لاحقًا التحوُّل الديمقراطي الاجتماعي في معظم بلدان القارّة، ورسّخ علاقات هيمنة واستغلال ذات طابع استعماري دائم[17].

أما البُعد الثالث للاستعمار الإسباني في الأميركتين فقد تمثَّل في الاستيلاء على الأرض. ولم يقتصر منطق الإقصاء على التصفية الجسدية للسكان الأصليين، إنما امتد كذلك إلى إقامة مجتمع استعماري جديد فوق الأرض المنزوعة.

تجلّت سياسات الإقصاء في أشكال متعدّدة، من بينها سياسات التّمازج العرقي التي رعتها الدولة، وتفكيك الملكيات الجماعية للأراضي الأصلية وتحويلها إلى

ملكيات خاصة قابلة للبيع، والاحتيال المنهجي، وفرض المواطنة الفردية على المجتمعات الأصلية، واختطاف الأطفال قسرًا، وفرض التّنصير، وإعادة التّنشئة داخل مؤسّسات شمولية مثل البعثات والمدارس الداخلية. كما شملت تلك السياسات سن قانون "الأراضي غير المستثمرة" أو ما سُمِّي باسم "تيرا نوليوس" (terra nullius)، فضلًا عن طيف واسع من برامج الاستيعاب البيولوجي – الثقافي المرتبطة بالسيطرة على الأرض. ولم تقتصر تلك الممارسات على الأميركتين، إنما طُبقت كذلك في سياقات استعمارية إسبانية أخرى مثل المغرب والفلبين[18].

مع ذلك، لا يمكن اختزال الاستعمار الاستيطاني في عنصر نزع الملكية من السكان الأصليين. ففي شمال شرق البرازيل، ووفقًا لغاليانو، دمّرت زراعة قصب السكر الشريط السّاحلي الرّطب، الذي كان صالحا لإنتاج أنواع مختلفة من الغذاء، وحولته إلى "أرض للجوع"[19]. وفي كوبا، ظهر نموذج موازٍ، حيث أدّت صناعة السكر، التي اتسع نطاقها، إلى إحراق أرقى الغابات، وتسبَّبت في "موت خصوبة الجزيرة الأسطورية"[20]. وقد أدَّى تدهور جودة التربة إلى جانب أنشطة التعدين والعمل القسري، إلى تدمير نظام الزراعة الجماعية في جبال الأنديز، ودمج السكان الأصليين قسرًا في البنى الاستعمارية لاستغلال العُمّال.

أمّا الإطار الأيديولوجي الذي تشكَّلت ضمنه هذه الذهنية التي تنظر بدونية إلى السكان الأصليين، فهو المركزية الأوروبية. تنطلق هذه الرؤية، التي نشأت في أوروبا الغربية، من النظر إلى التاريخ الإنساني على أنه مسار خطي يبدأ في أوروبا وينتهي عندها. في المستعمرات الأوروبية، اندمج هذا التصوّر مع تصنيف عرقي لتسويغ نزع الملكية عبر تحويل الفروق بين المجتمعات الأوروبية وغيرها من المجتمعات إلى فروق طبيعية (عرقية)، لا فروق تاريخية أو علاقات قوّة. هذه الرؤية التي تعود جذورها إلى الثّنائية الديكارتية التي تفصل جذريًّا بين "العقل" أو "الذّات"، الممنوحة للأوروبيّين، و"الجسد" الذي أنزِل إلى مرتبة "الشيء" أو "الطبيعة". على هذا الأساس، جرى تصوير الشعوب المستعمَرة على أنها "غير عقلانية" وأقرب إلى الطبيعة، ما أضفى شرعية مزعومة على إخضاعها واستغلالها، وحوّلها إلى مجرد موضوع للمعرفة والسيطرة[21]. وقد جرى إحياء هذه

الأيديولوجيات بعد استقلال الدول الحديثة، وتدشين مرحلة ثانية من الاستعمار في الأميركتين، عُرفت باسم الاستعمار الجديد أو الاستعمار الداخلي.

المرحلة الثانية: الاستعمار الداخلي

انحازت النخب البيضاء في أميركا اللاتينية وذات العرق المختلط، التي تولت زمام السلطة في الدول المستقلة حديثًا، إلى المصالح الأميركية والأوروبية. وقد جرى ذلك على نحوٍ حالَ دون تبنِّي أي مسار فعلي لتحقيق العدالة الاجتماعية لفائدة الشعوب الأصلية. وانطلاقًا من الأبعاد الثلاثة المذكورة أعلاه، يمكن أن نرصد وجود استمرارية داخل منظومات الهيمنة في حقبة ما بعد الاستعمار في أميركا اللاتينية، من أبرز مظاهرها: العنصرية المؤسّسية والعنف العسكري الوحشي. ووفقًا لنعوم تشومسكي، كشفت مرحلة ما بعد الاستعمار في القارة عن نماذج أشد فجاجة من منطق الاستعمار الاستيطاني والتطهير العرقي، نماذج تذكِّرنا بوصف سيمون بوليفار للسكان الأصليين بأنهم "متوحّشون ينبغي تمدينهم". وهذا الوصف يُعدُّ نموذجًا كلاسيكيًّا للخطاب الداعي إلى التجريد من الإنسانية[22].

لقد واصلت الثقافة النيوليبرالية – الاستعمارية إعادة إنتاج التّنصير والتّهجين الإسباني دينيًّا، بالتّوازي مع الاستيلاء على الأرض والموارد الطبيعية. وهذه العملية هي ما أطلق عليه مفكرون أمثال بابلو غونزاليز – كازانوفا، مصطلح الاستعمار الداخلي، الذي يعرّف بأنه "ديناميات القهر والإخضاع التي يُعاد إنتاجها داخل دولة ما بعد الاستعمار، والموجّهة تحديدًا ضد الجماعات الإثنية المُهمَّشة"[23].

التقت أطروحات غونزاليز – كازانوفا مع أفكار عدد من المثقفين البارزين، أمثال خوسيه كارلوس مارياتيغي، وبوليفار إتشيفيريا، ورودولفو ستافنهاغن، الذين شكَّلوا معًا تيّارًا فكريًّا أميركيًّا لاتينيًّا في القرن 20 عُرف باسم حركة "الأصلانيين" (Indigenismo)، التي سعت إلى ترسيخ دور الشعوب الأصلية في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للدول الحديثة. وقد بلور رواد هذه الحركة أفكارهم النقدية انطلاقا من الماركسية، قبل أن يطوّروها لاحقًا إلى فكر متعدّد التخصصات مناهض للرأسمالية، استمدّ كثيرًا من عناصره من التّقاليد الفكرية للسكان الأصليين أنفسهم[24].

أمـا اسـتخراج الثّـروة، فيجـدر تناولـه انطلاقـا مـن فكـرة "الاسـتخراجية" (Extractivism) بوصفها نموذجا إنتاجيًّا متجذِّرًا في ديناميات التراكم عبر نزع ملكية الأراضي[25]. على سبيل المثال، منذ عام 1927، تبوَّأت الشركات الكندية موقع الصّدارة عالميًّا في قطاع التّعدين، وباتت تسيطر على نحو 51٪ من رأس المال المعدني في العالم. وتحتل كندا المرتبة الأولى عالميًّا في استخراج الزّنك واليورانيوم والنّيكل والبوتاس، والثانية في الكبريت والأسبستوس والألمنيوم والكادميوم، والثالثة في النّحاس والبلاتين، والرابعة في الذهب، والخامسة في الرصاص.

وبحلول عام 2007، أصبحت الشركات الكندية متعدّدة الجنسية تمتلك أصولًا في نحو 8300 موقع حول العالم، يقع 1200 منها في أميركا اللاتينية[26]. وقد سهَّل هذا التغلغل الواسع تهجير الكثير من الجماعات الأصلية، من بينها شعب الوامبيس في بيرو، والويشارتياري في المكسيك، واليانومامي في البرازيل، والأيمارا في بوليفيا، والماپوتشي في تشيلي، إلى جانب عدة جماعات أخرى.

مع ذلك، يمكن القول إن السلعة التصديرية الأهم في أميركا اللاتينية كانت ولا تزال الوقود الأحفوري، الذي شكَّل عام 1952 نحو ثلاثة أرباع صادرات المواد الخام في المنطقة. وبحسب إدواردو غاليانو، فإن استخراج النفط والغاز الطبيعي يكتسب أهمية خاصة، نظرًا إلى كون هذه الموارد استراتيجية للنشاط العسكري والصناعات الكيميائية[27]، وقد اجتذبت رؤوس الأموال الأجنبية واهتمام النظام الرأسمالي العالمي، الذي كان خاضعًا آنذاك لهيمنة الولايات المتحدة ولعقيدتي "القدر المتجلِّي" و"مبدأ مونرو"[28].

وقد مارست شركات كبرى، مثل ستاندرد أويل وشِل، سيطرة فعلية على موارد الطاقة، وامتلكت نفوذا مكّنها من التّأثير على استقرار الأنظمة السياسية في أميركا اللاتينية. يتجلَّى ذلك في دعم الولايات المتّحدة لعدد من الانقلابات العسكرية، من بينها انقلاب الجنرال هوغو بانزر في بوليفيا عام 1971، وانقلاب الجنرال أوغستو بينوشيه في تشيلي عام 1973. كما شمل هذا النّهج محاولات مستمرّة لزعزعة حكومات فيدل كاسترو في كوبا، ولاحقًا هوغو تشافيز ونيكولاس مادورو في فنزويلا، ودانييل أورتيغا في نيكاراغوا[29].

ارتبط تكرار الانقلابات العسكرية في أميركا اللاتينية بعمليات منح امتيازات النفط أو تأميمه. ويُعدُّ تأميم النفط في المكسيك عام 1938 سابقة رمزية، إذ قوبل بحصار دولي قادته شركتا ستاندرد أويل وشل. وفي الأرجنتين، كان الكونغرس يستعدُّ للتصويت على قانون لتأميم النفط عندما أُطيح بالرئيس هيبوليتو يريغوين في انقلاب عام 1930. وشكَّلت حرب تشاكو (1932–1935) بين بوليفيا والباراغواي مثالًا آخر في هذا السياق، فقد وُجِّهت اتهامات، من بينها تلك التي أطلقها السيناتور الأميركي هيوي لونغ، لشركة ستاندرد أويل في نيوجيرسي بالتحريض على الحرب، عبر تمويل الجيش البوليفي للسيطرة على إقليم تشاكو، في حين يُزعم أن شركة شل دعمت الباراغواي[30].

ومع صعود موجة النيوليبرالية، شهدت أميركا اللاتينية عملية تفكيك صناعي عمّقت منطق الاستخراجية. فقد اتَّجهت الدول، التي باتت عاجزة عن تحصيل الضرائب الكافية أو التدخُّل المباشر في الاقتصاد، إلى تصدير الموارد الطبيعية مصدرًا أساسيًّا للدَّخل. وغالبًا ما كان ثمن ذلك عمليات إبادة جماعية أو تطهير عرقي[31]. في هذا السياق، وثَّق كارلوس سلامنكا فيلاميزار وألسيدا ريتا راموس نحو 12 حالة إبادة جماعية في الأرجنتين وكولومبيا والبرازيل، نتجت مباشرة عن هذا النموذج، وشملت ليس فقط التهجير القسري، إنما كذلك أعمال قتل ممنهجة نادرًا ما اعترفت بها الدول رسميًّا[32].

وتُعدُّ غواتيمالا حالة نموذجيّة في هذا السّياق، إذ ارتكبت القوات النظامية إبادة جماعية بحقِّ شعب المايا بين عامي 1962 و1996[33]. وفي تشيلي، بدأ التدمير المنهجي لشعبي السيلكنام والأونيكينك في باتاغونيا منذ النصف الثاني من القرن 19، كما تجلَّى في مذبحة سان سيباستيان عام 1886، وتواصل لاحقًا اضطهاد شعب المابوتشي.

أمّا في الأرجنتين، فقد أسفرت حملة "غزو الصحراء" عام 1880، بقيادة الجنرال خوليو روكا، عن إبادة شعوب البامبا الأصلية بهدف الاستيلاء على أراضيهم، مستخدمةً، في سبيل تحقيق ذلك، معسكرات اعتقال وعمليات قتل جماعي وخطف الأطفال. وشكلت مذبحة نابالِبي عام 1924 بحقِّ شعبَي القوم

والموقويت، وإبادة "ينكون بومبا" عام 1947 ضد شعب البيلاجا، فصولًا أخرى دامية في تاريخ المنطقة، إلى جانب القمع المنهجي الذي مارسته الدكتاتورية العسكرية الأرجنتينية بين عامي 1976 و1983. وفي كولومبيا، يواجه 70 من أصل 115 مجموعة إثنية أصليّة باقية خطر الفناء الجسدي والثّقافي. أمّا في المكسيك، فلم يتبقَّ سوى 68 مجموعة، تعيش 61٪ من أفرادها تحت خط الفقر[34].

وتستحق قضية اختفاء جماعة شيتا (Xetá) في البرازيل اهتمامًا خاصًّا، إذ تحوَّلت خلال ستينيات القرن 20 إلى نموذج مأساوي للقارة بأكملها. فقد كانت هذه الجماعة آخر من أقام اتصالًا مع المستوطنين. وعندما اجتاحت أراضيها مشاريع الزراعة وقطع الأخشاب، اختار أحد فروعها، بعدما أنهكه الفرار المتواصل، الاقتراب من مُلاّك الأراضي. وقد قُضي على معظم أفراد الجماعة، الذين قُدّر عددهم بين 200 و400 نسمة عند أول اتصال، خلال أقل من 30 عامًا بسبب الاستعمار، وبناء سدّ إيتايبو، الذي أغرق محميتهم، ودمّر بيئتهم، ونشر الأوبئة والقتل في أوساطهم. واليوم، لم يبقَ من هذا المجتمع سوى 8 أفراد فقط[35].

في نهاية المطاف، جرى نزع ملكية الشعوب الأصلية عبر مشاريع عملاقة جرى تعليلها بخطاب "تمديني" باسم التقدُّم والتحديث، وهو خطاب يصوِّر المجتمعات الأصلية باعتبارها "متخلفة" أو "خطرة" أو "مرتبطة بتهريب المخدّرات"، بما يؤدِّي إلى تجريم مقاومتها ونضالها التحرُّري. من الأمثلة البارزة على تلك المشاريع، محطّة بالو بييخو الكهرومائية في غواتيمالا، التي شيَّدتها شركة "إنيل غرين باور" الإيطالية في بلدية كوتسال، والتي تجسِّد استمرار العنف الذي تمارسه الدولة ضد مجتمع المايا إيكسيل. وقد وصف السكان المحلّيون بناء المحطة بأنه "الغزو الجديد" أو "الغزو الرابع"، في إشارة مباشرة إلى الغزو الإسباني، ثم نظام المزارع، ثم الإبادة الجماعية خلال الصراع المسلّح في غواتيمالا[36].

وتُعدُّ تجربة جيش زاباتيستا للتحرير الوطني في المكسيك حالة نموذجية أخرى، فقد ظهر عبر انتفاضة تشياباس عام 1994، بالتّزامن مع دخول اتفاقية التجارة الحرّة لأميركا الشمالية (نافتا) حيّز التّنفيذ، والتي ربطت النّخب المكسيكية

بمصالح الولايات المتّحدة وكندا. وبعد فترة قصيرة من الصراع المسلّح مع الدولة، تحوَّل الزّاباتيستيون إلى حركة سياسية مؤثّرة، ركّزت على تحقيق تقرير المصير للشعوب الأصلية عبر الجمع بين المقاومة المسلّحة والمشروع الفكري النّقدي للنّيوليبرالية، والدّفاع عن ممارسات مناهضة للرأسمالية قائمة على الإدارة الذاتية[37].

وفي الإكوادور، تُعدُّ "كونفدرالية قوميات السكان الأصليين"، التي تأسَّست عام 1986، من أكثر التنظيمات الأصلية قدرة على التّعبئة في أميركا اللاتينية[38]. وبالتّوازي، لعبت حركة مزارعي الكوكا في بوليفيا، المؤلّفة أساسًا من مجتمعات الكيتشوا والأيمارا، دورًا محوريًّا في المشهد السياسي، لا سيما من خلال "مسيرة الأرض والكرامة" عام 1990، التي جمعت شعوب الأنديز والأمازون للمطالبة بالأرض والاعتراف بها. وقد تقاطع هذا المسار مع نضال حركة المابوتشي، التي تمثِّل نحو 9٪ من سكان تشيلي، والتي واصلت مقاومتها للهيمنة الاستعمارية ومعارضتها لسياسات الدول القومية من خلال المطالبة بالحكم الذّاتي واستعادة الأراضي[39].

ولا يكتمل هذا التحليل دون التوقف عند تجربة "حركة العُمَّال الرّيفيين بلا أرض" في البرازيل. فقد تأسَّست هذه الحركة عام 1984 ردًا على التّفاوت الحاد في ملكية الأراضي، إذ تُعدُّ البرازيل من أكثر دول العالم التي يتجلَّى فيها عدم المساواة في هذا المجال. لهذا، شكل احتلال الأراضي السّمة المركزية والمميّزة لاستراتيجية الحركة منذ نشأتها. ويؤكّد الباحثون أنّ تلك الممارسة استخدمتها الحركة للضّغط على الدّولة من أجل تنفيذ إصلاح زراعي، تحت شعار "الاحتلال هو الحل الوحيد".

مثّلت تلك الاستراتيجية شكلًا من أشكال "الاحتلال المضادّ"، إذ تبدأ بحملات تعبئة من منزل إلى منزل، يليها تحليل قانوني دقيق لوضعية الأراضي غير المُستثمرة، ثم احتلالها فعليًّا، وإقامة مخيّمات تُميِّزها الأغطية البلاستيكية السوداء. وقد تحوَّلت تلك المخيّمات، مع الوقت، إلى فضاءات فكرية أنتجت نظريات تحرُّرية، من بينها لاهوت التّحرير الذي انتشر في الأوساط الريفية خلال سبعينيات القرن 20، جامعًا بين الفكر الماركسي وكهنة كاثوليك معارضين للدكتاتورية البرازيلية[40].

أصداء المقاومة الفلسطينية

رغم التباعد الزمني والجغرافي، تكشف الممارسات الاستعمارية القديمة والجديدة في أميركا اللاتينية عن تشابهات بنيوية عميقة مع آليات نزع الأراضي من أصحابها في فلسطين. فقد مثّل التوغّل الأوروبي في القارة الأميركية منذ عام 1492 لحظة فاصلة دشنت الظهور العنيف لبنية قوة عالمية جديدة، وهي الدينامية ذاتها التي ستختبرها فلسطين لاحقًا مع مجيء الاستعمار البريطاني، ثم مع المشروع الاستيطاني الاستعماري الإسرائيلي المستمر حتى اليوم. فمنذ نشأته، ارتكز هذا المشروع على منطق إقصائي يسعى إلى تفكيك المجتمع الأصلي وإقامة مجتمع استعماري جديد فوق أراضيه المُصادَرة. لقد كرّس ذلك المنطق ممارسات طويلة الأمد تقوم على العنف الوحشي والتطهير العرقي بوصفهما وسيلتين لخلق ظروف مناسبة لإعادة إنتاج الثروة باستخدام أساليب مختلفة للنهب وتجريد "الآخرين" (الأصليين) من أرضهم بعد إبادتهم أو وفاتهم.

في كل من أميركا الإسبانية والمشروع الصهيوني، ظل العنصر المركزي وغير القابل للاختزال هو انتزاع الأرض. ففي الحالة اللاتينية، لم يُقتل السكان الأصليون أو يُهجَّروا لأنهم المالكون التاريخيون للأرض، إنما لكونهم كائنات دنيا أُقصيت من أجل الاستيلاء على الأرض. أما في الحالة الفلسطينية، حيث تتكرَّر تلك الممارسات وفق ذات المنطق الإقصائي، فالمشروع الصهيوني يقوم على فرضية تأسيسية مفادها "التدمير من أجل الإحلال". وقد عبر ثيودور هرتزل، الأب المؤسس للصهيونية السياسية، عن ذلك مجازيًّا بقوله: "إذا أردتُ أن أستبدل بناءً قديمًا بآخر جديد، فلا بد أن أهدم قبل أن أبني"[41].

وكما كان الحال في أميركا اللاتينية، شملت ممارسات الاحتلال الإسرائيلي كذلك التحكّم في منظومة العمل. ويشير مؤرّخون، مثل إيلان بابيه، إلى أن الكفاءة الاقتصادية جرى إخضاعها عمدًا بهدف بناء مجتمع قومي يهودي شبه مستقل، على حساب السكان العرب المحيطين به[42]. نتيجة لذلك - يلاحظ غسّان كنفاني - يجري الضغط على المؤسسات اليهودية بشكل منهجي لمنعها من تشغيل العُمَّال من غير اليهود، رغم أن العُمَّال العرب يتقاضون أجورًا أدنى. وهكذا، نشأت القوة

البنائية المحرّكة للمشروع القومي اليهودي من عملية التدمير الممنهج لقوة العمل التي كان يملكها سكان فلسطين الأصليون.

بهذا المعنى، وعلى غرار المشروع الأوروبي في أميركا اللاتينية، تأسَّس المشروع الاستعماري الصهيوني ضمن إطار أيديولوجي يقوم على دونية السكان الأصليين، لإضفاء الشرعية على نزع ممتلكاتهم وإزالتها. وكان ذلك منذ نكبة العام 1948 وصولًا إلى الإبادة الجماعية في غزة بين عامي 2023 و2025.

لقد روّجت المركزية الأوروبية في أميركا اللاتينية لفكرة تاريخ إنساني يبلغ ذروته في أوروبا، مستخدمة التصنيف العرقي لتكريس الفروق بين الأوروبيين و"غير الأوروبيين" بوصفها فروقًا في الطبيعة لا في التاريخ أو في تراتب السلطة. بناء على ذلك، وُضِعت الشعوب المُستعمَرة ضمن خانة "اللاعقلانية" والقرب من حالة الطبيعة، بما أضفى شرعية على استغلالها ثم إبادتها.

في الحالة الصهيونية، جرى بناء الهويَّة الذكورية العنيفة "لليهودي الجديد" على أساس أنه مالك الأرض في فلسطين في مقابل صورة "اليهودي التائه" التي أنتجتها معاداة السّامية بأوروبا. في الوقت ذاته، تحوَّلت صورة الفلسطينيين إلى أولئك البدو الرحّل، أو "الآخرين"، القابلين للإلغاء. هذا المحو الفعلي والرمزي للهوية العربية – الفلسطينية الأصلية، يظل آلية مركزية من آليات الاستعمار الاستيطاني، رغم تناقضاته أحيانًا، إذ قد يلجأ أحيانًا إلى استعارة عناصر من تلك الهوية ذاتها للتمايز عن المركز الإمبراطوري. لذلك، يتخذ المشروع الاستعماري في أميركا اللاتينية ومشروع الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين بنية استيطانية واحدة يشكِّل منطق الإزالة فيها مبدًا منظّمًا للمجتمع. ويتمحور هذا المنطق حول الاستحواذ على الأرض والتمسك بها من خلال إنكار وجود المجتمع الأصلي ومصادرة ممتلكاته وموارده.

في سياق هذه المقارنة بين الاستعمار الداخلي في أميركا اللاتينية والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، لا يمكن إغفال دور النخب في حقبة ما بعد الاستعمار وتحالفاتها مع الولايات المتحدة ضمن نظام رأسمالي عالمي تُعدُّ فيه الطّاقة والموارد الطبيعية عناصر حيوية. فبينما واصل الاستعمار الداخلي في أميركا اللاتينية نزع الملكية

عبر العنصرية المؤسسية، والتهميش الاجتماعي للسكان الأصليين، والاقتصادات الاستخراجية، فإن مذابحه النموذجية تعكس كذلك بنية الاستعمار الإسرائيلي بوضوح. ولا ينحصر ذلك في الإبادة التي جرت في غزة فحسب، إنما كذلك في سلسلة المجازر التي ارتكبتها إسرائيل بحقِّ الشعب الفلسطيني قبل نكبة 1948 وبعدها[43].

وعليه، يستمر منطق الإزالة في التجلي بأشكال مختلفة عبر الزمن، فهو لا يقتصر على العنف القاتل على الحدود، في غزة والضفة الغربية ولبنان وسوريا وسائر الفضاء العربي، إنما يقترن كذلك بسياسات الإدماج القسري. ومن أمثلة ذلك، "أسرلة" الفلسطينيين داخل أراضي 1948، والتدمير المنهجي للحياة الجماعية الأصلية في غزة، وتفتيت الملكية الفلسطينية في الضفة الغربية، وعمليات الطرد الجماعي للسكان والعُمّال، والاختطاف المتكرّر، والاعتقال الإداري.

في المقابل، ورغم اشتراك الاحتلال الصهيوني في ذات المنطق الإقصائي البنيوي للاستعمار الأوروبي في أميركا اللاتينية، فإنه يعتمد استراتيجيات مغايرة في علاقته بالسكان الفلسطينيين. ففي إسرائيل، يضمن "قانون العودة" هجرة غير محدودة عدديًّا، لكنها محصورة إثنيًّا في اليهود. وهذا القانون يعمل ضد إدماج السكان الأصليين من غير اليهود، ويؤكِّد أن آلية الاستيعاب عن طريق الهجرة، مجرد آلية "قانونية" لممارسة الإقصاء والتطهير العرقي.

أحد أوجه الشبه الأكثر خطورة في الحالتين، وخاصة في السياق الفلسطيني الراهن، يتمثَّل في قابلية الاستغناء عن السكان المستعمَرين. فوفق كولن تاتز، "لم يكن نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا إباديًّا، لأن عمل الأفارقة كان لا غنى عنه"[44]. أما في الحالة الإسرائيلية، فإن التخلّص التدريجي من الاعتماد على العمالة الفلسطينية يشير بوضوح إلى تحويل الفلسطينيين إلى فائض بشري قابل للطرد. بعبارة أخرى، باتت غزة والضفة الغربية، على نحو متزايد، لا تشبهان البانتوستانات في جنوب أفريقيا، التي احتفظ فيها العُمَّال بقيمتهم الاقتصادية، بل تشبهان المحميات أو غيتو وارسو[45].

وكما تشكَّل تاريخ أميركا اللاتينية عبر حركات مقاومة الهيمنة الاستعمارية والنيوليبرالية والقمع الداخلي، تجد القضية الفلسطينية نقطة التقاء عميقة مع

نضالات القارة من أجل التحرُّر الوطني، وإنهاء الاستعمار، ومناهضة الإمبريالية. وقد تبلورت هذه الروابط تاريخيا خلال الحرب الباردة، لا سيما مع مؤتمر القارّات الثلاث في هافانا عام 1966، الذي وحّد قوى التحرُّر الوطني من فيتنام إلى تشيلي في مواجهة الهيمنة الأميركية. وكان لمنظمة التحرير الفلسطينية دور محوري في ذلك المؤتمر، فقد شدَّد ياسر عرفات على أن التحالف بين حركة التحرُّر العربي – الفلسطيني ونضالات آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية هو السبيل الأنجع لمواجهة الإمبريالية. وقد تجسَّدت تلك الروابط عمليًّا في علاقات مباشرة، مثل تلك التي جمعت الثورة الفلسطينية بالثورة الساندينية في نيكاراغوا، عبر وجود وحدات ساندينية في قواعد الثورة الفلسطينية بالأردن[46].

رغم هذه الروابط، بات دعم القضية الفلسطينية في أميركا اللاتينية اليوم في معظمه رمزيا داخل أوساط اليسار التقدُّمي. فقد تراجع الدعم الفعلي بسبب القمع الداخلي وتعاون دول أميركا اللاتينية العسكري والسياسي المستمر مع إسرائيل، وفق ما يسمّيه برونو هوبرمان "دبلوماسية التسلّح"[47]. ولم يفضِ صعود حكومات يسارية في المنطقة إلى تحوُّل ملموس في السياسات تجاه فلسطين. ففي دول مثل البرازيل والمكسيك وتشيلي وكولومبيا، يظلُّ التعاون العسكري مع واشنطن وتل أبيب قائما، في ظلِّ تبعية أمنية عميقة للإمبريالية العالمية، ما يفرز دعمًا رمزيًّا لا أكثر، ويخلق وهمًا باتخاذ مواقف أكثر صرامة ضد الإبادة في غزة وانتهاكات حقوق الإنسان في عموم الأراضي الفلسطينية.

ربما كان المعسكر البوليفاري (نيكاراغوا، فنزويلا، كوبا) أكثر اتّساقا في تضامنه مع فلسطين، فهو يرى أن المواجهة الحالية، ليست طارئة، بل نتيجة 75 عامًا من الانتهاك الدّائم لحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرُّف، وسياسة إسرائيل العدوانية والتوسعية. ويستمر هذا الموقف رغم انتهاك بعض قادة هذا المعسكر، مثل دانييل أورتيغا، لحقوق السكان الأصليين في بلدانهم.

ورغم ما تعكسه هذه التباينات من انقسامات داخل النخب التقدُّمية في أميركا اللاتينية، فإن أبرز أصداء المقاومة الفلسطينية تتجلَّى داخل الحركات الاجتماعية

الشعبية. فهذه القوى القاعدية، المُنخرطة في الصراع من أجل الأرض وضد نموذج الاقتصاد "الاستخراجي"، ترى في التجربة الفلسطينية مرآة تعكس على أرض الواقع سياسة نزع الأراضي من السكان الأصليين[48].

وقد عبَّرت حركات مثل جيش زاباتيستا للتحرير الوطني في المكسيك، وحركة العُمَّال الريفيين بلا أرض في البرازيل، عن معارضة واضحة للإبادة في غزة. فمقاومة هاتين الحركتين، تتقاطع بعمق مع حركة المقاومة الفلسطينية في النضال من أجل الأرض وضد الإمبريالية؛ لأنه تعبير عن مطلب جوهري مشترك يتمثَّل في تقرير المصير والعدالة. ويشكِّل منطق انتزاع الأرض المستمر، وتحويل السكان المُستعمَرين إلى فائض بشري، كما يتجلَّى في غزة والضفة الغربية، نقطة التقاء خطيرة تربط العنف التاريخي لنزع الملكية في أميركا اللاتينية بالواقع الفلسطيني المعاصر. كما يضمن حضور الشتات الفلسطيني، عبر منظمات مثل "فيبال" (FEPAL) في البرازيل و"كوبلاك" (COPLAC) على المستوى القارّي، استمرار حيوية الدعم داخل الجامعات والمراكز الحضرية.

لذلك، ورغم تشتُّت المواقف الرسمية، يستمر كثير من بلدان أميركا اللاتينية في النظر إلى النضال الفلسطيني على أنه انعكاس قوي لتاريخ قارتهم الخاص في مقاومة الاستعمار الأوروبي[49].

خاتمة

يقدم التاريخ الاستعماري لأميركا اللاتينية درسا بالغ الأهمية لفهم الحاضر الفلسطيني، فهو يبرهن على أن الاستعمار الاستيطاني ليس واقعة تاريخية منتهية، بل بنية مستمرة قابلة للتكيف. وتُجسّد النضالات المتواصلة للشعوب الأصلية وحركات الفلاّحين في أميركا اللاتينية شاهدًا حيًّا على أن انتزاع الأرض لا ينجح دائمًا ما دامت المقاومة مستمرة. وتمثِّل مقاومة الشعب الفلسطيني من أجل أرضه وحقوقه وتقرير مصيره تجلِّيًا معاصرًا للصراع ذاته، فهي تكشف أن "الجرح الاستعماري" الذي فُتح قبل قرون لا يزال نازفًا، ويواصل تشكيل أنماط الظّلم والمقاومة في العالم اليوم.

لقد أرست البنية الاستعمارية القائمة على المركزية الأوروبية، في أميركا اللاتينية، أسس نظام عالمي لم يندثر، إنما أظهر قدرة ملحوظة على التكيُّف والاستمرار. وقد بيَّن هذا التحليل أن انتزاع الأرض في أميركا اللاتينية قام على ثلاث ركائز مترابطة لا غنى عنها للتراكم الرأسمالي البدائي في أوروبا: الاستخراج المنهجي للثروات المعدنية، الذي موّل التطور الرّأسمالي التّجاري؛ واعتماد منطق إبادي عبر مؤسّسات مثل الإنكومييندا، الذي يهدف إلى استغلال السكان الأصليين واستبدالهم ديموغرافيًّا؛ وأخيرًا الاستيلاء المادي على الأرض، بوصفه عنصرًا ضروريًّا لإقامة مجتمع استعماري جديد.

وقد جرى إضفاء الشرعية على هذا المسار عبر إطار أيديولوجي مركزي أوروبي متحيِّز عنصريًّا ضد السكان الأصليين، فبرّر إخضاعهم وإقصاءهم، أسوة بممارسات المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين. وبعد الاستقلال الشكلي في الأميركتين، لم يختفِ هذا النموذج، إنما تحوَّل إلى استعمار داخلي، واصلت نخبه المحلية، المُتحالفة مع المصالح الخارجية، إدامةَ التبعية البنيوية، مُستخدمة عنف الدولة، كما تؤكّد ذلك سلاسل الإبادة والمجازر الموثّقة خلال القرنين 20 و21.

ويتجلَّى صدى هذا النمط البنيوي بوضوح في الحالة الفلسطينية، حيث تمثِّل الصهيونية أقسى أشكال الاستعمار الأوروبي مقترنة بأشدِّ تجلّيات الإمبريالية الأميركية عنفًا. من ثمّ، يعيد المشروع الصهيوني إنتاج المنطق الجوهري للاستعمار الاستيطاني وهو "التّدمير من أجل الإحلال".

تتجلَّى أوجه الشّبه كذلك في التسويغ الأيديولوجي لدونيّة السكان الأصليين. غير أن ما يمكن استخلاصه أيضًا هو أن مقاومة هذا الاضطهاد البنيوي تشكِّل قاسمًا مشتركًا عميقًا بين أميركا اللاتينية وفلسطين. فالتضامن الحقيقي مع فلسطين يتجسَّد بصورة أوضح داخل الحركات الاجتماعية أكثر من النخب السياسية ما بعد الاستعمارية التي غالبًا ما تحافظ على روابط ومصالح مع إسرائيل أو الولايات المتحدة. يذكِّرنا هذا الواقع بسياسات العديد من الأنظمة العربية، التي تتخذ نخبها مواقف ملتبسة رغم الدعم الشعبي الكاسح لفلسطين.

في الختام، يؤكِّد هذا الفصل أن التضامن المُنبثق من المجتمع المدني، وبدرجة أقل من بعض التيارات التقدُّمية، يعكس وعيًا متناميًا بوحدة النضال من أجل وجود الشعب الفلسطيني وتحرُّره. فاستمرارية الكفاح من أجل الأرض ومواجهة العنف تؤكِّد متانة الروابط بين ماضي الاستعمار الأوروبي في أميركا اللاتينية وحاضر الاحتلال الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

نقله إلى العربية كريم الماجري

المراجع

1. Aníbal Quijano, “Coloniality and Modernity/Rationality,” *Perú Indígena* 13, no. 29 (1992): 15.
2. Patrick Wolfe, “Settler Colonialism and the Elimination of the Native,” *Journal of Genocide Research* 8, no. 4 (2006): 387-409.
3. Bernardino de Sahagún, *General History of the Things of New Spain: The Florentine Codex*, Book 12: *The Conquest of Mexico* (1499-1590).
4. Eduardo Galeano, *Open Veins of Latin America*, trans. Cedric Belfrage (New York: Monthly Review Press, 1996).
5. Eduardo Galeano, *Las venas abiertas de América Latina* (Buenos Aires: Siglo XXI, 1971).
6. Carlos Marichal et al., *From Silver to Cocaine: Five Centuries of Economic History of Latin America, 1500-2000* (2017).
7. Galeano, *Las venas abiertas de América Latina*, 36.
8. Aníbal Quijano, “Coloniality of Power, Eurocentrism, and Latin America,” in *The Coloniality of Knowledge: Eurocentrism and Social Sciences*, ed. Edgardo Lander (Buenos Aires: CLACSO, 2000).
9. Wolfe, “Settler Colonialism,” 388.
10. Elena Ruiz, *Structural Violence: The Foundations of Colonial Impunity of the Settlers* (Oxford Academic, 2024).
11. Herald E. Braun and Ben Kiernan, “Genocidal Massacres in the Spanish Conquest of the Americas: Xaragua, Cholula and Toxcatl, 1503-1519,” in *The Cambridge World History of Genocide*, ed. Ben Kiernan et al. (Cambridge: Cambridge University Press, 2023), 622-47.
12. Carlos Aguirre Rojas, “Indigenous Movements of Latin America,” *Cátedra*, no. 17 (2020): 182-99.
13. Linda A. Newson, “The Demographic Collapse of Native Peoples of the Americas, 1492-1650,” in *The Meeting of Two Worlds*, ed. Warwick Bray (Oxford: Oxford University Press, 1993).
14. Benedicto Álvarez Cuervo, “Spanish Conquest and Colonization of America,” *Historia Digital* 16, no. 28 (2016): 106-144.
15. Luis Mora, Bartolomé de Las Casas: Conquest, Domination, Sovereignty (Paídos, 2023).
16. Luis Mora, “Conquest, Domination, and Otherness in Bartolomé de las Casas,” *Revista Humanidades* (University of Costa Rica, 2011): 1-12.
17. Timothy J. Yeager, “Encomienda or Slavery?,” *The Journal of Economic History* 55, no. 4 (1995): 842-59.
18. Owen Lynch Jr., “Land Rights, Land Laws and Land Usurpation,” *Philippine Law Journal* 65 (1988).
19. Galeano, Las venas abiertas de América Latina, 83.

20. Galeano, Las venas abiertas de América Latina, 93.
21. Ramón Grosfoguel, "The Complex Relationship Between Modernity and Capitalism," *Pléyade*, no. 21 (2018): 29-47.
22. Aviva Chomsky, "On Settler Colonialism from Adam Kirsch to Latin America," *Harvard Review of Latin America*, November 12, 2024.
23. Pablo González Casanova, "Plural Society, Internal Colonialism and Development," *Revista América Latina* 6, no. 3 (1963): 15-32.
24. Bolívar Echeverría, *Modernidad y blanquitud* (Mexico City: Ediciones Era, 2016); Rodolfo Stavenhagen, *The Emergence of Indigenous Peoples* (Springer, 2013); José Carlos Mariátegui, *Obras completas* (Amauta, 1971).
25. David Harvey, "The 'New' Imperialism: Accumulation by Dispossession," *Socialist Register* (2005).
26. Mandeep Dhillon, "Canadian Mining in Mexico," *Chiapas al Día Bulletin*, no. 535 (2007).
27. Galeano, Las venas abiertas de América Latina, 175.
28. Roberto Marín Guzmán, "La Doctrina Monroe," *Revista de Estudios*, no. 4 (1982): 117-141.
29. Israel Alarcón Montes, "The Path of Extractivism in Latin America," *De Raíz Diversa* 10, no. 20 (2025): 47-65.
30. Galeano, Las venas abiertas de América Latina, 190-225.
31. Francisco Serratos, "Extractivism in Latin America," *Revista de la Universidad de México* (2023).
32. Carlos Salamanca and Alcida Ramos, eds., *Genocidios indígenas en América Latina* (Rosario: Universidad Nacional del Rosario, 2023).
33. Salamanca and Ramos, *Genocidios indígenas*, 27-28.
34. Citizen Action against Poverty, "Poverty is Concentrated among Indigenous Populations," September 12, 2025.
35. Cecília Maria Vieira Helm, "Os Xetá," *Anuario Antropológico*, no. 92 (1994): 105-112.
36. Giovanni Batz, *The Fourth Invasion* (University of California Press, 2024).
37. Carlos Alonso Reynoso and Jorge Alonso, *Un somero acercamiento al zapatismo* (CLACSO, 2021).
38. Phillipp Altmann, "Movimiento Indígena del Ecuador," *Antropología. Cuadernos de Investigación*, no. 12 (2017): 105-121.
39. Carlos Aguirre Rojas, "Los Movimientos Indígenas," (2020): 182-99; Raúl Zibechi, *Autonomías y emancipaciones* (2008).
40. Diego Piñeiro, *En busca de la identidad* (CLACSO, 2024).
41. Lucy Taylor and Geraldine Lublin, "Settler Colonial Studies and Latin America," *Settler Colonial Studies* 11, no. 3 (2021): 259-70.
42. Ilan Pappé, *A History of Modern Palestine*, 3rd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 2021).
43. Mohamed Safa, *La Segunda Nakba Palestina* (Utopía Libros, 2021).
44. Colin Tatz, *With Intent to Destroy* (London: Verso, 2003).

45. Wolfe, “Settler Colonialism,” 404.
46. Bruno Beaklini, “Latin America and the Struggle for the Liberation of Palestine,” Al Jazeera Centre for Studies, March 25, 2025.
47. Bruno Huberman, “Is Latin America Pro-Palestine?” *Middle East Critique* 34, no. 4 (2025): 725-47.
48. Moises Garduño, “Resonancias del zapatismo mexicano y la resistencia palestina,” *Espiral* 23, no. 65 (2016): 125-163.
49. Amal Eqeiq, “Of Borders and Limits,” *Jadaliyya*, August 27, 2018.

الثورة الجزائرية وتصفية الاحتلال الاستيطاني الفرنسي (1954-1962)

دراسة في طبيعة الاحتلال وخصائص الثورة

مصطفى داودي

مقدمة

شهد حوض البحر الأبيض المتوسط، مع بدايات القرن 19، تحوُّلاتٍ كبرى اتسمت بتنامي النفوذ الأوروبي، في سياق تراجعٍ تدريجيٍ للقوى البحرية الإسلامية، بفعل عوامل تراكمية تمثَّلت في الاستنزاف المستمر الناتج عن الحروب المتتالية، مقابل محدودية القدرة على التجديد ومواكبة التطورات العسكرية والتقنية التي أفرزتها الثورة الصناعية في أوروبا ما بعد عصر النهضة.

وقد أفضى هذا الاختلال في موازين القوى إلى انهيارٍ واسعٍ لمنظومة الأساطيل البحرية الإسلامية، وفي مقدّمتها الأسطولان العثماني والمصري في شرق المتوسط، والأسطول الجزائري في غربه. وقد تعمّق هذا التحوُّل عقب الحروب اليونانية (1821-1827م)، التي انتهت بمعركة نافارين (Navarin) بتاريخ 20 أكتوبر/ تشرين الأول 1827، والتي تُعدُّ في الأدبيات التاريخية محطةً مفصلية أعادت صياغة مسار الصراع العثماني - الأوروبي في حوض المتوسط، بما رجّح كفة القوى الأوروبية. وقد مهّد ذلك لمرحلة من التوسُّع الأوروبي المتسارع، سعت إلى فرض الأمر الواقع وبسط السيطرة والنفوذ على ضفتي المتوسط الشرقية والغربية، استجابةً للتحوُّلات السياسية والاقتصادية العميقة التي أفرزتها مرحلة ما بعد النهضة والثورة الصناعية، بما حملته من دينامية في البنية الاقتصادية الأوروبية.

وقد ترتَّب على هذه التحوُّلات الكبرى دخول العالم العربي في مسار تفكُّكٍ تدريجيٍّ خضع خلاله، عبر مراحل زمنية متعاقبة، لسيطرة قوى الاستعمار الغربي التي عملت على فرض أنماط الهيمنة السياسية والاستغلال الاقتصادي لمقدراته. وكانت الجزائر أول الأقطار العربية التي خضعت للاحتلال الفرنسي، كما شكَّلت إحدى أطول التجارب الاستعمارية من حيث الامتداد الزمني والكلفة البشرية والسياسية، في ظلِّ نظامٍ استيطاني[1] فرنسي امتدَّ من سنة 1830 إلى 1962، واجه خلاله الجزائريون أشكالًا متعدّدة من المقاومة والصمود في سبيل إنهاء هذا الوجود الاستعماري واستعادة السيادة الوطنية.

وقد تبلورت ذروة هذا المسار في مرحلة الثورة التحريرية (1954)، التي جسَّد جيلها طليعةً تاريخية حملت مشروع إنهاء الاستعمار وتجاوز مراحله السابقة. ويُنظر إلى هذا السياق ضمن قراءةٍ مقارنةٍ أوسع لمظاهر الاستعمار في العصر الحديث، بما في ذلك ما تمثِّله التجربة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وما يقابلها في سياقاتٍ أخرى مثل الاحتلال الاستيطاني لفلسطين بوصفه أحد تجليات استمرار أنماط الهيمنة الاستعمارية بأشكالٍ مختلفة في التاريخ المعاصر.

شكَّل الجيل الذي فجّر الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر/ تشرين الثاني 1954 منعطفًا حاسمًا في تاريخ الحركة الوطنية، إذ استطاع خلال 7 سنوات من الكفاح المسلح أن يبلور إحدى أبرز الثورات في القرن 20، بالنظر إلى ما اتسمت به من مرتكزات تنظيمية واستراتيجية جعلتها تتجاوز منطق الفعل العاطفي أو الارتجالي، نحو بناءٍ ثوريٍّ أكثر تركيبًا واحترافية، هدفه كسر منظومة الاستعمار وتحقيق الاستقلال، بما حمله من تطلعاتٍ إلى استعادة السيادة وبناء مشروع دولة حديثة امتدادًا لعمق تاريخي جعل من الجزائر قوة فاعلة في حوض البحر الأبيض المتوسط في مراحل سابقة.

وانطلاقًا من ذلك، تأتي هذه الورقة البحثية لتناول تجربة الثورة الجزائرية في تفكيك وإزالة بنية الاحتلال الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، ضمن سياق صدامٍ تاريخي بين إرادتين متقابلتين: إرادة استعمارية فرنسية تمسكت بالجزائر باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من المجال الفرنسي، وإرادة وطنية جزائرية سعت إلى إنهاء الوجود

الاستعماري واستعادة السيادة الوطنية مهما كانت الكلفة. ومن هذا التفاعل التصادمي، تتبلور الثورة الجزائرية بوصفها نموذجًا دالًا على دينامية حركات التحرُّر في مواجهة المنظومة الاستعمارية الحديثة، وما يقابلها من قدرة الشعوب على إنتاج فعلٍ مقاومٍ منظم.

وانطلاقًا من هذا الإطار، تتحدَّد إشكالية الدراسة في السؤال الآتي: كيف استطاعت الثورة الجزائرية تفكيك وإزالة الاحتلال الفرنسي رغم طبيعته الاستيطانية الصلبة؟ وما الخصائص التي مكّنتها من التحوُّل إلى نموذجٍ في انتصار الإرادة الوطنية وكسر منظومة السيطرة الاستعمارية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، تسعى هذه الورقة إلى تحليل التجربة الجزائرية بوصفها ظاهرة تحرُّرية مركّبة، من خلال مقاربة ثنائية تقوم من جهة على تفكيك منطق الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، ومن جهة ثانية على إبراز الخصائص السياسية والتنظيمية والاستراتيجية التي ميَّزت الثورة الجزائرية، بما يسمح بفهم آليات التفاعل بين بنية الاحتلال ومقومات المقاومة، في إطار قراءة تحليلية تسعى إلى استجلاء شروط تشكّل الفعل التحرُّري وفعاليته التاريخية.

أولًا – السياسة الاستيطانية للاحتلال الفرنسي في الجزائر

انتهجت فرنسا، منذ بدايات احتلالها للجزائر، سياسةً استيطانية تقوم على جلب المستوطنين الأوروبيين وتمكينهم من الأراضي والامتيازات الاقتصادية والإدارية، على حساب السكان الأصليين أصحاب الأرض. وقد اقترنت هذه السياسة بجملة من الإجراءات التي استهدفت تضييق الخناق على الجزائريين، من خلال التهجير القسري، ومصادرة الأملاك الزراعية، وإعادة توزيعها لفائدة الوافدين الاستيطانيين.

وفي سبيل ترسيخ هذا المشروع، وظّفت السلطات الاستعمارية الفرنسية مختلف الأدوات القانونية والإدارية والعسكرية، باعتباره الوسيلة المركزية لفرض الأمر الواقع وتثبيت الوجود الاستعماري في الجزائر. وقد عكست بعض التصريحات الصادرة عن القادة العسكريين الفرنسيين إدراكًا لأهمية هذا الخيار

الاستيطاني بوصفه ركيزة أساسية في تثبيت السيطرة الاستعمارية، ومنهم لويس دو لامورسير (1806-1865) (De Lamoricière) حينما قال: "الشيء الوحيد الذي يمكِّننا من تثبيت أقدامنا في الجزائر، هو إسكان هذه البلاد بمعمرين مسيحيين يتعاطون الزراعة"[2]، وكل ذلك لغاية ربطهم بالأرض، لأنها هي المقصد في المبتدأ والمنتهى. واللاّفت أن السياسة الاستيطانية التي اتبعتها فرنسا في الجزائر، تختلف تمامًا عن تلك المتبعة في إفريقيا الجنوبية وأميركا، كون الاستيطان في الجزائر كان مباشرًا، وخاضعًا من حيث التسيير والتشريع والتنظيم للبلد الأم فرنسا، بينما في البلدان الأخرى، كان يتمتَّع بالتسيير الذاتي المحلي، ومستقلًّا عن البلد الأم[3].

وعدَّ الجنرال برتران كلوزيل[4] (1772-1841) (Clauzel) المعين كقائد عام للجيش الفرنسي في الجزائر، خلفًا للجنرال دو بورمون (1773-1846) (De Bourmont)، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر وذلك يوم 2 سبتمبر/ أيلول 1830؛ المهندسَ الأول لسياسة الاستيطان في الجزائر، وإقناع السلطات الفرنسية بضرورة توسيعه، بقصد تثبيت الاحتلال كأمر واقع فيها[5]، مستفيدًا من مشاهداته في أمريكا الشمالية، وما رآه وخبره من سياسات التهجير التي قام بها الأوربيون هناك، فرأى هذا النموذج يمكن تطبيقه في الجزائر، وذلك من خلال[6]:

- مصادرة 1000 هكتار من أراضي الجزائريين، ومنحها للجنود الفرنسيين، تحت مسمّى "المزرعة النموذجية الإفريقية".

إصدار مرسوم يوم 8 سبتمبر/ أيلول 1830، ينصُّ على أن كل المرافق التي كانت مخصّصة للسلطة ما قبل الاحتلال، من منازل ومحلات ودكاكين وحدائق ومقرّات ومؤسسات، زيادة على الأوقاف المخصصة لمكة والمدينة، تصبح بموجب هذا القرار تابعة لصالح الإدارة الفرنسية في الجزائر[7]. وتبعًا لإجراءات هذه السياسة الاستيطانية المتخذة في الجزائر، أوفد البرلمان الفرنسي لجنة لدراسة واقع الجزائر خلال السنوات الثلاث الأولى من الاحتلال مع رفع تقرير لها في هذا الشأن. وقد لفت هذا الأخير الانتباه من خلال ما جاء فيه من توصية مهمّة مفادها ضرورة تثبيت الاحتلال الفرنسي في الجزائر، من خلال فتح أبواب الهجرة إليها أمام المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين، فكان ذلك ضوءًا أخضر لاندفاع الفرنسيين والأوروبيين نحو الجزائر[8].

ازداد النشاط الاستيطاني مع مجيء الجنرال بيجو (Bugeaud) الذي لخَّص السياسة الاستيطانية الفرنسية من خلال شعاره المعروف "بالنار والمحراث" (Par Le Feu et la charrue)، وهو يقصد: بالعنف والمستوطنين، نستطيع ترسيخ جذور بقاء فرنسا في الجزائر. وقد جسَّد ذلك من خلال قراره يوم 18 أبريل/ نيسان 1841، الذي شرَّع بموجبه مصادرة أراضي الجزائريين، بدعوى أن هؤلاء الفلاحين الجزائريين غير قادرين على خدمة تلك الأراضي وحمايتها. وقد أسَّس هذا القرار لما يعرف بنظام الامتلاك بالامتياز[9].

بموجب هذا القانون تمَّ إنشاء 7 قرى نموذجية للمستوطنين، جُلب إليها عدد كبير من الألمان والإيطاليين والإسبان، بعد حملة إغراءات عن طريق المنشورات داخل فرنسا وخارجها، من خلال وعود تسليم ما بين 4 إلى 12 هكتارًا لكل مستوطن، ومنح قروض استثمار لاقتناء العتاد الفلاحي[10]، لتتوالى بعدها ترسانة كبيرة من القوانين والمراسيم والإجراءات المتعلقة بفرض الاستيطان في كامل القطر الوطني، فوُضعت في عهد الجمهورية الفرنسية الثانية (1848–1851) خطة مدروسة لمضاعفة الاستيطان في الجزائر، قوامها استقطاب 200 ألف مستوطن، رُصد لها مبلغ 50 مليون فرنك لتنفيذها.

واللافت أن الخطط الاستيطانية الفرنسية في الجزائر كانت مقرونة بمصادرة أراضي الفلاحين الجزائريين دون مراعاة أدنى معايير العدالة الإنسانية، ويؤكِّد ذلك المرسوم الإمبراطوري الصادر من قبل نابليون الثالث (1808–1873) الذي أصدره يوم 31 ديسمبر/ كانون الأول 1864، وأمر بموجبه العمالات الثلاث (الجزائر – وهران – قسنطينة) بضرورة فتح مناطق جديدة للنشاط الاستيطاني الأوروبي، إما بالتبادل مع الأهالي أو بالشراء أو بالمصادرة من خلال نزع الملكية لفائدة المصلحة العمومية[11]، وقد وصل عدد المراكز الاستيطانية بعد عام 1871 إلى 144 مركزًا[12].

ويمكن حوصلة المشهد الاستيطاني في الجزائر ما بين 1841–1933 وفق الجدول التالي[13]:

الفترة الزمنية	المراكز والقرى الفلاحية	المساحة (بالهكتار)	عدد المستوطنين
1850–1830	150	427,604	63,497
1860–1851	91	184,255	103,322
1870–1861	23	73,211	129,898
1880–1871	207	233,369	195,418
1890–1881	89	161,661	267,672
1900–1891	80	99,353	364,257
1920–1901	217	248,289	633,149
1930–1921	71	70,418	657,641
المجموع	928	1.498.160	2.414.854

وُلاحظ أنّ هذه الإجراءات لم تقتصر على كونها ممارساتٍ ميدانية معزولة، بل ارتكزت على تأطيرٍ نظريٍّ واضح لدى عددٍ من المفكرين الأوروبيين الذين دعوا صراحةً إلى فرض الأمر الواقع، استنادًا إلى تصوُّراتٍ هرميةٍ تنظِّم العلاقة بين البشر والمجتمعات. وقد عبَّرت الأدبيات الاستعمارية عن هذه الرؤية من خلال تبرير الاستيلاء على الأراضي بدعوى إدماجها ضمن مسار "الحضارة". يقول المفكر الفرنسي كارل سيجر (Carl Siger): "عندما استولت الأجناس الأوروبية على الأراضي التي أهملها سكانها (الهمج) و(المتوحشون)، بادر المستوطنون إلى استصلاحها وإضافتها إلى مجرى (النهر البشري)، وهكذا واصل نهر الحضارة مساره عبر مجراه.. نحو النور"[14]. وفي ذات السياق يقول فيكتور هوغو (1802-1885) (Victor Hugo) المعروف بشاعر الحرية: "هيّا أيها الشعوب، استحوذوا على هذه الأرض، هيا انتزعوها ممَّن تأخذونها؟ إنها ليست ملكًا لأحد، خذوا الأرض هبة من الرب، فالرب هو الذي وهب الأرض للبشر، وإفريقيا هدية الرب لأوروبا"[15]. ثم يقول جاكوليو (-1837 1890) (Jacolliot): "إذا نظرنا للمسألة من الناحية الإنسانية، ومن جانب المصلحة الاجتماعية، نجد أن شعبًا يجد نفسه أمام مناطق شاسعة لا يستغلها أصحابها، لديه الحق في التوسُّع خارج حدوده وفتح طريق جديدة استعدادًا منه ليوم سيصبح فيه مهده ضيقًا. هذا هو الكفاح المخلص والحقيقي للحياة"[16].

كل هذا يجعلنا نخلص إلى أن الفعل الاحتلالي الفرنسي، ما هو إلا نتاج لفكر احتلالي شكَّل نظريته بناء على مرتكزات رؤى أقطاب الفكر الغربي في فهم الآخر،

والتي كانوا ينظرون فيها للإنسان الجزائري كنموذج في التجربة الاحتلالية الفرنسية – ومن ورائه المجتمع الشرقي عمومًا – بنظرة دونية، تصنفه في مرتبة أقل من مرتبة الإنسان الغربي، فهذا أرسطو في خلاصة دراسته لمجتمع الشرق، يخلص إلى أن الناس في المجتمع الشرقي عبيدٌ بطبيعتهم، والواجب عليهم الخضوع لأسيادهم وطاعتهم والقيام بالأعمال التي توكل إليهم[17]. وتبعه في هذه الرؤية نيكولو ميكيافلي (1469-1527) (Machiavilli) في كتابه "الأمير"، وهو يتحدَّث عن الدولة العثمانية كونها رمز قوة الشرق آنذاك[18]. وفي القرن 16 يأتي جان بودان (1530-1596) (Jean Bodin) فيقول: "من حق المنتصر السيطرة على المهزوم، بما في ذلك حقه في استعباده ومصادرة ممتلكاته"[19]. وفي القرن 18 كتب مونتيسكيو (Montesquieu) يقول: "الناس في الشرق ليسوا أي شيء"، وهو ما كان يبرِّر ويشرعن للغرب احتلال واغتصاب أراضي وخيرات الشرق[20]. ونحا بعده جورج فيلهلم هيغل (1770-1831) (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) ذات المنحى، وذلك في نظريته المثالية التي صنف فيها التاريخ على أساس مراحل متتابعة ظهرت المرحلة الأولى في الشرق، إلا أن الروح الحية في العالم انتقلت إلى الغرب أو المجتمع الغربي، وحكم في نهاية نظريته بأنه لا تاريخ للشرق؛ لأنه تاريخ موت وإعادة انحطاط[21]. وزعم كارل ماركس (1818-1883) (Karl Marx)، أن المجتمع الشرقي ليس له تاريخ وأن كل تاريخه مرتبط بالدخلاء، وأن مجتمعاتهم راكدة وعديمة المقاومة، وأن حضارة الشرق أدنى من حضارة الغرب[22].

ثانيًا – خصائص الثورة الجزائرية (1954–1962)

قال فرانز فانون (Frantz Fanon): "إن محو الاستعمار حدث عنيف دائمًا.. إنه نزال بين قوّتين متعارضتين كل منهما لها صفتها الخاصة"[23]، فإذا كان الاحتلال الفرنسي له طبيعته الخاصة القائمة على التمييز العنصري وسياسة المحو والإبادة الشاملة ضد المجتمع الجزائري، فكذلك للثورة الجزائرية ميزاتها الخاصة التي مكَّنتها في النهاية من حسم صراعها مع المحتل الفرنسي، رغم تجذّر هذا الأخير على أرض الواقع منذ عقود طويلة بلغت 132 عامًا.

هذه العقود تَعلم الشعب من مِحنها أن الانتصار للوطن والحرية لا يؤخذ بالمطالبة وإنما بالمغالبة، كما قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عام 1936: "إن الحقوق التي أخذت اغتصابًا، لا تسترجع إلا غلابا"[24]. تلك الحقوق المسلوبة شكَّلات أحدَ الدوافع العميقة للشعب الجزائري نحو انتهاج طريق الكفاح المسلح ابتداءً من الفاتح من نوفمبر/ تشرين الثاني 1954، بما أسفر عن صياغة ملحمةٍ ثوريةٍ كبرى.

وقد ارتبطت فاعلية هذه الملحمة بجملةٍ من الخصائص البنيوية التي منحتها قدرةً على تقليص الفوارق الموضوعية مع القوة الاستعمارية الفرنسية، وتمكينها من مواجهة غير متكافئة من حيث الإمكانات المادية، لكنها أكثر توازنًا على مستوى الإرادة والتنظيم.

وقد تأسَّس هذا التوازن النسبي على تضافر عنصرين أساسيين: أولًا، الإيمان العميق بعدالة القضية وما أفرزه من تعبئةٍ معنوية عالية. وثانيًا، إحكام التخطيط والتنظيم وتوظيف أدوات التدبير الاستراتيجي في إدارة الفعل الثوري. وإلى جانب ذلك، برزت خصائص أخرى شكَّلت في مجملها الإطار العام الذي حكم دينامية الثورة وأشكال تطورها، ويمكن إجمال أهمها في التالي:

1. التخطيط الاستراتيجي في التحضير للثورة

إنّ مقاربة الثورة الجزائرية بوصفها نموذجًا ضمن ثورات القرن 20 يستند إلى ما أظهرته من فاعليةٍ ثورية وقدرةٍ على مواجهة إحدى أقوى المنظومات الاستعمارية في تلك المرحلة، ممثّلة في فرنسا وامتداداتها الدولية في إطار حلف شمال الأطلسي. غير أنّ هذا الأداء لم يكن عرضيًّا أو وليد ظروفٍ آنية، بل تأسَّس على هندسةٍ استراتيجية محكمة، ارتكزت على تكامل الأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية، بما أتاح للثورة بناء منطقها الخاص في التنظيم والمواجهة والاستمرارية. وفي هذا السياق، يؤكِّد العقيد الطاهر زبيري (1929–2024) هذه الرؤية حين قال: "المُتتبع لتاريخ الجزائر، يُدرك مدى نضال شعبه وجيشه رغم صعوبة الظروف وعدم توفُّر الإمكانيات الضرورية، لكنّه رغم ذلك تمكَّن من

خوض أقوى الثورات في القرن 20، الثورة التي أحيت أمل التحرُّر في نفوس الشعوب المحتلة، فكانت بمثابة المفاجأة التي هزّت استقرار الاحتلال الفرنسي وأعطته درسًا في أن فسيل الاحتلال لا ينبت، وإن أنبت فإنه لا يزهر، لأنه غريب عن ترب الشعوب، ويبقى كذلك وإن طال. كما أعطت درسا للاحتلال في كل مكان، بأنّ تقرير مصير الشعوب حق يؤخذ بالقوة مهما كانت الظروف، والقوة هنا تشمل قوّة الأفكار والتخطيط الاستراتيجي قبل أن تشمل قوة السلاح"[25]. وقد برز ذلك في نموذج الثورة الجزائرية من خلال تأسيس جبهة التحرير الوطني.

أ- تأسيس جبهة التحرير الوطني.. عنوان وحيد للثورة الجزائرية

تجسّدت تجربة الشعب الجزائري الطويلة في النضال المسلح ضد الاستعمار الفرنسي في قناعة راسخة لدى مفجّري الثورة مفادها أنّ استمرار الوجود الفرنسي في الجزائر لأزيد من قرنٍ من الزمن كان يرتبط، إلى حدٍّ كبير، بغياب وحدةٍ ثوريةٍ شاملة تُوحّد الفعل الوطني. وفي هذا السياق، أثارت الأزمة السياسية التي عرفها حزب الشعب الجزائري في مرحلة حسّاسة من تاريخ المنطقة المغاربية، ولا سيما في أعقاب اندلاع ثورتي المغرب وتونس؛ مخاوف متزايدة من تعميق الانقسام الداخلي وإضعاف القدرة على مواكبة اللحظة الثورية الإقليمية.

وقد دفعت هذه المعطيات بعض القيادات إلى السعي الحثيث لرأب الصدع وتجاوز الخلافات بين مختلف الأطراف، بغرض تهيئة الشروط السياسية والتنظيمية للانتقال إلى مرحلة المواجهة الشاملة مع الاستعمار. غير أنّ هذه المساعي لم تُكلّل بالنجاح، بفعل تصلّب مواقف الجيل القديم وعجزه عن تجاوز منطق التنازع الداخلي، وتقديم حسابات الزعامة والهاجس المرتبط بتكرار أحداث 8 مايو/ أيار 1945 على حساب خيار المواجهة الثورية الحاسمة.

ومن رحم هذه الأزمة داخل حزب الشعب، برزت ملامح توجُّه جديد لدى جيلٍ شابٍّ مناضل، رأى أنّ استمرار هيمنة البنى التنظيمية التقليدية وتشتّت الفعل الوطني من شأنه أن يعيق إمكانية تحقيق تحوُّل ثوري شامل. وبناءً على ذلك، اتجه هذا الجيل إلى تبنّي خيار القطيعة التنظيمية مع حالة التعدُّد والانقسام، عبر الدعوة

إلى إنشاء إطارٍ جامع يوحّد الفعل الوطني ويذيب الخلافات الداخلية، بحيث ينحصر الهدف في مواجهة الاستعمار وتحرير الوطن. وقد تُوّج هذا التوجُّه بإعلان تأسيس جبهة التحرير الوطني بوصفها إطارًا سياسيًّا موحدًا لقيادة الكفاح المسلح وتمثيل الشعب الجزائري في نضاله التحرُّري.

ب- القيادة الجماعية للثورة واللامركزية في تسيير شؤونها

اتفق مفجرو الثورة خلال اللقاءات التحضيرية لها، على أن تكون قيادة الثورة مبنية على فلسفة القيادة الجماعية، بعيدا عن الزعيم القائد، بناء على أن تجارب المقاومات الشعبية طيلة فترة الاحتلال قد علمتهم أن فشل تلك المقاومات في الانتصار على المحتل، وتحقيق حلم الاستقلال، كان من بين أسبابه، أنها قامت على أساس الزعيم الأوحد أو الشيخ المقاوم، فلما يستشهد ذلك الشيخ أو يعتقل، تنتهي المقاومة دون استمرارية. والنماذج في هذا الباب كثيرة، منها مقاومات الأمير عبد القادر (1830-1847)، والزعاطشة (1849)، وفاطمة لالة نسومر (1854-1857)، وأولاد سيدي الشيخ (1864-1867)، والشيخ المقراني (1871)، والشيخ بوعمامة (1881-1908) وغيرها من المقاومات الشعبية، في مقابل أن الاحتلال الفرنسي قد خبِر أن الشعب الجزائري دائمًا ما تكون ثوراته محلية ومبنية على فلسفة الزعيم الثوري، لذلك كان يراهن في استراتيجية مجابهتها، على تصفية الرأس القائد في كل مرة، فتنتهي المقاومة.

بناء على هذه التجارب الماضية، اتفق مفجرو الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر/ تشرين الثاني 1954، على مبدأ القيادة الجماعية بدل القائد الأوحد، حتى يضمنوا استمرارية الثورة من خلال استمرار تجدد القيادة في كل حين، وفق مبدأ "القائد يخلفه قائد".

وفي ذات السياق، كانت فلسفة الثورة الجزائرية تعتمد مبدأ التنظيم اللامركزي في تسيير شؤون الثورة، وذلك من خلال منح كل المناطق حرية التصرُّف في إدارة شؤونها، نظرًا لصعوبة التنسيق واتساع رقعة النشاط الثوري، بحيث قسمت الجزائر إلى خمس مناطق، وتحوَّلت بعد مؤتمر الصومام يوم 20 أغسطس/ آب 1956 إلى

ستِّ ولايات، بحيث أضيفت الولاية السادسة وهي ولاية الصحراء. زد على ذلك، أن مسألة تنظيم جيش التحرير الوطني كانت تشكِّل أولوية قصوى في استراتيجية جبهة التحرير الوطني حتى يواكب منظومة الجيوش المعاصرة من حيث سلم القيادة وتكوين الأفواج والفرق والفيالق، وقد برز ذلك جليًّا من خلال مخرجات مؤتمر الصومام الذي بعث العمل العسكري وفقًا لأسس جديدة، في ظلِّ ظروف مواتية ومنظمة، خاصة بعدما أعادت الولايات الست تنظيم صفوفها من نظام الأفواج إلى نظام الفيالق والكتائب والفصائل، وكذا الوحدات الخاصة "الكوماندوز"، وكل ذلك أسهم في برمجة عمليات عسكرية موسعة، بمثابة حرب استنزاف حقيقية ضد العدو، من خلال تصاعد منحنى العمليات العسكرية عبر كامل مناطق الوطن[26].

2. ربط الجبهة الشعبية بالحسم الثوري الاستراتيجي

المتابع للحظات الأولى لاندلاع الثورة، يدرك أن الثوار لم يملكوا جيشًا بمفهوم الجيش العصري المتكوّن من المشاة والبحرية والفرق الجوية، إلى جانب بنية تحتية في السلاح والعتاد والتمكُّن من الأرض وغير ذلك، في مقابل جيش فرنسي محاط بكل عوامل القوة، إذ حشد لأجل مواجهة الثورة الجزائرية أكبر عدد من قواته العسكرية. وقد اعترف الجنرال ديغول بأن الجزائر كانت "تحتجز جيشنا وطيراننا وأسطولنا"، وزادت على ذلك بسحب فرقها العسكرية من وحدات الحلف الأطلسي للزج بها في الميدان الجزائري، وقد أثّر ذلك على قوة الحلف نفسه، بدليل تصريح الجنرال الأميركي راد فورد (Rad Ford) أمام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الأميركي في 16 مايو/ أيار 1956، الذي جاء فيه: "إن نقل الجيوش المرابطة في أوروبا إلى الجزائر ضعَّف قوى منظمة ميثاق الأطلسي". وقد قارنت جريدة "فرانكفورت زيتونغ" (Frankfurt Zeitung) الألمانية الغربية في عددها الصادر يوم 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 1957، بين القوات المتحاربة في الجزائر، فأكَّدت أن "معدل القوات المتحاربة هو 800 جندي فرنسي مقابل مقاوم جزائري واحد"[27]، وبترسانة هائلة من السلاح متنوّعة بين البر والبحر والجو. وتكفي الإشارة إلى ما أوردته جريدة لوموند يوم 25

فبراير/ شباط 1958 من أن "القوات الجوية الفرنسية تستخدم 750 طائرة و100 مروحية"، وأن هذه القوات الجوية كانت تقوم بنحو 10 آلاف طلعة شهريًّا تستغرق 2000 ساعة طيران، ناهيك عن هبة الحلف الأطلسي لمساندة جيش الاحتلال في القضاء على ثورة التحرير، إذ تلقَّى الفرنسيون منذ بداية الثورة حتى آخر أيامها مساندة ومساعدة مطلقة وغير مشروطة سياسيًّا وعسكريًّا وماليًّا من حلفائهم، فعلى الصعيد العسكري سمح لفرنسا بسحب قواتها من الحلف الأطلسي منذ صيف 1955، وقد اعترف رئيس الوزراء الفرنسي جي مولي (1905-1975) (Guy Mollet) في 17 أبريل/ نيسان 1956 بهذا الدعم عندما قال: "إنّ مجموع القوى الموضوعة تحت تصرُّف منظمة الحلف الأطلسي تشمل في نطاق أعمالها بلدان شمال إفريقيا، وإن جميع حلفائنا أدركوا هذه الحقيقة كلّ الإدراك، وقد تلقينا التشجيعات حول موقفنا بالجزائر من الجنرال ألفريد غروينثر (1899–1983) القائد العام لقوات الحلف الأطلسي (1953–1956)، ومن السفير الأميركي في باريس المستر دوغلاس ديلون (Douglas Dillon)، ومن سكرتير مجلس الحلف الأوروبي، ومن السفير البريطاني السير غلادوين جب (Gladwyn Jebb). ولم يحاول حلفاء فرنسا التستُّر على هذه المساعدات، فقد صرَّح رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان (Harold Macmillan)، في نوفمبر/ تشرين الثاني 1957 قائلًا: "إننا لا نستطيع أن نترك فرنسا تغرق في هذه الباخرة لأنها تضمّنا جميعًا"، وصرَّح الجنرال الأميركي باي (Bay) في 13 أبريل/ نيسان 1956 بأن "الولايات المتحدة الأمريكية ستقدِّم 300 طائرة من نوع ط6، و60 طائرة ب26". كما تلقت فرنسا من حلفائها مساعداتٍ مالية منها السري، ومنها العلني، فمثلا قدمت الولايات المتحدة الأمريكية لفرنسا بين عامي 1954 و1957 إعانة مالية قيمتها 806 مليارات فرنك. أما في المحافل الدولية، فقد كانت تلك الدول بما تمثِّله من ثقل دبلوماسي وقوة اقتصادية، وضغط عسكري، تقف إلى جانب فرنسا دائمًا[28]. يقابل هذا المشهد العظيم من القوة؛ ثورة جزائرية انطلقت بنحو 1200 جندي، لا يملكون إلا 400 قطعة من السلاح المخصص أصلا للصيد لا للحرب، ولم يتعدَّ تعداد الجيش الجزائري في ذروة ثورته 40 ألف جندي.

كان رهان الثورة التحريرية من خلال لجنة الخمسة في صيف 1954، يقوم على أساس أن معادلة نجاح الثورة ورقتُها البارزة هي الشعب الجزائري، ولم يكن هذا من

باب التمني، بل لأنهم أدركوا ذلك من خبرة التجارب السابقة التي مرّت على الشعب من خلال المقاومات الشعبية التي فشلت في طرد المحتل، بسبب عدم شموليتها لكل الشعب، لذلك رأوا أن خيار النجاح الأكبر هو احتضان الشعب للثورة، وقد أكَّد ذلك العربي بن مهيدي حينما قال: "ألقوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب.. إن انتصرنا تحرَّرنا وإن هُزمنا فقد نلنا شرف المحاولة". وأكَّد ذلك القائد ديدوش مراد في جوابه على سؤال خلال اجتماع 22، عن نقص الوسائل المادية، فقال: "إذا كنت تملك رصاصتين لبندقيتك، فهما كافيتان لتستولي على سلاح عدوك.. يجب أن نعطي الانطلاقة، وإذا ما استشهدنا فسيخلفنا آخرون يواصلون السير بالثورة قدما نحو الاستقلال.. يجب أن نشعل الفتيلة، ومن أجل هذا لسنا بحاجة إلى وسائل مادية ضخمة". وفي ذات السياق يقول محمد بوضياف إن "أول نوفمبر نشأ أساسا على فكرة الاعتماد على الشعب"[29]، لذلك فإن احتضان الشعب للثورة كان التحدِّي الأكبر أمام رجال الثورة، وهو صمام ضمان نجاح الثورة.

كل هذا يفند ادعاءات بعض الدراسات التي تشير إلى أن الثورة انطلقت بتسرع دون تهيئة داخلية وخارجية، لكن تصريحات قادة الثورة، والعمل التنظيمي الذي قاموا به خصوصا ربط نجاح الثورة باحتضان الشعب لها، يبين أن الأمور كانت مواتية لتفجير الثورة، وأكَّد ذلك المجاهد أمين الدباغين (1917–2003)، الذي أشار إلى أنه مع منتصف شهر أغسطس/ آب 1954، أصبحت الظروف الداخلية والخارجية مواتية لإعلان الثورة المسلحة، وأن الجماهير كانت مستعدة للالتفاف حولها[30]. وفي ذات السياق، يذكر الطيب بولحروف أن: "الإحساس السائد عشية انطلاق اجتماع المركزين، أن من يطلق الرصاصة الأولى سيكتب له الفوز بقيادة بدون منازع"[31]، أما مصطفى الأشرف فيذكر أن الاستعداد والتحفز بلغ قبيل الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني مبلغًا كبيرًا إلى درجة أن بعض المناضلين فهموا تعليمات الاستعداد للعمل على أنها أوامر نافذة تستدعي طلاق الحياة على الفور بترك العائلات والديار[32].

كل ما ذكرناه يظهر أن قادة الثورة لما فجروها، لم يكن همهم الانتصار في المعارك، بقدر ما كانوا مهتمين بمدى احتضان الشعب للثورة، وشكَّل هذا الأمر الرهان الأكبر لهم في مرحلة ما بعد اندلاع الثورة. وبعد مرور الوقت، رأوا أن

الرهان قد نجح، وأن الشعب احتضن ثورته بمثل ما حلموا، وأن احتضانه هذا كان حاسما في النهاية، بدليل أن الشعب هبّ هبة واحدة مع ثورته، والكل بات له دور فيها، من الطفل إلى المرأة إلى كل أطياف الشعب، كل بما يستطيع، وزادها بالتحامه الجماعي مع الثورة من خلال محطات كثيرة أبرزها:

- أحداث 20 أغسطس/ آب 1955 المعروفة بانتفاضة الشمال القسنطيني.
- مظاهرات 11 ديسمبر/ كانون الأول 1960، وهي من أكثر المظاهرات حسما في الجزائر، وقد توسعت عبر جميع المدن، خاصة في العاصمة، إذ أبلغت صوتها عاليًا لفرنسا، ولقائدها شارل ديغول شخصيا؛ بأن الشعب ملتحم مع ثورته، ليثبت للعدو أن الثورة تعدى تأثيرها الجبال ليمتد إلى المدن، وأن باستطاعتها تحريك الجماهير كيفما شاءت، لأنها جزء أصيل وفاعل في الثورة[33].
- مظاهرات 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1961 المشهودة في باريس، التي خرج فيها جزائريو المهجر وانتشروا في مختلف الشوارع الرئيسية للعاصمة الفرنسية، ثم توجَّهوا دفعة واحدة نحو ساحة الأوبرا باعتبارها من الأماكن الاستراتيجية في باريس و"القلب النابض بالحركة ليلًا ونهارًا"، لكن القوات الفرنسية تصدت لهم بعنف وارتكبت بحقهم جرائم إبادة، يشهد عليها نهر السين، الذي كانت الشرطة الفرنسية تكبل الجزائريين وترميهم فيه، زيادة على الاعتقالات الشاملة. ورغم خروجها في مشهد سلمي نادر، ورغم الجرائم الفرنسية المرتكبة بحقها، فإن هذه المظاهرات خرجت إلى الرأي العام الفرنسي والدولي بصورة سوداوية لفرنسا صاحبة حقوق الإنسان والحرية، وأصبحت القضية الجزائرية بعد هذه المظاهرات محط أنظار مختلف الدول الأوروبية حتى الرأي العام الفرنسي الذي أثار جدلًا كبيرًا حول الأساليب الوحشية التي اتبعتها الشرطة أثناء المظاهرات[34].
- مظاهرات 27 فبراير/ شباط 1962 في ورقلة وتقرت، وهي من بين أبرز مظاهرات الجنوب التي قام بها الشعب لدعم الثورة والتحامها معها

ورفضها لتجزئة الجزائر وفصل الصحراء التي كانت فرنسا تريد أن تجسِّدها من خلال اتفاقيات إيفيان (Évian)، إذ تأكَّد الاحتلال أنه لا مجال لإثارة موضوع فصل الصحراء الجزائرية عن باقي أجزاء الوطن الأم بعدما لاحظ بأم عينيه أن المواطنين يمتلكون من الإرادة والعزيمة والإصرار ما يجعلهم قادرين على التصدي بقوة لتلك المخططات الاستعمارية الدنيئة[35].

3. فتح جبهة باريس للضغط على المحتل

اتفقت المصادر التاريخية على أن النشاط الواسع والمنظم لمناضلي فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، شكَّل فصلًا بارزًا من فصول المقاومة الوطنية لكل أشكال التعسف والقهر الاحتلالي، من خلال التعبئة الشعبية للمهاجرين الجزائريين وحتى المغاربة في فرنسا لفتح جبهة النضال في المهجر بتكثيف أنشطة الضغط الداخلي على المحتل الفرنسي في قلب جبهته الداخلية، لتشمل كل الجوانب المادية والعسكرية والإعلامية والدبلوماسية والثقافية[36]، حتى صارت الساحة الفرنسية تمثِّل المنطقة السابعة في العمليات العسكرية الفدائية للثورة الجزائرية، والتي مسَّت المنشآت الاقتصادية والمؤسسات الحيوية التي تؤلم المحتل الفرنسي في عقر داره، فضلًا عن الإضرابات ومقاطعة المنتجات والبضائع الفرنسية وغيرها من الأساليب التي تؤثِّر وتضغط على المحتل لتدفعه في النهاية إلى الخضوع لإرادة الشعب الجزائري في نيل حقوقه كاملة.

ويمكن أن نبرز النشاط الفدائي للثورة الجزائرية في الداخل الفرنسي من خلال شهادات الفرنسيين أنفسهم، نذكر منها ما عبَّر عنه محضر غرفة الاتهام لمحكمة باريس عند انعقاد جلسة الاستئناف في محاكمة المنظمة الخاصة، إذ قال: "خلال ليلة 25 أغسطس/ آب 1958، نفَّذت جبهة التحرير الوطني عددًا كبيرًا من العمليات الإجرامية على التراب الفرنسي، من خلال هجومها على مبانٍ عسكرية (مصانع الخرطوش، مستودعات المعدات العسكرية)، معامل تكرير النفط، ومراكز الاتصالات والمطارات والسكك الحديدية ومنشآت الغاز، زيادة على استهداف شخصيات سامية وعسكريين

ورجال الشرطة"[37]. ومن بين هذه العمليات الفدائية ما حدث يوم 20 سبتمبر/ أيلول 1958، إذ أغلقت فرنسا جميع الموانئ العسكرية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط في وجه المدنيين، واتخذت إجراءات استثنائية بسبب محاولة فدائية جزائرية لنسف السفن الحربية بميناء طولون، لأن حراس السواحل شاهدوا رجال ضفادع جزائريين قرب سفينة مدرعة وغواصة. وفي الليلة ذاتها هاجم الثوار الجزائريون 6 دوريات في ضواحي مدن فرنسية، وأحرقوا 4 مستودعات[38].

ولم يقتصر دور جبهة الجالية على العمل الفدائي والضغط المادي على الاحتلال داخليًّا فحسب، إنما استطاعوا في مدة وجيزة ربط علاقات مع المنظمات والهيئات الفرنسية والدولية للتعريف بالقضية الجزائرية وشرعية نضالها، في ظلِّ عالم ينادي بحقِّ الشعوب في تقرير مصيرها. كما استطاعوا بكل ذلك النضال المتنوّع على التراب الفرنسي، أن يعرِّفوا الفرنسيين بحقيقة ما يقع في الجزائر، وما يعانيه الشعب الجزائري بسبب الاحتلال، ما جعل المجتمع الفرنسي ينقسم حول القضية، ودفعوا بتشكيل رأي عام فرنسي تقوده النخب، وتضغط لصالح إنقاذ فرنسا من أهوال المعاناة داخليًّا وخارجيًّا بسبب القضية الجزائرية التي تحوَّلت إلى كابوس يقض مضجع الفرنسيين[39].

4. أسلوب حرب العصابات والعمل الفدائي والاستخباراتي

لم تكن الفروقات المادية الكبيرة بين الجيشين الجزائري والفرنسي، هي الفيصل في حسم المعركة المسلحة على أرض الميدان، لأن الحسم العسكري تحكّمت فيه عوامل وظروف أخرى، أحسن جيش التحرير الوطني تفعيلها لصالحه، مغيرا بذلك موازين القوى على أرض الميدان، خاصة حينما فرض منطقه في ميدان المعركة، القائمَ أساسا على أسلوب حرب العصابات[40] والعمل الفدائي داخل المدن، كونه الأسلوب الأنجع والأمثل للاستراتيجية القتالية لجيش التحرير الوطني[41]، في ظلِّ معركة غير متكافئة من حيث موازين القوى العسكرية، إذ أصبح الجندي الجزائري متفوِّقًا على الجندي الفرنسي خلال المواجهة المباشرة بينهما، وروحه المعنوية كانت أعلى مما كان عليه الجندي الفرنسي، وهذا بيان لذلك:

أ- أسلوب حرب العصابات

كانت أفواج جيش التحرير الوطني في ظلِّ حرب العصابات، تنقسم إلى مجموعات صغيرة مجهّزة بأسلحة خفيفة، مما يجعلها تمتاز بالفاعلية والسرعة والسهولة في التنقُّل، وكانت هذه المجموعات الصغيرة من خلال عملياتها العسكرية الخاطفة، تبرهن على وجود الثورة عبر أنحاء القطر الجزائري[42]، وهو ما عبَّر عنه عبان رمضان بالقول: "الأفواج الصغيرة لجيش التحرير الوطني غير مسلحة تسليحًا جيدًا، وبعضها بعيد عن البعض الآخر، قد وضعت القوات الاستعمارية ليس في خيبة وفشل، بل كانت وصمة عار على جيشها، واليوم نراقب كل التراب الوطني وجنودنا مسيطرون في وهران والعاصمة وقسنطينة، وغايتنا تتحقَّق"[43].

ولكن ينبغي التأكيد على أن أسلوب حرب العصابات لا يمكن أن ينجح في حسم المعارك على الميدان إلا في ظلِّ:

- جيش متمرِّس ومتدرِّب على أسلوب حرب العصابات، ويتميَّز باليقظة وسرعة التنفيذ وقوة القراءة لميدان المعركة، وهو ما دأبت عليه قيادات جيش التحرير الوطني، من خلال القيام بإعداد المقاتلين الذين باستطاعتهم خوض حرب ضد عدو متفوِّق من كل النواحي التنظيمية واللوجستية والعسكرية، ومن ذلك الالتزام بثلاثة مبادئ أساسية يواجه بها الجيش الفرنسي، وهي الانتشار، واحتلال الأرض، والحركة الدائمة في الحيز الجغرافي المحدد.
- عكفت قيادة جيش التحرير الوطني على تدريب المقاتلين الجزائريين على حرب العصابات والكمائن، وهذا من خلال تطبيق المبادئ التي تعلمها نظريا، ثم المعرفة التامة بخصوصيات المجال الجغرافي والوسط البشري الذي يقاتل فيه، وفي نفس الوقت الإحاطة بكل المعلومات التي تخصُّ تمركز وتحرُّكات القوات الفرنسية[44].
- نظام تمويني مرن يتحرَّك مع تحرُّك الجيش، من خلال ابتكار آليات لنشر مراكز التموين لتستجيب لاحتياجات عناصر جيش التحرير الوطني[45]،

وذلك بإنشاء عدة مصالح ملحقة به وتتمثَّل في "مصلحة الطب ومراكز الاستشفاء والعلاج والتكوين ومصلحة تصليح الأسلحة، ومصلحة خياطة الملابس، زيادة على مصلحة الأشغال لبناء المراكز والمخابئ، ومصلحة الدرك والشرطة والمجالس الشعبية بالدواوير (القرى)"[46].

وكانت استراتيجية جيش التحرير الوطني المعتمدة على حرب العصابات، ترهق قدرات القوات الفرنسية، لأنه هو الذي يختار المكان والزمان والأسلوب المناسب، أما الجيش الفرنسي فكان يستعدُّ للمعركة ولا تقع، فتنهك قواته دون الحصول على نتيجة، وقد يجد نفسه مضطرًّا لخوض معركة غير مستعد لها ولم يكن يتوقَّعها. وكان يزيد من عناء الجيش الفرنسي اختفاء الوحدات الصغيرة لجيش التحرير الوطني، ثم ظهورها فجأة[47]. وهكذا استنزف الجيش الفرنسي وأنهكت قواته، رغم أنه يملك كل وسائل القوة، لكنها لم تفده في ظلِّ هذا النوع من الحروب.

ب- توظيف العمل الفدائي لخدمة الثورة

كان العمل الفدائي معروفا في أجندة الثورة التحريرية، يُلجأ إليه في حالات خاصة، إذ يكلف الأشخاص أو المجموعات بضرب الأهداف العسكرية الاستراتيجية للعدو أو إعدام الخونة ورجال الشرطة وغلاة الفرنسيين. وعُرف التنظيم الفدائي بطابع السرية الدقيق الذي يحفظ استمرارية نشاطه، فكان لكل قطاع في المدينة مسؤول يساعده اثنان أو أكثر، ولكل مساعد فوجان أو خليتان، وتضم كل خلية عضوين ومسؤولا، وتحتفظ كل خلية بسرها، ولا يمكن أن تعرف أي شيء عن بقية الخلايا، وهذا التنظيم كان خاصا بالمدن الكبرى، في حين أن تنظيم الفداء بالمدن الصغرى والقرى كان بسيطا، حيث يكلف المسبّل أو الجندي بتنفيذ العملية الفدائية الدقيقة والصعود إلى الجبل[48]، فتميَّزت بذلك المعارك في المدن، خاصة مدينة الجزائر، بخصوصية منفردة، من خلال الاعتماد على العمل الفدائي لتنفيذ عمليات دقيقة تستهدف معاقبة الخونة وردع الغلاة من المستوطنين الذين ظنوا أنهم في أحيائهم الراقية بعيدين عن جحيم الحرب. كما يقوم العمل الفدائي

على ضرب المصالح الحيوية للعدو واستدراجه إلى المدن بقصد استنزافه وتخفيف الضغط على المجاهدين في الأرياف والجبال.

ج- معركة جيش التحرير الوطني الاستخباراتية

أدركت قيادة جيش التحرير الوطني أن خوضها معركة التحرير في مواجهة قوة فرنسا ومن ورائها الحلف الأطلسي، لن يكون بالأمر الهين، وهو ما دفعها إلى دراسة شاملة للوضع، فأدركت أن جيش التحرير وجبهته السياسية يواجههما تحدٍّ أكبر من تحدِّي معركة السلاح، والمتمثّل في المعركة الاستخباراتية، التي رأت أنها جبهة ينبغي أن تواكب معركة السلاح الميدانية، وذلك من خلال ربط قادة الثورة في مختلف المستويات وتزويدهم بالمعلومات اللازمة. وكان العمل في البداية بسيطا، يتمُّ من خلال دور المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي، وما يقدِّمونه من معلومات سرية تخدم تحرُّكات وأداء جيش التحرير الوطني في الميدان، أو من خلال التقاط البرقيات المرسلة من طرف الوحدات العسكرية الفرنسية، واستعمالها في فهم تحرُّكات العدو والتعامل معه ميدانيا من خلالها. وبعد تفطن الجيش الفرنسي لمثل هذه الأساليب، اضطر لتشفير البرقيات العسكرية المرسلة، ما أجبر قيادات جيش التحرير الوطني، وفي مقدّمتهم قائد الولاية الخامسة عبد الحفيظ بوصوف (1926-1980)، إلى استحداث وحدة لفك رموز تشفير البرقيات، ابتداء من عام 1956، وذلك من خلال تأسيس مركزين للتنصت وتفكيك رموز الشفرة الفرنسية، في الناحيتين الغربية والشرقية بداية من يناير/ كانون الثاني 1957، سيعطيان دفعة قوية لثورة التحرير لتطوير ما يعرف بسلاح الإشارة[49]. وقد تمَّ الاعتماد فيهما على نظام التشفير الكامل، القائم على فك الشفرة انطلاقا من بطاقات يتمُّ تجهيزها مسبقًا، مع وضع بطاقات تشفير احتياطية تستعمل في حال حدوث تسرُّب والتقاط من طرف القوات الفرنسية كما حدث عام 1958[50].

ومن أجل نجاح هذا التوجُّه الثوري، أنشأ العقيد عبد الحفيظ بوصوف في 1956، مدرسة لتكوين الإطارات المتخصصة في العمل التنظيمي والاستخباراتي[51]، مع تصاعد وتيرة المواجهة واتساع النشاط الاستخباراتي الفرنسي، الذي اضطلع بدورٍ

فعّال في تتبّع قيادات الثورة ومحاولة إضعاف جهاز جيش التحرير الوطني وامتداداته السياسية في الخارج، فبرزت الحاجة إلى تطوير آليات دفاعية مضادة.

دفعت هذه التحوُّلات قيادة جبهة التحرير الوطني إلى الانخراط في "معركة التخابر"، عبر إنشاء جهاز استخباراتي جزائري مكلف بحماية الثورة وقياداتها، ولا سيما من شبكات التجسس الأجنبية التي استهدفت استكشاف توجُّهات **جبهة التحرير الوطني وجيشها**. وتمثَّلت مهام هذا الجهاز في جمع المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بتحرُّكات العدو، وتحليلها وإحالتها إلى هيئة الأركان العامة، بما أتاح تحسين القدرة على الاستباق العملياتي ورصد التحرُّكات العسكرية الفرنسية.

وإلى جانب وظيفته الإخبارية، اضطلع الجهاز بدورٍ محوري في مجال الاستخبارات المضادة، من خلال مراقبة التنظيمات المعادية للثورة ورصد العناصر المشبوهة، وإفشال الأنشطة الاستخباراتية الفرنسية. وفي هذا السياق، يشير بعض العاملين السابقين في الجهاز، ومنهم الدبلوماسي السابق محمد مقراني، إلى أن الجهاز تمكَّن من اختراق مستويات متقدِّمة من دوائر صنع القرار الفرنسية، حيث كانت تُنقل تقارير حول اجتماعات رسمية رفيعة، بما فيها اجتماعات قصر الإليزيه ومداولات الحكومة، إلى قيادة الثورة في وقت وجيز بعد انعقادها. كما يروي أن فرنسا أقامت ملهى في الصحراء المصرية، في منطقة العلمين، وفق ما أخبره به أحد ضباط المالغ (Malg)[52]، وجاءت بفرنسيات إلى هذا الملهى على أساس إنشاء شبكة مهمتها تصفية أعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المقيمين في مصر، لكن رجالات جهاز الاستخبارات الجزائرية تغلغلوا في الملهى وتمكَّنوا من إفشال مخططاته وتصفية العملاء الذين أوكلت لهم مهمة اغتيال أعضاء الحكومة المؤقتة[53].

إن إنجازات جهاز الاتصالات والمخابرات في خدمة الثورة الجزائرية تُعدُّ انتصارًا كبيرًا في معركة الاستخبارات على الجيش الفرنسي على جميع الأصعدة، سواء في الداخل أم الخارج، وكان لذلك الجهاز الدور الفاعل في معركة المفاوضات التي انتهت بفرض الثورة شرط الاستقلال الكامل غير المنقوص.

5. الحرب النفسية المضادة

كان لاستراتيجية الحرب النفسية ضد القوات الفرنسية بالغ الأثر ميدانيًّا، فقد تسبَّبت في وقوع عدد كبير من الضحايا في صفوف الجيش الفرنسي، سواء خلال المعارك أم أثناء تنفيذ العمليات الفدائية، إذ سجَّلت الدراسات الفرنسية وفاة حوالي 1100 مجند فرنسي نتيجة الأمراض العقلية وحالات الانتحار خلال حرب التحرير الوطني، زيادة على أن 5٪ من قتلى الحرب قضوا نتيجة أخطاء أو ما يعرف بالنيران الصديقة، وحالات أخرى تمثَّلت في مفقودي الحرب[54]. وفي هذا الصدد ذكر فرانز فانون أنه: "خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1956، ظهرت حالات جنون عديدة في وسط رجال البوليس الفرنسي، كما صاحبتها موجة تفكُّك عائلي كبيرة وسط المستوطنين من خلال حالات تهديد الزوجات بالموت أو تعذيب الأطفال وحالات الأرق والكابوس، أو التفكير في الانتحار، ناهيك عن الأخطاء المهنية والاشتباك بين الزملاء والإهمال في العمل وتدهور طاقة النشاط وغير ذلك من الحالات، مما استلزم تدخل العلاج النفسي في الجزائر أو نقل كثير منهم للعلاج في فرنسا"[55]. ولكن اللافت أن كثيرًا من حالات فرط التعصب في صفوف الجنود والضباط الفرنسيين التي كانت تأتي للمعالجة عند فرانز فانون في مستشفى مدينة البليدة، لم تكن نتيجة الحرب النفسية المضادة، وإنما كانت نتيجة عامل فرط التعذيب في حقِّ الجزائريين، حتى إن (فانون) أورد قصة تلخص مشهد الاضطراب الفرنسي أمام الثورة، حينما جاءه أحد رجال الجيش الفرنسي وطلب منه مساعدته على مواصلة أعمال التعذيب ضد الوطنيين الجزائريين دون أن يتعرض لوخز الضمير ودون أن تنشأ لديه أي مشكلات بشأن التصرُّف، وأن يحافظ أثناء ذلك على رباطة الجأش[56].

لقد تميَّز أداء المقاتل الجزائري في الميدان بالشجاعة ورباطة الجأش، وكان مثار إعجاب عدوه، ففي كثير من المعارك كان قائد الجيش الفرنسي بعد انجلاء المعركة يأمر الجنود بالاصطفاف وأداء التحية للجنود الجزائريين الشهداء اعترافا ببسالتهم البطولية. وقد أشاد أحد جنرالات بالجندي الجزائري: فهو صبور وبسيط الطعام، يكتفي ببعض حبات من التمر أو التين المجفّف ورغيف الشعير طيلة يوم

كامل، وباستطاعته التحرُّك والتنقُّل بسرعة كبيرة خاصة في التضاريس الوعرة التي اعتاد عليها، فسرعته تصل إلى ثلاثة أضعاف أحسن المقاتلين الفرنسيين، وله قدرة كبيرة على الاستعلام، فهو يراقب تحرُّكات العدو ويستعلم بسرعة فائقة، ما يخلق صعوبات للقوات الفرنسية[57]. وهذا ما تحدَّث عنه الجنرال ديغول في مذكراته، إذ قال إن القتال كان شديد الخطر، وأحيانًا منهكًا، وغالبًا مخيبًا للآمال، بل وإنه حتمًا سيؤدِّي إلى بقاء فرنسا تغوص سياسيًّا وماليًّا وعسكريًّا في مستنقع لا قاع له[58].

6. تكثيف النشاط الدبلوماسي وتدويل القضية الجزائرية

منذ بداية التحضير للثورة التحريرية، كانت استراتيجية إدارة المعركة، تقتضي تنويع جبهات الحرب ضد فرنسا (عسكريًّا وسياسيًّا ودبلوماسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا..)، وكان النشاط الدبلوماسي الخارجي وتدويل القضية الجزائرية يُعدُّ أولوية ملحّة لاعتبارين مهمين:

- كسب الدعم الخارجي للثورة، خصوصا من الأشقاء العرب والمسلمين، وأحرار العالم.
- الضغط على المحتل الفرنسي خارجيًّا وفي المنظمات الدولية، لإرغامه على الرضوخ لمبدأ حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره.

لقد كانت المعركة الدبلوماسية الخارجية في نظر جبهة التحرير الوطني لا تقل أهمية عن معركة الداخل، بل كانت في كثير من الجوانب تفوقها أهمية، كونها تشكِّل خط الإمداد الاستراتيجي بالسلاح الذي لا تنجح معركة الداخل إلا به. لذلك فإنه قبل اندلاع الثورة، شكَّل قادة جبهة التحرير الوطني الهيئة الخارجية التي أوكلت لها مهمة العمل الدبلوماسي الخارجي. ويذكر أحمد بن بلة بصفته مفتاح البعد الخارجي للثورة، أنه عقد قبل الثورة لقاءين تنسيقيين بالعاصمة السويسرية بيرن، في بداية يوليو/ تموز 1954، وكان التركيز فيهما على ضرورة كسب المساندة والدعم الخارجي. وكانت مصر البوابة الأولى في هذا النشاط، وقد ربطت في البداية انخراطها في دعم الثورة الجزائرية، بشرط تفجير الثورة أولًا بالإمكانات الموجودة، مع وعد ضمان إيصال الدعم بالسلاح لاحقًا[59]. وينبغي التأكيد أن ضمان الدعم

والتموين العسكري ليس الغاية الوحيدة للوفد الخارجي، إنما كانت مهامه أوسع، منها التعريف بالثورة عبر الوسائل الدبلوماسية والإعلامية والأنشطة الثقافية المختلفة، والتحرُّك لأجل إدراج القضية الجزائرية في المنظمات الدولية، وعلى رأسها هيئة الأمم المتحدة، فضلًا عن كسب الدعم السياسي والدبلوماسي وحتى المادي (المالي والعسكري)، من خلال ضمان إمداد الثورة بالأسلحة المختلفة ومستلزماتها[60]، مع توسيع النشاط بإيفاد البعثات إلى الدول الآسيوية وبلدان أوروبا وأمريكا اللاتينية، والعمل على الحضور في كل المحافل الدولية، منها مؤتمر باندونغ وهيئة الأمم المتحدة[61].

7. حرب الأمواج: فضح سياسات المحتل داخليًّا وخارجيًّا

مثّل البعد الإعلامي أحد المرتكزات المبكرة في استراتيجية جبهة التحرير الوطني، إذ بادرت إلى صياغة بيان أول نوفمبر/ تشرين الثاني وبثّه عبر أثير إذاعة صوت العرب من القاهرة، بما يعكس إدراكًا لوظيفة الإعلام في تشكيل الوعي وتعبئة الرأي العام. ورغم محدودية الإمكانات وضعف الخبرات، خاضت جبهة التحرير المعركة الإعلامية برؤية موازية للعمل المسلح، حتى غدت امتدادًا له في ظلِّ اختلال واضح في موازين القوة، خاصة مع التفوُّق الفرنسي المدعوم بشبكات إعلامية واسعة الانتشار. غير أن هذا التفاوت لم يحُل دون ترسيخ قناعة مفادها أن حسم معركة التحرُّر لا يتحقَّق عسكريًّا بمعزل عن كسب معركة السردية، إذ ارتبط نجاح الكفاح المسلح بقدرته على تفكيك الخطاب الاستعماري ومواجهة هيمنته التي ترسخت منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، عبر إنتاج خطاب بديل يعيد تأطير القضية الجزائرية في الوعي المحلي والدولي[62].

بناءً على ذلك، أولت جبهة التحرير الوطني منذ البداية اهتمامًا خاصًا بالبعد الإعلامي بوصفه ضرورة ملحّة لنجاح الثورة المسلحة، فاعتمدت في مرحلتها الأولى على النشاط الإعلامي الدعائي عبر إذاعة صوت العرب، إلى جانب تنظيم الندوات الصحفية وتلاوة البيانات باسمها[63]. وتُعدُّ ندوة 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 1954 أول ندوة تعقدها جبهة التحرير الوطني في القاهرة، حيث عرّفت من خلالها

بنفسها وقدّمت عرضًا تفصيليًّا لأحداث ليلة اندلاع الثورة، لتتوالى لاحقًا بياناتها الدورية الهادفة إلى فضح السياسة الفرنسية في الجزائر، والردّ على تصريحات قادتها في مختلف المناسبات. ويشير عبد الرحمن كيوان إلى أنه عقب التحاقه بالقاهرة في أبريل/ نيسان 1956، تولّى تقديم برنامج باللغة الفرنسية ضمن ركن المغرب عبر إذاعة صوت العرب[64]. كما كلّف الوفد الخارجي توفيق المدني بالدعاية للثورة والقضية الجزائرية، ببث بيان يومي عبر إذاعة صوت العرب[65]. وفضلًا عن القاهرة، كان صوت جبهة التحرير الوطني يصدح من بغداد ابتداء من يوليو/ تموز 1958. أما على مستوى بلدان المغرب العربي فكان البث عبر تونس من خلال برنامج صوت الجزائر المجاهدة من الشقيقة تونس، الذي كان يبث ثلاث مرات في الأسبوع، لمدة ساعة في كل بث. وفي ليبيا كان البث عبر محطتي طرابلس وبنغازي[66]. كما كان صوت الجزائر يبث عبر إذاعات سوريا والكويت.

في الداخل الجزائري أخذت جبهة التحرير الوطني على عاتقها إنشاء المراكز الإعلامية وتكوين اللجان الشعبية المختلفة، لغاية تأمين اتصال الثورة بالشعب وإبلاغه بما يحدث على أرض الميدان، حتى لا يُضلل من الإعلام الفرنسي[67]. وقد تنوعت الوسائل الإعلامية في الثورة التحريرية بين الإعلام الشفهي المباشر من خلال اللقاءات المباشرة بين المرشدين السياسيين والشعب، وتزويده بتعليمات جبهة التحرير الوطني ووقائع الأحداث في الميدان[68]، وبين الإعلام عبر المنشورات التي تُطبع في صفحة واحدة وتُستنسخ ثم توزَّع على المواطنين بقصد التعريف والإبلاغ باستمرار[69]. وقد كانت هذه المنشورات نصف شهرية تصدر باللغتين العربية والفرنسية وتُرسل إلى مختلف المدن الجزائرية وإلى المغرب وتونس[70].

وابتداءً من عام 1955، دخل العمل الإعلامي الثوري مرحلة جديدة من خلال إنشاء الصحف، وذلك بإصدار جريدة "المقاومة الجزائرية" في باريس، ثم في المغرب وتونس ابتداءً من عام 1956، قبل أن يتمَّ عقب مؤتمر الصومام (20 أغسطس/ آب 1956) إطلاق جريدة "المجاهد"[71]، التي كانت في البداية نشرية خاصة في الجزائر العاصمة، ثم تحوَّلت في يونيو/ حزيران 1957 إلى جريدة رسمية ناطقة باسم جبهة التحرير الوطني. وقد طُبعت أعدادها الأولى في تطوان المغربية،

قبل أن تُنقل بقرار من المجلس الوطني للثورة إلى تونس في نوفمبر/ تشرين الثاني 1957، حيث واصلت الصدور إلى غاية وقف إطلاق النار في 19 مارس/ آذار 1962[72]. وقد أسهمت في خدمة العمل الثوري من خلال:

- تقوية إرادة الجماهير في مواصلة الثورة حتى النصر.
- نشر تفاصيل المعارك الحربية وأنشطة جيش التحرير الوطني.
- فضح السياسات القمعية والإجرام الفرنسي في حقِّ الشعب الجزائري.

وتُعدُّ نهاية العام 1956 بداية التحدِّي الإعلامي الأكبر للثورة الجزائرية من خلال تأسيس الإعلام السمعي الناطق باسم جبهة التحرير الوطني، والمتمثّل في إنشاء الإذاعة الجزائرية السرية يوم 16 ديسمبر/ كانون الأول 1956، التي كانت في البداية تبثُّ برامجها عن طريق جهاز بثٍّ محمول على ظهر شاحنة متنقلة عبر الحدود الغربية بين الجزائر والمغرب الأقصى، متخفية عن العدو حتى لا يرصد موقعها[73]، ثم استأنفت بثّها من إذاعة الناظور بالمغرب الشقيق عام 1959، قبل أن تتمكَّن جبهة التحرير الوطني من الحصول على محطة بث إذاعية جاهزة في مدينة طنجة المغربية في 1 أكتوبر/ تشرين الأول 1961[74].

8. مركزية مبدأ الحسم في الاستقلال: جدلية الفعل المسلح والمسار التفاوضي

يُعدُّ وضع استراتيجيات إدارة المعارك التحرُّرية من أكثر المهام تعقيدًا، نظرًا لما يترتَّب عليها من نتائج ميدانية قد تؤدِّي إما إلى تحقيق الأهداف المنشودة أو إلى الفشل وتفاقم الأوضاع. ويقتضي حسن التدبير في هذا السياق امتلاك رؤية شاملة، وفهم عميق لطبيعة الصراع، وقدرة عالية على التكيّف مع المتغيرات المتسارعة، ضمن مخططات دقيقة وتنظيم محكم.

وعليه، فإن اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية لم يكن فعلًا عفويًّا أو استجابة انفعالية، بل جاء نتيجة تحضير استراتيجي مدروس راعى مختلف الشروط الكفيلة بإنجاح المشروع الثوري، وفي مقدّمتها تبنِّي مبدأ الحسم في الاستقلال باعتباره خيارًا نهائيًّا غير قابل للمراجعة، بغضّ النظر عن التحوُّلات والظروف.

وقد أسهمت هذه الخصوصية في جعل الثورة الجزائرية نموذجًا متميّزًا في حركات التحرُّر، سواء من حيث السياق الذي اندلعت فيه أو طبيعة الاحتلال الفرنسي الاستيطاني، فضلًا عن خصوصية الحالة الجزائرية مقارنة ببقية المستعمرات الفرنسية. فبينما عرفت تجارب استعمارية أخرى إمكانات للحلول التفاوضية أو الجزئية، كانت هذه الإمكانات محدودة أو شبه منعدمة في الحالة الجزائرية، حيث قامت الأطروحة الاستعمارية الفرنسية على إنكار وجود كيان وطني جزائري مستقل، كما لم تُعترف بأي مظاهر سلطة محلية مماثلة لما كان قائمًا في تونس والمغرب.

وبناءً على ذلك، لم يكن هناك استعداد فرنسي للتنازل عن السلطة، سواء من جانب الإدارة الاستعمارية أو من طرف المستوطنين الذين رفضوا أي تسوية وسط، أو إصلاحات من شأنها أن تفضي إلى تعزيز المطالب الوطنية. وقد جعل هذا الواقع من خيار الاستقلال الكامل والنهائي الخيارَ الوحيد الممكن أمام الثورة الجزائرية، دون وجود بدائل تفاوضية ذات جدوى.

ومن ثم، اتسم موقف جبهة التحرير الوطني منذ بداياته بالوضوح والحسم، إذ لم ينخرط في منطق الحلول الجزئية أو التسويات المرحلية، بل تبنَّى هدف الاستقلال التام غير القابل للتجزئة، مع التأكيد المستمر على أن أي تفاوض لا يمكن أن يتمَّ إلا على أساس استعادة السيادة الوطنية الكاملة وغير المنقوصة[75]. إن تلك المواقف الحاسمة هي التي دعت فرانز فانون إلى القول إن: "محو الاستعمار حدث عنيف دائمًا، لأنه يستهدف تغيير النظام.. إنه نزال بين قوتين متعارضتين كلتاهما لها صفتها الخاصة، فالتحرير لن يتحقَّق إلا بناء على العنف الشامل الذي يؤدِّي في النهاية إلى طرد الاحتلال"[76]، كما يذهب إلى أن الثورة الجزائرية تمثِّل نتيجة طبيعية لسياسات استعمارية سعت إلى محو الشخصية الوطنية والهوية الثقافية للشعب الجزائري[77].

وانطلاقًا من هذا التصوُّر، شكَّلت التجربة الجزائرية مصدر إلهام لحركات التحرُّر في العديد من البلدان الإفريقية، حيث ترسَّخت قناعة مفادها أن استراتيجية الحسم تمثِّل الخيار الأنجع في مسارات التحرُّر، وأن التفاوض دون قوة ثورية

داعمة لا يمكن أن يفضي إلى نيل الاستقلال الكامل. وقد دفع هذا الإدراك العديدَ من حركات التحرُّر إلى تبنِّي خيار الكفاح المسلح باعتباره شرطًا لفرض الاعتراف السياسي[78]، وأنه لمن السذاجة كما يقول فرانز فانون، الاعتقاد بأننا نناشد ونطالب بالاحترام، بل علينا تغيير الواقع وفرض الاحترام، وإنه لا داعي لأن يتمثَّل الأسود ثقافة الأبيض أو أن يتشبَّه به، بل عليه أن يتحرَّر من عقدته وأن يطالب الأبيض بالاعتراف به إنسانًا. وذات القياس يكون على الدول والشعوب، لأن نيل حقوق الأوطان لا يكون بالاحترام، بل يأتي والأصبع ثابت لا يهتزُّ على الزناد[79].

9. فضح المحتل وكسب تعاطف وتأييد أحرار العالم

عمدت السلطات الاستعمارية الفرنسية، على امتداد عقودٍ طويلة، إلى توجيه الرأي العام الداخلي والخارجي عبر بناء سرديةٍ دعائية تُصوّر فرنسا حاملةً لقيم حقوق الإنسان والحريات والعدالة، ومُضفيةً على وجودها في الجزائر طابع "المهمة الحضارية" الهادفة إلى نقلها من الجهل إلى المعرفة، ومن "التخلّف" إلى "التحضّر"، ومن الفوضى إلى النظام. وقد اقترنت هذه السردية بآلياتٍ ممنهجة لحجب الانتهاكات الجسيمة التي رافقت المشروع الاستعماري، بما في ذلك سياسات القمع والتهميش وحرمان الجزائريين من حقوقهم الأساسية.

غير أنّ هذه البنية الخطابية تعرّضت لتحدٍّ متزايد مع اندلاع الثورة الجزائرية، حيث أسهم إعلام الثورة، إلى جانب التغطيات التي وفَّرتها بعض المنابر الصحفية الدولية، في تفكيك تلك الصورة المروّجة، وكشف الممارسات الاستعمارية على نطاقٍ أوسع. وقد انعكس ذلك في تنامي التعاطف الدولي مع مطلب الشعب الجزائري في تقرير مصيره، واتساع حضور القضية الجزائرية في الفضاءات السياسية والإعلامية العالمية، بما فيها المؤتمرات والمنتديات والدوائر الفكرية، الأمر الذي أسهم في إعادة تشكيل الرأي العام العالمي إزاء طبيعة الصراع في الجزائر[80].

ويشير محمد الميلي إلى أن فرانز فانون، في مقالٍ له بعنوان "الاستقلال وزوال الاستعمار"، أبرز أنّ الثورة الجزائرية أدخلت عنصرًا نوعيًّا جديدًا في مسار حروب

التحرُّر الوطني، تَمثَّل في تعرية البنية الاستعمارية وفضحها على نطاقٍ واسع، بعد أن ظلَّت تُقدَّم في خطابها الذاتي، بوصفها قيمةً قائمةً وواقعًا مشروعًا[81].

وقد أفضت هذه التحوُّلات إلى كسب تعاطف شريحة معتبرة من النخب والمؤسسات الفرنسية، حيث برز ضمنها عدد من المثقفين الذين أعادت الثورة الجزائرية تشكيل وعيهم ومواقفهم إزاء القضية الجزائرية. ويُعدُّ فرانز فانون من أبرز هذه النماذج، إذ مثَّل انتقاله من موقع الانتماء للفضاء الفرنسي إلى الانخراط الفعلي في النضال الجزائري؛ تحوُّلًا نوعيًّا يعكس أثر الثورة في إعادة صياغة المواقف الفكرية والسياسية. ولم يقتصر هذا التأثير عليه وحده، بل امتدّ إلى بعض معاصريه من المثقفين، من بينهم ألبير كامو (Albert Camus)، فضلًا عن مناضلين أوروبيين انخرطوا ميدانيًّا في دعم الثورة، على غرار جورج أكومبورا (Geroges Acampora) (توفي في 2012) الذي حكم عليه بالإعدام في 1956 بسبب نشاطه المؤيد للثورة، كما اضطلعت زوجته جوليت بدورٍ لافت في مساندتها، سواء من خلال الدعم العملي أو عبر التصدي للدعاية الاستعمارية في المحافل الدولية. وقد تُوّج هذا الالتزام بعد الاستقلال، باختيار الإقامة في الجزائر وحمل جنسيتها، بما يعكس عمق الارتباط بالقضية التي دافعوا عنها.

وتندرج هذه المواقف ضمن سياق أوسع شمل عددًا من المفكرين والأحرار الأوروبيين الذين رفضوا السياسات الاستعمارية وانتقدوا خطابها المناقض لمبادئ الحرية وحقوق الإنسان. غير أنّ مستوى الانخراط تباين بينهم، إذ لم يتجاوز لدى بعضهم حدود التعاطف النقدي، في حين بلغ لدى آخرين حدّ الالتحام الفعلي بالنضال التحرُّري.

وفي هذا الإطار، يبرز فرانز فانون بوصفه نموذجًا متقدّمًا، حيث انفصل عن التيار الليبرالي الفرنسي، والتحق بصفوف المناضلين الجزائريين، مسخّرًا إمكاناته الفكرية والنضالية للدفاع عن القضية الجزائرية. وقد ارتبط هذا التحوُّل، في جانبٍ منه، بتجربته الشخصية مع التمييز العنصري، والتي وجد صداها في واقع الجزائريين تحت الاستعمار، الأمر الذي أسهم في تعميق انخراطه في مقاومة البنية الاستعمارية[82]. وقد عبّر عن هذا الوعي بقوله إن اندلاع الثورة في 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 1954 مثّل لحظة إدراك حاسمة لانتمائه إلى معسكر الداعمين لقيام الدولة

الجزائرية، وهو ما تُرجم عمليًّا باستقالته وانخراطه الكامل في الثورة إلى غاية وفاته عام 1961[83].

ومن بين المفكرين الفرنسيين الذين شهدت مواقفهم تحوُّلًا لافتًا تجاه القضية الجزائرية، يبرز جون بول سارتر (Jean-Paul Sartre) الذي ألقى في 1956 خطابًا بعنوان "الاستعمار نظام" (le Colonialisme est un Système)، خلال اجتماع من أجل السلم في الجزائر، ونُشر لاحقًا في "الأزمنة الحديثة" (Les Temps Modernes). وقد دعا فيه إلى ضرورة اعتراف فرنسا بجبهة التحرير الوطني ممثّلًا شرعيًّا للشعب الجزائري، والدخول معها في مفاوضات سياسية تفضي في النهاية إلى الاعتراف بالجزائر دولة مستقلة[84]. كما نشر لاحقًا كتابًا بعنوان "عارنا في الجزائر"، اعتبر فيه أن الاستعمار الفرنسي للجزائر يمثّل وصمةً في التاريخ السياسي والأخلاقي لفرنسا، بما يعكس تحوُّلًا نقديًّا جذريًّا في موقفه من المشروع الاستعماري.

وفي السياق ذاته، برز المفكر الفرنسي فرانسيس جونسون (Francis Jeanson) الذي اضطلع بدورٍ محوري في دعم القضية الجزائرية عبر بناء شبكاتٍ فكرية سرّية داخل الأوساط المثقفة الفرنسية، سعيًا إلى تشكيل رأي عام ضاغط على الحكومة الفرنسية من أجل الاستجابة للمطالب الجزائرية. وقد تُوّج هذا الحراك في 5 سبتمبر/ أيلول 1960، بإصدار عريضة وجّهها 121 مثقفًا فرنسيًّا إلى السلطات الفرنسية للمطالبة بتسوية سياسية للقضية الجزائرية[85].

كما شهدت تلك المرحلة انخراط عدد من دور النشر الفرنسية في تبنِّي خطاب نقدي للاستعمار، وقد أسهمت في نشر أعمال فكرية وأدبية داعمة للقضية الجزائرية، منها على سبيل المثال "حرب بلا وجه" (Guerre sans visage) لبول موس (Paul Mus)، و"ضد التعذيب" (Contre la Torture) لبيار هنري سيمون (P.H Simon).

خاتمة

في الختام، تُمثّل الثورة الجزائرية (1954–1962) إحدى أبرز التجارب التاريخية في مسار حركات التحرُّر الوطني من الهيمنة الإمبريالية، فقد نجحت في تفكيك بنية الاحتلال الاستيطاني الفرنسي وإعادة صياغة معادلة الصراع لصالح

إرادة الشعوب المستعمَرة. وقد شكَّلت هذه الثورة نموذجًا استثنائيًّا في أدبيات النضال التحرُّري، ليس فقط من حيث نتائجها السياسية المتمثّلة في الاستقلال، بل أيضًا من حيث طبيعة السياقات التي أحاطت بها، وفي مقدّمتها الطابع الاستيطاني العنيف للاحتلال الفرنسي، وما اقترن به من سياسات قمعية وإبادية ممنهجة.

وفي المقابل، أظهرت الثورة الجزائرية قدرة لافتة على تجاوز اختلال موازين القوة عبر توظيف استراتيجيات نضالية مرنة وفعّالة، من أبرزها حرب العصابات والعمل الفدائي، إلى جانب تفعيل أدوات الضغط السياسي والإعلامي والدبلوماسي على المستويين الإقليمي والدولي. وقد أسهم هذا التعدُّد في أدوات المواجهة في إضعاف قدرة الاستعمار على الاستمرار، وإجباره في نهاية المطاف على الاعتراف بحقِّ الشعب الجزائري في تقرير مصيره.

ومع ذلك، فإن هذا الإنجاز التاريخي جاء ثمرة تضحيات جسيمة، تمثَّلت في الخسائر البشرية الهائلة التي تكبَّدها الشعب الجزائري خلال مختلف مراحل المقاومة، ما يمنح هذه التجربة بعدًا إنسانيًّا عميقًا يتجاوز حدود الحدث السياسي إلى مجال الذاكرة التاريخية الجماعية.

وبناءً عليه، تظل الثورة الجزائرية نموذجًا مرجعيًّا في دراسة حركات التحرُّر، بما تتيحه من دروس تحليلية حول ديناميات الصراع مع الاستعمار، وآليات بناء الفعل التحرُّري، وسبل تحويل الضعف المادي إلى قوة سياسية مؤثرة، وهو ما يجعلها تجربة قابلة للاستلهام في سياقات تحرُّرية أخرى عبر العالم.

المراجع

1. الاستيطان: يعني الاستيلاء على مكان ما أو قطعة جغرافية بالقوة، من خلال تهجير أهلها الأصليين بشتى الوسائل والسبل، بما فيها القوة العسكرية، وتسليمها للوافدين الجدد مع الاحتلال من غير السكان الأصليين، بقصد استغلالها وتغيير الواقع فيها، من خلال الإجحاف في حقِّ أهلها الأصليين. وتُعدُّ هذه السياسة أخطر أنواع الاحتلال الأوروبي الحديث، وقد تولَّد عنها في الجزائر انقسام المجتمع إلى قسمين: قسم أوروبي يمتلك كل الامتيازات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية وغيرها، في مقابل مجتمع جزائري غارق في الفقر والعبودية والتخلف. راجع: فرحات عباس، *ليل الاستعمار*، ترجمة عبد العزيز بوباكير (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2005)، 95؛ أبو القاسم سعد الله، *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*، ج5 (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، 128؛

Ahmed Hannache, *La longue Marche de l'Algérie combattante* (Algérie: Éditions Dahlab, 1990), 23.

2. عبد الحميد زوزو، *نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر*، ط4 (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007)، 145.
3. أرزقي شويتام، "سياسة الاستيطان الفرنسي في الجزائر 1830–1914)"، *مجلة التاريخ المتوسطي*، مج2، ع2 (الجزائر، 2020)، 192؛

Deshamps, *La Fin des Empires Coloniaux* (Paris: PUF, 1976), 13.

4. قائد عسكري فرنسي تولَّى عدة مناصب من أبرزها قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر عام 1830، ثم أصبح حاكمًا عامًّا فيها خلال المرحلة (1835–1837).

Charles André Julien, *Histoire de l'Algérie Contemporaine 1827-1871* (Alger: Éditions Casbah, 2007), 76.

5. أبو القاسم سعد الله، *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*، ج 2، 36.
6. يحيى بوعزيز، *سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830–1954* (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007)، 7.
7. إبراهيم مياسي، *مقاربات في تاريخ الجزائر 1830–1960* (الجزائر: دار هومة، 2007)، 122؛ صالح فركوس، *التشريعات المنظمة للاستيطان الاستعماري في الجزائر وآثارها على المجتمع الجزائري* (الجزائر: مخبر التاريخ للأبحاث والدراسات المغاربية، جامعة قالمة)، 23.
8. فرحات عباس، ليل الاستعمار، 56؛ صالح فركوس، *التشريعات المنظمة للاستيطان الاستعماري في الجزائر وآثارها على المجتمع الجزائري*، 32، 39، 41.
9. شويتام، "سياسة الاستيطان الفرنسي في الجزائر (1830–1914)"، 193.
10. شارل روبير آجيرون، *الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871–1919)*، ج1 (الجزائر: دار الرائد للكتاب، 2007)، 131؛

M. De Peyerimhoff, *Les Résultats de la colonisation officielle (1871-1895)* (Alger: Imprimerie Torrent, 1906), 15.

11. صالح فركوس، *التشريعات المنظمة للاستيطان الاستعماري في الجزائر وآثارها على المجتمع الجزائري*، 90.

12. عثمان فكار، "الاستيطان العمراني الفرنسي في الريف الجزائري.. مقاربة سوسيوتاريخية"، *مجلة جامعة*، مج29، ع3-4 (2013)، 592.
13. شويتام، "سياسة الاستيطان الفرنسي في الجزائر (1830-1914)"، 205؛
M. De Peyerimhoff, "Enquête sur la Colonisation officielle," in Djillali Sari, *La dépossession des fellahs* (Alger: S.N.E.D, 1975), 60.
14. Olivier Le Cour Grandmaison, *La République impériale: Politique et racisme d'État* (Paris: Fayard, 2009), 292.
15. Le Cour Grandmaison, *La République impériale*, 308.
16. Le Cour Grandmaison, *La République impériale*, 43.
17. خضر خنافر، *في الطغيان والاستبداد والدكتاتورية* (بيروت: دار المنتخب العربي، 1995)، 58.
18. عبد الفتاح إمام، *الطاغية*، ع183 (الكويت: عالم المعرفة، 1994)، 47.
19. إمام، *الطاغية*، 48.
20. عبد الفتاح إمام، *الطاغية*، 48؛ جلال السيد، "الثورة الفرنسية والفكر العربي"، *مجلة الهلال المصرية*، عدد سبتمبر 1989.
21. عبد الفتاح إمام، مقدمة ترجمة كتاب هيغل: *فلسفة التاريخ*، مج2 (القاهرة: مكتبة مدبولي)، 7؛ أحمد عبد الحليم عطية، "إقصائية هيغل.. نقد النظرية العنصرية عند الآخر"، *مجلة الاستغراب*، ع14 (2019)، 194 وما يليها.
22. براين تيرنر، *علم الاجتماع والإسلام.. دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر*، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، ط1 (بيروت: دار القلم، 1987)، 114.
23. فرانز فانون، *معذبو الأرض*، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، ط2 (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2015)، 39.
24. محمد البشير الإبراهيمي، "خطبة الأستاذ الإبراهيمي"، *جريدة البصائر*، ع37 (2/ 10/ 1936)، 6.
25. الطاهر زبيري، *نصف قرن من الكفاح* (الجزائر: الشروق للإعلام والنشر، 2011)، 8.
26. محمد الهادي الحسني، "مقارنة عسكرية أولية بين جيش التحرير الوطني والجيش الفرنسي"، *جريدة الشروق اليومي*، ع7055 (22 مارس 2022)، 20.
27. الحسني، "مقارنة عسكرية أولية بين جيش التحرير الوطني والجيش الفرنسي"، 20.
28. محمد بوضياف، "شهادة حول الثورة"، *مجلة أول نوفمبر*، ع147 (1995)، 25.
29. محمد عباس، *رواد الوطنية* (الجزائر: دار هومة، 2005)، 227-280.
30. عباس، *رواد الوطنية*، 157-172.
31. عبد الله مقلاتي، *الاستراتيجية العسكرية*، 39.
32. مقلاتي، *الاستراتيجية العسكرية*، 63.
33. Farhat Abbas, *Autopsie d'une guerre* (Alger: L'Aurore, 2e éd., 2011), 32.
34. Ali Haroun, *La 7ème Wilaya: La guerre du FLN en France 1954-1962* (Alger: Casbah Éditions, 2005), 362.
35. لخضر عواريب، "السياسة الفرنسية لفصل الصحراء ومظاهرات 27 فيفري 1962 بورقلة كنموذج للرد الشعبي عليها"، *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية* (الجزائر، ع7، 2012)، 112.

36. مهدي صفوان، "البعد الإنساني للثورة الجزائرية من خلال جرائدها: جريدة المقاومة والمجاهد أنموذجًا (1956–1962)"، *مجلة قضايا تاريخية* (الجزائر، ع18، 2022)، 51–52.
37. جربال دحو، *تاريخ الكفاح المسلح لجبهة التحرير الوطني في فرنسا (1956–1962)*، ترجمة سناء بوزيدة (الجزائر: منشورات الشهاب، 2013)، 241.
38. زردافكو بيكار، *شهادة صحفي يوغسلافي عن حرب الجزائر*، ترجمة فتحي سعيدي (الجزائر: موفم للنشر، 2011)، 140.
39. نور الدين حاطوم، "أصالة الثورة الجزائرية"، *مجلة الثقافة* (الجزائر، ع84، 1984)، 31–36.
40. حرب العصابات: تقنية عسكرية سياسية من تقنيات الحرب الثورية، يستخدمها الطرف الأضعف ماديًّا للتغلُّب على خصم قوي، لأن انتصاره على الخصم يتطلَّب اللجوء إلى الحيل والخداع وخفة الحركة ومناعة الأرض وتعاون السكان ومعرفة الميدان جيدًا. استُعمل هذا النوع من التكتيك الحربي في حالات التمرُّد والانتفاضات الشعبية المسلحة منذ القدم. راجع: مجموعة مؤلفين، *الموسوعة العسكرية*، ج1، ط2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003)، 723؛

Belahsene Bali, *Guerre de Libération Nationale d'Algérie 1954-1962* (Algérie: Éditions Ibn Khaldoun-Tlemcen, 2014), 9.

41. المنظمة الوطنية للمجاهدين، *الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون*، م1، ج1 (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت)، 44.
42. كمال عبد الرحيم، *مجلة الجيش* (الجزائر، ع1، نوفمبر 1982)، 22.
43. عبد الله مقلاتي، "الاستراتيجية العسكرية لجيش التحرير الوطني بين العمل الفدائي وحرب العصابات (1956–1957)"، *المجلة التاريخية الجزائرية* (الجزائر، ع1، 2017)، 40؛ العقيد محمد رمضاني، "العقيدة العسكرية لجبهة التحرير الوطني"، *جريدة الشروق*، 31 أكتوبر 2011.
44. أحمد بلخير، *الثورة التحريرية في المنطقة الرابعة للولاية الخامسة (1956–1962)*، رسالة ماجستير (جامعة تلمسان، د.ت)، 128–129.
45. جمال قنان، "لمحة تاريخية عن جيش التحرير الوطني"، في *أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني* (الجزائر: وزارة المجاهدين، 2005)، 71؛

Mohamed Guentari, *Organisation politico-administrative et militaire de la Révolution Algérienne de 1954 à 1962*, vol. 2 (Algérie: OPU, 2011), 809.

46. لخضر جودي بوطمين، "وقائع وصور من زمن التحدي"، *مجلة أول نوفمبر* (الجزائر، ع 163، 2000)، 13.
47. الجنيدي خليفة وآخرون، *حوار حول الثورة*، ج 2 (الجزائر: موفم للنشر، 2012)، 46.
48. المنظمة الوطنية للمجاهدين، "تقرير ولايات الوسط المقدم في الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة"، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984)، 16.
49. Mohamed Dabbah, *On nous appelait les réseaux: Radio Rebelles* (Alger: Éditions Gharnata, 2013), 57.
50. Abderrahmane Berrouaane, *Aux origines du MALG: Témoignage d'un Compagnon de Boussouf* (Alger: Barzakh, 2015), 92.
51. Berrouaane, *Aux origines du MALG*, 57.

52. انظر: MALG (Ministère de l'Armement et des Liaisons Générales), *Le MALG: Abdelhafidh Boussouf ou la Stratégie au Service de la Révolution* (Alger: Éditions Houma, 2015), 27.

53. سهام بوعموشة، "حوار مع المجاهد محمد مقراني"، *جريدة الشعب*، 8 يناير 2021؛ الصادق دهاش، "تطور جهاز المخابرات الجزائرية في ظلّ الثورة التحريرية"، *مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية*، مج5، ع2 (2021)، 923 وما يليها.

54. Jean-Charles Jauffret, "Blessure et Mort du Combattant Français en Algérie," *Guerre d'Algérie Magazine*, no. 22 (2011), 34-36.

55. محمد الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية* (الجزائر: وزارة الثقافة، 2006)، 132.

56. فرانز فانون، *معذبو الأرض*، 252.

57. أحمد بلخير، *الثورة التحريرية في المنطقة الرابعة للولاية الخامسة*، 128–129.

58. شارل ديغول، *مذكرات الأمل: التجديد (1958–1962)* (بيروت: مؤسسة عويدات، 1970)، 54، 85.

59. أحمد بن بلة، *المذكرات* (بيروت: دار الآداب، د.ت)، 95، 98؛ أحمد توفيق المدني، *حياة كفاح* (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982)، 18–19.

60. أحمد سعيود، *العمل الدبلوماسي لجبهة التحرير الوطني (1954–1962)* (الجزائر: دار الشروق، 2009)، 61.

61. عمر بوضربة، *تطور النشاط الدبلوماسي للثورة الجزائرية (1954–1962)* (الجزائر: دار الإرشاد، 2013)، 192.

62. أحسن بومالي، *أدوات التجنيد الإجباري والتعبئة الجماهيرية أثناء الثورة التحريرية (1954–1962)* (الجزائر: دار المعرفة، 2010)، 244.

63. بومالي، *أدوات التجنيد الإجباري*، 160.

64. Kiouane Abderrahmane, *Les Débuts d'Une Diplomatie de Guerre (1956-1962)* (Alger: Dahlab, 2000), 7.

65. أحمد توفيق المدني، *حياة كفاح*، 177؛ أحمد حمدي، *الثورة الجزائرية والإعلام* (الجزائر: المتحف الوطني للمجاهد، 1995)، 159–160.

66. المركز الوطني للدراسات، *الإعلام ومهامه أثناء الثورة التحريرية*، 287.

67. المركز الوطني للدراسات، *الإعلام ومهامه أثناء الثورة التحريرية*، 130.

68. المركز الوطني للدراسات، *الإعلام ومهامه أثناء الثورة التحريرية*، 41.

69. جهاد الغرام، "دور الإعلام في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر"، 76.

70. الغرام، "دور الإعلام في فترة الاحتلال الفرنسي"، 383.

71. الغرام، "دور الإعلام في فترة الاحتلال الفرنسي"، 385.

72. زهير إحدادن، "جريدة المجاهد أثناء الحرب التحريرية"، 48.

73. الغرام، "دور الإعلام في فترة الاحتلال الفرنسي"، 76.

74. الصادق دهاش، "دور الإعلام الثوري في الثورة الجزائرية"، 60؛ قدور ريان، *الإذاعة السرية صوت الجزائر الحرة* (2001)، 55.

75. محمد الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية*، 91، 108.
76. فرانز فانون، *معذبو الأرض*، 9.
77. محمد الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية*، 130.
78. الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية*، 172.
79. الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية*، 169.
80. الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية*، 107.
81. الميلي، *فرانز فانون والثورة الجزائرية*، 131، 130، 109.
82. Frantz Fanon, *A Dying Colonialism* (New York: Grove Press), 176.
83. عبد المجيد عمراني، *جون بول سارتر والثورة الجزائرية* (القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت)، 76.
84. عمراني، *جون بول سارتر والثورة الجزائرية*، 145.
85. Jean Déjeux, *Essai de Bibliographie Algérienne* (Cahiers Nord-Africains), 44-46.

المقاومة الريفية بقيادة الخطابي
(1926-1921)

مدرسة في حرب التحرير الشعبية

الحاج محمد الناسك - رشيد أعراب

مقدمة

شهد القرن التاسع عشر تصاعدًا ملحوظًا في التنافس الإمبريالي بين القوى الاستعمارية الأوروبية، في سياق السعي إلى السيطرة على الأسواق وتوسيع مجالات النفوذ، تحت غطاء الخطاب الذي روّجته تلك القوى باسم "المهمة الحضارية". وفي هذا الإطار، غدا المغرب، بحكم موقعه الاستراتيجي عند ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، موضع أطماع استعمارية متزايدة، ولا سيما من جانب فرنسا التي كانت قد احتلَّت الجزائر سنة 1830، ثم تمكَّنت، عبر شبكة من المفاوضات والاتفاقيات مع القوى الأوروبية المنافسة، من فرض نظام الحماية على المغرب في 30 آذار/ مارس 1912. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه، أبرمت فرنسا اتفاقية مع إسبانيا في مدريد، جرى بموجبها تحديد مناطق نفوذ كل منهما في المغرب بصورة علنية.

أما إسبانيا، فبعد انحسار إمبراطوريتها وراء البحار وفقدانها آخر مستعمراتها الكبرى، ولا سيما كوبا عقب هزيمتها أمام الولايات المتحدة سنة 1898، أعادت توجيه اهتمامها نحو مضيق جبل طارق والساحل الإفريقي، مركّزةً على تعزيز حضورها في شمال المغرب وجنوبه. وبمقتضى الاتفاق المشار إليه، حصلت إسبانيا على منطقة نفوذ محدودة المساحة، لا تتجاوز نحو 5٪ من مجموع الأراضي المغربية، تمتد من المحيط الأطلسي غربًا إلى نهر ملوية قرب الحدود الجزائرية

شرقًا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالًا إلى خط غير منتظم يقع على مسافة تقارب خمسة وعشرين ميلًا شمال نهر ورغة جنوبًا.

وقد امتد المغرب الخاضع للنفوذ الإسباني نحو 225 ميلًا من الغرب إلى الشرق، وما بين 30 و50 ميلًا من الشمال إلى الجنوب، بمساحة إجمالية تقل قليلًا عن 7700 ميل مربع. وبالمقارنة، كانت مساحة المغرب الخاضع للحماية الفرنسية تقارب عشرين ضعف مساحة المنطقة الإسبانية. كما اتسمت المنطقة الإسبانية بطابعها الجبلي الوعر، الأمر الذي جعل السيطرة عليها وإخضاعها مسألة بالغة التعقيد، وأسهم لاحقًا في بروز مقاومة محلية شديدة، ولا سيما في منطقة الريف[1]. وقد بلغ آنذاك عدد سكان المنطقة 760 ألف نسمة موزّعين على 66 قبيلة[2]. وهكذا، بعد مرور 14 عامًا من فقدان إسبانيا ممتلكات فيما وراء البحار، ربحت إمبراطورية أو على الأقل هذا ما توهَّمته. تلك إذن كانت هدية مسمومة لإسبانيا، واستعمارا بالمقايضة[3].

لقد واجه المغاربة الزحف الاستعماري بمقاومة عفوية في مناطق عدة من البلاد، غير أنّ التفوُّق العسكري والتقني للقوى الاستعمارية مكَّنها من إخماد تلك الانتفاضات تباعًا، وبسط نفوذها على أجزاء واسعة من البلاد. بيد أنّ هذه المرحلة لم تدم طويلًا؛ إذ أخذت المقاومة، في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، منحى أكثر تنظيمًا ووضوحًا في الرؤية، خصوصًا في منطقة الريف شمالي المغرب.

في هذا السياق، برز دور محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي استطاع، بمعيّة شقيقه مْحمد الخطابي ونخبة من رفاقه، تحويل المقاومة الريفية من ردود فعل محلية متفرقة إلى حركة منظمة ذات أفق سياسي وعسكري محدد. وقد نجحت الحركة في إلحاق هزائم قاسية بالقوات الاستعمارية الإسبانية والفرنسية، كان أبرزها معركة أنوال العام 1921 التي شكَّلت نقطة تحوُّل في تاريخ المواجهة. وقد اكتسبت تلك المقاومة صدى دوليًّا واسعًا، لما مثَّلته من تحدٍّ مباشر ليس للنظام الاستعماري في شمال أفريقيا فحسب، وإنما على مستوى النظام الإمبريالي العالمي. وهكذا تجاوزت أخبارها الإقليم وطارت في الآفاق لتصبح موضوع اهتمام الصحافة العالمية، وذاع صيت قائدها الذي تصدّرت صورته غلاف عدد 17

أغسطس/ آب من مجلة "تايم" (Time) الأميركية الشهيرة، الأمر الذي يعكس انتقاله من قائد محلي إلى رمز مُلهِم لحركات التحرُّر، متجاوزًا الإطار الجغرافي للمغرب إلى فضاء عالمي أوسع.

لقد "كانت حرب الريف من بين جميع المشاريع الاستعمارية، الأكثر تكلفة من حيث الرجال والأموال، وأثارت العديد من النزاعات الدبلوماسية، بينما ستظل الطريقة التي جرى بها فهم تلك الحرب وإدارتها موضع نقاش فترة طويلة"[4].

لقد مضى عليها نحو قرن من الزمان، وسال في شأنها مداد كثير وما زال، وأنجزت عنها دراسات وأفلام سينمائية ووثائقية، وأعمال أدبية[5]، وما زالت موضوعا مغريًا للباحثين في محاولة للإجابة عن مجموعة من علامات الاستفهام التي ما زالت منتصبة أمامهم. وتحظى المقاومة الريفية باهتمام واسع في الدراسات التاريخية والعسكرية، إذ ينظر إليها على أنها إحدى أبرز تجارب المقاومة المنظمة ضد الاستعمار في القرن 20، كما كان لها تأثير ملحوظ في حركات التحرُّر في العالم.

تنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أنّ تجربة المقاومة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي لا تمثِّل مجرد انتفاضة محلية في مواجهة الاستعمار، بل تشكِّل نموذجًا مبكرًا ومتكاملًا في حرب التحرير الشعبية، استطاع، رغم محدودية موارده، إعادة تشكيل موازين القوة عبر توظيف البنية الاجتماعية المحلية، وبناء تنظيم سياسي وعسكري فعّال، وتطوير استراتيجيات قتالية غير تقليدية شكَّلت تهديدًا للمشروع الإمبريالي برمته. ومن هذا المنظور، تسعى الدراسة إلى تحليل هذه التجربة بوصفها لحظة تأسيسية في تاريخ الحروب غير المتكافئة، واستجلاء أبعادها القيادية والتنظيمية والعسكرية، وبيان أسباب صعودها وانكسارها، فضلًا عن تتبع امتداداتها وتأثيراتها في حركات التحرُّر العالمية خلال القرن العشرين.

أولًا – الخطابي صانع الوحدة أو عازف الأكورديون

لا يعزب عن بالنا ونحن نبسط الكلام عن مكانة محمد بن عبد الكريم في سياق حرب التحرير الريفية، أننا بصدد إشكالية كلاسيكية ومركزية في فلسفة التاريخ وكتابة الماضي، ألا وهي مسألة دور الفرد في التاريخ. وقد شكلت هذه

الإشكالية محور جدل طويل بين المؤرخين والفلاسفة منذ القرن التاسع عشر، خاصة بعد أن بلور توماس كارلايل "نظرية الرجل العظيم" (Great man Theory)، التي تفترض أن القادة (العظماء) يولدون ولا يُصنعون. غير أن تلك النظرية كانت غرضا لنقد متزايد مع تطور الكتابة التاريخية وتعدُّد مناهجها، فقد برزت اتجاهات ومدارس ركَّزت على أهمية السياقات والبنى الاجتماعية والاقتصادية في تفسير الظواهر التاريخية، ومن أبرزها مدرسة الحوليات.

في هذا الإطار، تكتسب سيرة محمد بن عبد الكريم الخطابي دلالتها من تفاعلها مع محيطها الاجتماعي والسياسي، لا من اختزالها في بعد فردي صرف. فقد وُلد سنة 1882 في قرية أجدير بمنطقة الريف شمالي المغرب، وينتمي إلى قبيلة بني ورياغل. ونشأ في أسرة علمية مرموقة ذات مكانة دينية واجتماعية، إذ كان والده عبد الكريم من علماء المنطقة وقضاتها، الأمر الذي أتاح له بيئة معرفية أسهمت في صقل شخصيته الفكرية والسياسية. تلقّى تعليمه الأول على يد والده، ثم انتقل إلى مدينة تطوان لمواصلة دراسته، قبل أن يلتحق بجامعة القرويين في فاس، حيث درس العلوم الشرعية واللغة العربية، واكتسب تكوينًا دينيًّا وأدبيًّا واسعًا أسهم في بلورة وعيه الفكري ومهّد لانخراطه اللاحق في العمل السياسي والمقاوم.

بعد عودته من فاس إلى مسقط رأسه، وجّهه والده للعمل في مدينة مليلية بطلب من السلطات الإسبانية؛ فانخرط محمد بن عبد الكريم الخطابي في عدد من المجالات داخل البنية الإدارية والثقافية للاستعمار الإسباني، إذ اشتغل مدرسًا للغة العربية في معهد إعداد الضباط الإسبان، كما عمل محرّرًا في جريدة (El Telegrama del Rif)، قبل أن يتولّى لاحقًا مهام في الإدارة والقضاء ضمن النظام الاستعماري. وقد أتاحت له هذه التجربة الاحتكاك المباشر بآليات الحكم الاستعماري، وأسهمت في زيادة وعيه بطبيعته وأساليبه.

وعلى المستوى الشخصي، تميَّز الخطابي بحضور قوي وشخصية قيادية، إذ امتلك كاريزما (قوة شكيمة) آسرة شهد له بها شهد بها القريب والبعيد. كان مثقفًا وحاد الذكاء، وكانت له نظرة ثاقبة مباشرة ودهاء يثير العجب[6]، ولم يكن يضاهيه في الجاذبية وسحر المظهر أحد إلا شقيقه[7]. وقد انعكست هذه السمات حتى في

تقييم خصومه، إذ أشاد به المستشار القانوني الإسباني خلال محاكمته بتهمة "خيانة القضية الإسبانية"، إذ قال: إنه مغربي ذو شهرة ويتميَّز "بذكاء متقد"، كما أنه يدرك جيدًا "مهمة" إسبانيا في المغرب وأهدافها المرتبطة بفرنسا في هذا البلد. إن الأمر يتعلَّق بمغربي تجمَّعت في شخصيته "كل الخصائص البارزة لأبناء جنسه" المتمثّلة في كونه "داهية" و"حاد الذكاء"، كما يستخلص من تصريحاته أنه لا يتفوَّه إلا بما يتناسب مع ما يريد قوله، مبتعدا "عن هذا المسار المباشر والمقصود لكلماته" عندما يفاجأ بأسئلة أو استنطاقات "ليوجه أفكاره في اتجاهات أخرى متعارضة تماما مع المسارات المرغوبة"[8]. وهي شهادة تكشف عن إدراك الطرف الاستعماري لخصوصية شخصيته وتميُّز قدراته، وهو ما يفسِّر جزئيًّا الدور الذي اضطلع به لاحقًا في تنظيم المقاومة وقيادتها.

ويقول أحد مساعدي الخطابي: "كان من أنشط ما رأيت في حياتي من المسيّرين أيام الجهاد. وكان حسن الهندام، نظيفًا، كل مَن رآه أعجبه وسحره بخفّة روحه وجماله. وكان ناصع البياض، مشرق الوجه، لم أرَ طوال حياتي، لا في المسلمين ولا في النصارى، مثل طلعته. وفي نظر بعض أتباعه، ممَّن بلغ به الإعجاب بالزعيم حد المغالاة، فإنه لم يمت، بل رُفع إلى السماء"[9].

استقبل الخطابي مراسلين أجانب، وكان من بين أولئك الذين قابلوا الأخوين الخطابي، فينسنت شين (Vincent Sheean) وبول سكوت موورر (Paul Scott Mowrer). ومثل شين، أعجب موورر بسلطة وذكاء الأخوين الخطابي، وغادر الريف مقتنعًا بأنهما وطنيان مخلصان. لقد كان قائد المقاومة الريفية على اطلاع جيد على العالم الخارجي، وكان يصله عدد كبير من الصحف والمجلات الأجنبية، بما فيها مجلات الموضة، إلى مقره في أجدير. واستمر في مراسلة زملائه الإسبان السابقين، وكان يتبادل معهم الرسائل، ومعظمها مكتوب بلغة فخمة[10].

تكشّفت لـ محمد بن عبد الكريم الخطابي خلال عمله في الإدارة الإسبانية مظاهر الفساد والاستغلال البنيوي التي شابت تدبير شؤون المحمية، فازدادت نظرته سلبيةً للإسبان، أنّ الوجود الإسباني في الريف لم يكن موجّهًا نحو "الإصلاح" أو "التمدين" كما تدّعي الخطابات الرسمية، بل كان يستهدف بالأساس استغلال

الموارد المحلية، ولا سيما الثروات المعدنية، لخدمة المصالح الاقتصادية للدولة الاستعمارية. وقد غذّت تشاؤمه تصريحات بعض كبار المسؤولين الإسبان، إذ قال أحدهم: "نحن راضون بالتغاضي عن جرائم القتل طالما أنها مجرد قتل الريفيين بعضهم بعضًا". وبناء عليه قرَّر الزعيم المستقبلي أنه من العبث توقع المعاملة العادلة من الأوروبيين، وقال: "لن يعاملونا أبدًا على قدم المساواة، سيعاملوننا دائمًا كالكلاب". هكذا بدأ الخطابي في إرساء دعائم مشروعه التحرُّري، وأهمها بناء مجتمع مؤمن بالفكرة وقادر على التضحية بالغالي والنفيس من أجلها، وتخليصه من المظاهر السلبية التي تسوده وتحول دون تحقيق المراد.

في ضوء ذلك، تبلور لدى الخطابي وعي حاد بطبيعة العلاقة غير المتكافئة التي يؤسسها النظام الاستعماري، ما قاده إلى قناعة مفادها استحالة التعويل على معاملة منصفة في ظلِّ هيمنة استعمارية قائمة على التمييز والإخضاع. ومن هنا، بدأ في وضع اللبنات الأولى لمشروعه التحرُّري، الذي لم يقتصر على مقاومة الوجود الأجنبي عسكريًّا، إنما استهدف كذلك إعادة بناء المجتمع الريفي من الداخل، عبر ترسيخ منظومة قيمية قوامها الإيمان بالقضية، والاستعداد للتضحية، والعمل على تجاوز الاختلالات الاجتماعية والسلوكية التي كانت تعيق تشكُّل قوة جماعية موحّدة قادرة على مواجهة الاستعمار.

لم يخضع الريفيون للاستعباد قبل فترة الحماية الإسبانية. كانوا فخورين وشجعانًا وأقوياء، ويفضلون الموت على الهيمنة الأجنبية. وقد وصفهم السير جون دروموند هاي (Sir John Drummond Hay)، الوزير البريطاني في طنجة خلال النصف الأخير من القرن 19، بأنهم جامحون ولا يلتزمون بالقوانين، وأشاد بلياقتهم البدنية وقدرتهم على إظهار الولاء والتفاني الشديدين. وكتب رجل إنجليزي مجهول في صحيفة "Tangier Gazette" عام 1905: "... لا يوجد رجل واحد من الريف إلا ويؤمن بأنه وإخوانه – المسلحين ببنادق "ريمنغتون" (Remingtons) صدئة و100 طلقة لكل منهم – قادرون على مواجهة أي قوة في العالم ترسل لمحاربتهم. ويؤمن سكان الجبال الأشداء هؤلاء كذلك بإله.. إيمانًا راسخًا كما نؤمن نحن بالمال، وبأسطولنا البحري، وغيرها من الأمور المادية.. إله يقاتل من

أجل الإسلام. وهم في الواقع يرون أن نيل الجنة بالسقوط في حرب مقدسة أفضل من الخضوع لأي نوع من التدخل في شؤون الإسلام.. لا شك أن أي قوة إمبريالية أو استعمارية في أي مكان في العالم لم تواجه خصومًا أشدّ بأسًا من البربر في المغرب الإسباني"[11].

نظرًا لطبيعة نظام السلطة في المستوى الأعلى للقبيلة في المجتمع القبلي الريفي التقليدي، الذي تميَّز دائمًا بغياب رئيس واحد يحتكر السلطة، بل اتسم بتعدُّد زعماء القسمات أو القسمات الصغرى، فإنه من السهولة إذن، إدراك صعوبة الاعتراف لشخص ما بالسلطة المطلقة على قبيلة بكاملها، وبالأحرى عندما يتعلَّق الأمر بائتلاف قبلي[12]. ولم يسبق لقبائل الريف أن قاتلت معًا وحدة واحدة ضد الغزاة الخارجيين، أو خضعت لسيطرة مركزية، بل إن معظمها لم يفعل أكثر من التناحر داخليًّا. ولكن لهزيمة إسبانيا، كان من الضروري فرض سيطرة مركزية[13].

فما الذي أنجزه محمد بن عبد الكريم الخطابي تحديدًا؟ وكيف استطاع في أشهُر أن يوحِّد الريفيين في فترة تسودها الفوضى؟ وكيف تمكَّن من قيادة "جماعة" تفتقر إلى العلم والمال والعدة والعتاد والنظام ضد جيوش إسبانيا وفرنسا معًا؟

شبَّه دافيد هارت (David Hart) محمد بن عبد الكريم بعازف آلة الأكورديون، لشرح الطبيعة المتقلبة للبنية القبلية في الريف، وإبراز قدرة الخطابي الاستثنائية على إدارة التوازنات القبلية، سواء في قبيلته آيت وياغر (بني وياغل) أم في قبائل الريف الأخرى. ففي لحظات الخطر يمكن للقبيلة أن تتوحَّد لتعزف بتناغم، لكنها كثيرًا ما تتفكَّك بفعل المنافسات المحلية والصراعات الداخلية، فتُجذب الآلة وتُمزَّق، فينتهي اللحن بصوت نشاز حاد. غير أن محمد بن عبد الكريم كان يعرف كيف يعزف على أكورديون قبيلته، وعلى سائر الأكورديونات القبلية كذلك، ولم يكن أحد غيره يعرف ذلك. أي كان قادرًا على توظيف التوازنات العشائرية المتعارضة والقبلية في مشروع سياسي وعسكري موحّد[14].

ولم يتوانَ الخطابي في أن يزع بالسلطان ما لا يزع بالإقناع والمناشدة، في مواجهة زعماء قبائل متعاونين مع الاستعمار فاعتقل بعضهم، وكذلك شيوخ الطرق

الصوفية الذين رأى فيهم سببًا في إحباط مسعاه[15]، فقد أضرم النار في بيت أحدهم[16] وكتب إلى آخر: "لتنتهيَنَّ أو أبعث إليك مَن يقتلك على فراشك الذي تأمن فيه مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"[17].

كان الريف كبقية المجتمع المغربي يعيش فترة تخلف وانحطاط، من أخطر ظواهرها التفكُّك والانقسام الناشئ عن طغيان الروح القبلية وضعف عوامل الالتحام والتآزر، وقد زاد التدخل الأجنبي في شؤون البلاد الوضع استفحالا. فقد كانت ظاهرة الثأر متفشية في المجتمع الريفي، وظواهر سلبية أخرى. وكان من عواقب ذلك تغلغل الروح الفوضوية إلى بنية المجتمع، مؤدِّية به إلى العجز عن تكوين قوة موحدة أمام الأخطار الوشيكة والمحدقة به من كل جهة[18].

لقد كان فتيل النزاعات يشتعل لأتفه الأسباب، وتذهب ضحيته عائلات بكاملها. فبسبب مقتل كلب دخلت عائلتان من إحدى القبائل في حرب إبادة، وكانت الحصيلة وفاة 42 شخصا من إحدى العائلتين، و62 من العائلة الأخرى. واستمر الصراع الدامي حتى لم يبق على قيد الحياة سوى الشيوخ والنساء والأطفال، ومن بقي حيا من الجهة المهزومة، وجب أن يغادر الريف. وللأخذ بالثأر، لم يكن الوقت يعني لهم شيئًا، فكلما سمحت الفرصة بذلك، يتمُّ الانقضاض على العدو[19].

لقد كان أول ما أقدم عليه ابن عبد الكريم حينما تولَّى القيادة؛ أن تناول كل تلك التقاليد القبلية بالإصلاح الجذري، فألغى الأعراف وأحل قوانين الشريعة الإسلامية. لقد كان في حاجة إلى جمع الناس حوله بخلق مجتمع منسجم تقل فيه التناقضات، وتقوى عوامل التلاحم، ولا يتحقَّق ذلك إلا بتوحيد القانون[20]. وفي سبيل ذلك قام بدعاية نشطة داخل قبيلته وفي القبائل المجاورة، وكان ينصح الريفيين بنسيان الأحقاد والخلافات التي تزرع الشقاق بينهم والتوحد لمحاربة إسبانيا التي تعتزم الدوس على ديانتهم واستباحة أملاكهم وانتهاك حرمة عائلاتهم[21].

وبالحدّة نفسها التي هاجم بها محمد بن عبد الكريم الخطابي النصارى، توجَّه بانتقاداته للمسلمين الفاسدين الذين كانوا يساعدون الأعداء للسيطرة على بلدهم،

وخاطب الخاصة (العلماء، وقادة القبائل) والعامة. ".. اعلموا أيها السادة العلماء أنه في حالة استمرار الاحتلال الذي يقوم به النصارى، فلن يساوي كل 10 مسلمين قيمة حمار"[22].

لم يكل الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ولم يمل من توجيه نداءات إلى بعض القبائل في منطقة الشمال أو زعمائها الذين كانوا يوالون المستعمر ويقاتلون إلى جانبه، ودعوتهم إلى الالتحاق بصفوف المقاومة[23].

ومع استفحال التغلغل العسكري الإسباني في منطقة الريف، برز الخطابي تدريجيًّا قائدًا للمقاومة، خاصة بعد وفاة والده عام 1920، مستفيدًا من خبرته الإدارية ومعرفته بالخطط العسكرية الحديثة. وفي عام 1921 قاد القوات الريفية إلى انتصار كبير على الجيش الإسباني في معركة أنوال، التي تُعدُّ من أبرز الهزائم التي مُني بها الاستعمار الأوروبي في أفريقيا خلال القرن 20. وقد مكّن هذا الانتصار الخطابي من توطيد نفوذه في الريف وإقامة كيان سياسي عرف باسم جمهورية الريف في 1923، سعى من خلاله إلى تنظيم الإدارة والقضاء وبناء مؤسسات سياسية وعسكرية حديثة.

إن الحقيقة التي لا سبيل لتجاهلها هي أن ابن عبد الكريم كان له سبق في فكرة أساسية، وهي تغيير بنيات الحكم، أي المخزن التقليدي[24]، في اتجاه تحقيق الديمقراطية، وهذا ما سطرته الحركة الوطنية المغربية في برامجها الإصلاحية وسعت إلى إعماله[25].

ثانيًا – القيادة والاستراتيجية العسكرية

كان الخطابي ابن ساعته مدركا للسياق المحلي والدولي. ففي رسالة عن التحرير بعنوان "رسالة إلى الأمم المتحضرة" بعث بها عام 1922 إلى عصبة الأمم، شدد على حق الشعوب في الحرية وتقرير المصير الذي نصت عليه مواثيق عصبة الأمم الحديثة العهد. وحث المنظمة والدول الأعضاء على تطبيق مبادئها في الدفاع عن الحضارة الإنسانية في الريف، وإيقاف العدوان الإسباني على أرضه[26]. لقد شكلت تلك الرؤية السياسية المحددَ الرئيسي للاستراتيجية العسكرية لتحرير الريف من الاستعمار[27].

بدأ محمد بن عبد الكريم الخطابي الإعداد الاستراتيجي لمواجهة المستعمر منذ عام 1913، نتيجة احتلال الإسبان لمدينة تطوان، وتعيين الجنرال ألفارو نافارو (Alvaro Navarro) مقيمًا عامًّا لإسبانيا في المغرب الإسباني. قاد الجنرال الحملة العسكرية، وارتكب جنوده فظائع وجرائم ضد السكان، ما جعل الخطابي الأب يستشعر خطر الغزو الإسباني الداهم[28]. وبعد احتلال الإسبان أكثر من 90٪ من أرض الريف في 1919، وإخضاع معظم القبائل لسيطرتها، برزت قبائل، ومنها آيت وياغل وبني تمسمان، قوة عصية عن الخضوع للمستعمر، وشكلت القبيلتان معًا النواة الصلبة لجيش التحالف القبلي لمواجهة الجيش الإسباني. وهكذا بدأت المقاومة المنظمة تحت قيادة الخطابي الأب[29].

في 20 سبتمبر/ أيلول 1920، انعقد "معسكر التجمُّع الوطني" الذي دعا إليه الخطابي قبيلته وقبيلتي بقيوة وتمسمان في جبل القامة، وهو موقع استراتيجي لمراقبة العدو. يُعدُّ ذلك الاجتماع اللبنة الأساسية في صرح المقاومة الريفية التي اندلعت بعده بأشهر. في بداية الأمر لم يستجب للخطابي إلا 15 شخصا، وبعد أسبوعين توافد عليه في المعسكر نحو 300 من أعيان وشخصيات الريف. وكانت القضية المركزية في النقاش هي توحيد الصفوف ضد الأعداء وتحرير الوطن من الاستعمار. وقد انبثقت مشاريع متعدّدة تهدف إلى تأسيس الجمهورية الريفية، والتي أقرت بالإجماع يوم 15 ديسمبر/ كانون الأول 1920[30]. وبعد ذلك بدأت حركة تنزيل المشاريع، ونشر الوعي بتوحيد الصف، والدعوة إلى المقاومة من أجل الحرية والكرامة، فبدأت دعوة الناس في الأسواق إلى الانضواء تحت راية المقاومة. وفي المؤتمر الذي عقده الخطابي يوم 21 فبراير/ شباط 2021 في إمزورن وحضره 500 مجاهد، دعا الحاضرين إلى الجهاد ومحاربة الاستعمار الإسباني، وإلى الاتحاد وتوحيد الصف. وأجمعت القبائل على مبايعة الخطابي أميرا للجهاد[31].

بعد تنظيم الخطابي للقبائل الريفية إلى وحدات عشائرية، وفرق قتالية تحت رئاسة قادة القبائل، عمد الزعيم إلى تنظيم الأسر تنظيما مدنيا عصريا. وقد اتسم تنظيم المقاومة بهيكل يستجيب للأهداف العسكرية والمدنية، وتنوعت الأجهزة

والأدوار، مثل القيادة العليا للمجاهدين، الجيش، والحرس، وجهاز الاستخبارات، وحفاظ المحاكم المدنية..

وعن هذ التنظيم الدقيق الذي أحدثه الخطابي، قال مراسل "لوجورنال" (Le Journal) الفرنسية: "وُجدت فرنسا أمام جيش قوي متشبع بشجاعة وحماية، يقوده زعيم بارع محاط بهيئة أركان حرب راقية، ولديه منظمة للمخابرات يعرف بواسطتها ما كان وما سيكون. وقد أجمع الضباط الفرنسيون على أن قلم المخابرات الريفي لا تفوته شاردة ولا واردة". ونقل ذلك المراسل من حديث له مع المقيم العام الفرنسي في المغرب المارشال ليوطي (Lyautey) قوله: "يجب على الصحافة الفرنسية أن تحذر مما تكتبه؛ لأن قلم المخابرات الريفي منظم على أحسن منوال، وهو يتلقَّى قصاصات بجميع المقالات والأخبار، التي تنشرها صحف العالم كله عن الشؤون التي لها علاقة بالريف. نحن نواجه حربًا جدِّية، وعلينا أن نتخذ الاحتياطات التي اتخذناها في الميدان الفرنسي خلال الحرب العظمى"[32].

أتقن الخطابي التخطيط بجميع أنواعه لتحقيق أهداف المقاومة، سواء على المدى القريب أم البعيد، أو على مستوى أنواع استراتيجية المؤسسات والوظائف ومجالات الاستعمال، وفي التخطيط الحربي الذي يُعدُّ فيه تحديد مكان المعركة أولوية قصوى. وبهذه الرؤية الحربية والسياسية، كان الخطابي يشدِّد على اختيار أماكن القتال، وتحصينها بالمخابئ، ورفع مستوى اليقظة بعد الإنزال بها. وفي رسالة إلى أحد قادته يقول الخطابي: ".. فكن على بال، ولا تغفل عن التضييق بالعدو بهدم ما هنالك من القناطر..، والنزول بطرف الطريق لتنقطع مواصلته، وكذلك بين القشالي]الثكنات[، الذي لجهة أشروظة وإعمال المجاهدين في قطع طريقهم، كي تقطع عنهم الماء والزاد والمدد، وإياك والغفلة طرفة عين.."[33].

لقد استفادت المقاومة الريفية من تقنيات الاتصال الحديثة ومنها الهاتف، إذ أمر الخطابي قيادة الأركان الحرب بأن تنظم فرقا من الفدائيين للتسرب ليلا في مناطق العدو وقطع الأسلاك التليفونية قصد استعمالها لمصلحة المجاهدين. كما كلّف البعض بجلب المواد التليفونية من السوق السوداء ناحية وجدة وطنجة، لإنشاء فريق من التقنيين في مصالح التليفون وبعض الأسرى الإسبان، مهمتهم

تدريب بعض الأهالي على الإصلاحات المخصصة لذلك. وفي أقل من 3 أشهر كانت الاتصالات التليفونية قائمة بين عدد من المراكز الرئيسية، والمحاكم المدنية، ومركز القيادة[34]. وفي هذا الصدد، أكَّد وولمان (Woolman) أن الآلة السياسية والعسكرية التي أسَّسها الأخوان عبد الكريم في الريف نتاج تخطيط محكم. ولم يغفل قادة الريف قط عن محدودية مواردهم البشرية والغذائية والإمدادات العامة، لكنهم أدركوا كذلك أن لديهم ميزتين عسكريتين عظيمتين: كانوا يعرفون خصومهم الإسبان معرفة تامة، وكانوا يقاتلون على أراضٍ يعرفونها جيدًا[35]. ووفقًا للجغرافي الفرنسي إيف لاكوست، فإن التحكم في الفضاء الجغرافي يجعل منه أداة استراتيجية حاسمة لشن الحرب[36]، وهذا ما برعت فيه المقاومة الريفية.

استطاع الخطابي في وقت قياسي لا يتعدى 7 أشهر، أن يصنع وحدة قوية قادرة على الدخول في المواجهة الحربية مع المستعمر الإسباني. وعمل بالليل والنهار على إيقاظ همم المقاومين، وتكوينهم، وتدريبهم على فنون الحرب التي اكتسبها من والده ومن النخبة العسكرية الإسبانية خلال مقامه بمدينة مليلية. وتمكَّن من تدريب 1500 رجل، بنحو 150 بندقية من طراز موزير، ومعها 200 طلقة[37]. كان يشرح لهم أساليب الحرب الحديثة وكيفية المقاومة بصورة فردية وجماعية خلال الدفاع والهجوم على العدو.

كان مشروع الخطابي يجمع بين التربية والتنظيم والمقاومة، وانصب مجهوده على ربط الدين والإيمان والأخلاق والعزيمة بالحرية، وكان يخاطبهم خلال التدريب العسكري "إن المحارب الحقيقي ينبغي ألا يكون جسدا بلا روح.. أقصد أن المحارب الحقيقي يجب أن يعرف القضية التي سيدافع عنها، والهدف الذي من أجله يجب أن يثبت ويستميت، فهل تعرفون قضيتكم؟ وهل تعرفون هدفكم؟"، فأجابوه "نعم، نعلم أننا إذا فقدنا الحرية فإننا نفقد كل مقومات وجودنا من دين وأخلاق وصدق وكرامة، هذه قضيتنا، أما هدفنا فهو مقاومة العدو الذي يهدِّد هذه الحرية"[38].

اهتمَّت الأدبيات عن المقاومة الريفية اهتمامًا كبيرًا بالأساليب (التكتيكات) القتالية التي اعتمدتها في مواجهة التفوُّق العددي والتقني للعدو. وقد أحصى منها أحد الباحثين 8 أساليب، وهي: استغلال التضاريس، التحصين والخنادق، الإخفاء

والتمويه، الحصار، مواجهة المدرعات، القتال عن قرب (ما تسمِّيه المقاومة اليوم في فلسطين ولبنان "المسافة صفر")، الكمائن، والحركة والمرونة[39]. وفي الجدول الآتي تحليل لتلك الأساليب:

الفئة	الوصف	الهدف العسكري	آليات التنفيذ
استغلال التضاريس	اتخاذ الجبال والمنحدرات والشجيرات والصخور كغطاء لإطلاق النار	التمويه وإرباك العدو	التموضع في المرتفعات والاختباء الطبيعي
التحصين والخنادق	استعمال الخنادق وحفر كهوف في السفوح، وإنشاء حلقتين من الخنادق حول المواقع	الدفاع ومنع الإمداد	حفر خنادق مزدوجة وتحصينات ميدانية
الإخفاء والتمويه	استخدام متاريس صخرية وبنادق بلا دخان وإخفاء المدافع في الكهوف واستعمالها ليلا	تقليل الانكشاف	تمويه بصري وتقني واستغلال ظلام الليل
الحصار	تطويق المواقع الصغيرة ومحاولة اقتحامها أو استنزافها حتى نفاد الموارد	إنهاك العدو وإجباره على الاستسلام	قطع الماء والذخيرة وانتظار الانهيار
مواجهة المدرعات	استهداف فتحات الرؤية أو إحراق العربات بعد الاقتراب منها	تعطيل التفوُّق التقني للعدو	إطلاق نار مركز ثم هجوم قريب بالقنابل
القتال عن قرب (المسافة صفر)	استخدام الحربة مقابل السكين في الاشتباك المباشر	الحسم السريع للاشتباك	هجوم مباشر قائم على الجرأة
الكمائن	تنفيذ هجمات مباغتة مع التركيز على الطليعة	إحداث الذعر وشلّ الحركة	استهداف العناصر المتقدِّمة
الحركة والمرونة	اعتماد الهجوم المفاجئ والتراجع المتدرج والتسلل ومنع التعزيزات	الحفاظ على المبادرة العملياتية	ضرب خطوط الإمداد والتسلل

يذكر وولمان، وهو من الباحثين البارزين في حرب الريف، أن استراتيجية محمد عبد الكريم وتكتيكاته اتسمت بالبساطة والفعالية في آن واحد. وقد أثبتت تلك الأساليب فاعلية كبيرة، ولا سيما خلال معركة أنوال. وفي 3 مايو/ أيار 1925، لم يتمكَّن الجنرال الفرنسي كولومبا (Colombat)، من اختراق خنادق المقاومة التي تحيط بمنطقة البيبان، رغم القتال لمدة 6 ساعات.

كما أن رجال القبائل لم يكونوا - متى أمكنهم ذلك - يقاتلون ضمن تشكيلات كبيرة، بل كانوا يفضِّلون شن الهجمات انطلاقًا من مواقع طبيعية توفِّر لهم الحماية، مثل الصخور والأشجار والتلال. أما عند الانسحاب، فكان من شبه المستحيل تطويقهم أو أسرهم، لأنهم كانوا ينسحبون سريعًا ويختفون في الجبال التي يعرفونها جيدًا[40]. وعن أسلوب القتال بالحراب، وهو أسلوب فريد في نوعه برعت المقاومة الريفية فيه، نجد وصفا له عند مارتن ويندرو (Windrow Martin)، وهو أسلوب ينهك العدو ويثخن فيه[41].

من الحقائق التي لا جدال فيها أن الأساليب العسكرية التي اعتمدتها المقاومة الريفية كانت مفاجئة للعدو، وأثارت إعجاب الجنود والضباط ذوي الرتب العالية. فخلال حملة المرس في 24 يونيو/ حزيران 1923، التي منيت فيها القوات الفرنسية بنحو 200 إصابة، وأظهر فيها الريفيون مهارة لافتة في المناورة. وادعى البعض أن المقاومة كانت تحت قيادة أوروبية، لكن ويندرو أكَّد أن الريفيين إنما يدينون بسجلهم القتالي المميز أساسًا إلى قياداتهم الذاتية وإمكاناتهم الخاصة. ومن أكثر الجوانب التي أثارت قلق الفرنسيين وأرهقتهم، القدرة الاستثنائية التي امتلكها رجال القبائل الريفية على التسلل إلى مواقعهم. وقد أفاد رجال شاركوا في القتال ضمن صفوف الفيلق الأجنبي الفرنسي خلال حرب الريف، أن خسائر الفيلق الناجمة عن ذلك النوع من الهجمات كانت جسيمة، إلى حد أن السلطات لم تجرؤ على إعلان حقيقتها كاملة. وفي هذا الصدد نقل عن نقيب فرنسي قوله إن الفيلق، على ما عُرف عنه من شراسة، وجد في الريفيين خصمًا مكافئًا له[42].

يصف الكاتب الإسباني خوان باندو (Juan Pando)، أحد أكبر المهتمين بقضايا المغرب وخاصة منطقة الريف، المقاتل الريفي بقوله: "لم يكن الريفيون

كالألمان طبعًا، لكن عداوتهم كانت أسوأ، حقًّا لا يتوفَّرون على قوات جوية، ولا على مدفعية أو رشاشات أو قاذفات هاون، ولم تكن في حوزتهم دبابات ولا قذائف غازية، وكانوا يفتقرون إلى هيئة ضباط جيش عليا، إلا أنهم كانوا مهرة في تصويب السلاح مهارة شيطانية، وكانت لهم شراسة ومقاومة خيالية أثارت دهشة الجندي الأوروبي أثناء القتال"[43].

وأكَّد باحثان ألمانيان، وضعا كتابا عن ألمانيا وإسبانيا والحرب الكيماوية ضد عبد الكريم، أن الجيش الإسباني فشل في مواجهة حرب العصابات التي اعتمدها رجال قبائل الريف، كما عجز عن كسر شجاعتهم وإصرارهم، ولم يتمكَّن من إخضاع السكان المحليين رغم تفوُّقه العددي الواضح.

ولم تكن فرنسا، بعد دخولها الحرب خلال عامي 1924 و1925، أكثر نجاحًا من شريكتها في نظام الحماية بالمغرب؛ فعلى الرغم من أن جيشها كان أفضل تنظيمًا وتسليحًا وقيادة، فضلًا عن امتلاكه خبرة عسكرية معتبرة اكتسبها من الحرب العالمية الأولى، فإن مواجهته للمقاتلين الريفيين استلزمت منه جهدًا كبيرًا وكشفت صعوبة حسم المعركة ضدهم بسهولة.

وفي هذا الصدد، كتب ضابطان في الطيران الحربي الألماني عقب زيارة ميدانية سرية قاما بها عام 1925، بشيء من الرضى والارتياح للمصاعب التي كانت تواجه العدو التاريخي في المغرب: "هنا عثرت قوة بحجم فرنسا على ندها"، وأوضحا أسباب تلك الصعوبات بالقول: "في المغرب، يدافع شعب لم يسبق له أن خضع لأحد أبدا، عن حريته بتفانٍ ضد عدو متفوِّق عدديًّا، ومسلح بتقنيات حربية متطورة. تسانده في معركته طبيعة أرضه التي تجعل استخدام التقنيات الحربية المتقدِّمة والأسلحة المتطورة صعبًا للغاية، والعمليات العسكرية الكبرى غير ممكنة نظرًا للانعدام الكلِّي للبنيات الأساسية، كالسكك الحديدية والممرات والطرق. المعركة التي تخوضها فرنسا وإسبانيا في المغرب ليست ضد عبد الكريم فحسب، إنما كذلك ضد طبيعة أرض يعتبر فيها الماء أغلى من الدم. ما نعاينه اليوم في المغرب هو كيف أن شعبا راضيا بحياته البسيطة إلى أقصى الحدود، شديد المراس، غير مسلح بما فيه الكفاية، بدون تكوين عسكري عصري تحفزه رغبته الجامحة في

الحرية ويستوحي قوته من فكرة دينية تُعدُّ السقوط في المعركة أسمى ما قد يدركه المرء في حياته؛ نعاين كيف يقتلع هذا الشعب في معركته من أجل حريته شيئًا فشيئًا، عدوًّا متفوِّقًا عدديًّا وتقنيًّا من أرضه، إنه نموذج لانتصار المعنويات على الآليات"[44].

وها هو المارشال الفرنسي فيليب پيتان (Philippe Pétain)، أحد أكبر رجالات فرنسا العسكريين، وأشدّهم للحرب مراسًا، يقرُّ بقوة المقاومة الريفية ويشيد بها. فبعدما أوفده الحزب الاستعماري إلى المغرب نظرًا للمشاكل العسكرية التي كانت تتخبَّط فيها فرنسا هناك، قال بطل معركة فردان (Verdun) خلال الحرب العالمية الأولى في تقرير له إلى حكومته، إن الريفيين أشرس الأعداء الذين واجهتهم فرنسا في تاريخها الاستعماري، وإنهم شجعان وأقوياء ومدربون على حمل السلاح وكثيرو الحركة، فضلًا عن معرفتهم الجيدة بالأراضي الجبلية الوعرة التي يقاتلون عليها[45].

ثالثًا – انتصارات المقاومة الريفية

1. أنوال.. معجزة المقاومة وكارثة إسبانيا

رأت المقاومة الريفية انتصارها في معركة "أنوال" على أنه معجزة مطلقة، بينما رأت إسبانيا في تلك الهزيمة النكراء، خاصة النخبة السياسية والعسكرية، كارثة العام (Desastre de Anual). وقد جاء ذلك في سياق كانت فيه الثقة الإسبانية في أوجها؛ إذ أخبر الجنرال بيرينغير وزير الحرب إيزا (Eza) بأن احتلال مدينة الحسيمة وإخضاع قبيلة الخطابي بني ورياغل القوية سيغدو مهمة سهلة. وقد استقبل إيزا التقرير بارتياح كبير حتى إنه ضحك قائلًا: "إن إمبراطورية جديدة كانت تبدو وكأنها تتشكَّل على أعتاب إسبانيا"[46].

وفي الظاهر على الأقل، بدأ كل شيء خلال صيف 1921. فبينما كان الفرنسيون في الجنوب يثبتون سيطرتهم على معظم المغرب، كان الإسبان في شمال البلاد لا يزالون يعملون على غزو نصيبهم من الأرض الممنوحة لهم. وكانت

الأمور تسير على نحو يبدو مطمئنًا، بل إن الجيشين الإسبانيين العاملين بشكل منفصل، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، كانا على وشك بلوغ أهدافهما. غير أن جيش الجبهة الشرقية سُحق فجأة عن آخره، رغم أن عدده بلغ 20 ألف جندي، وانسحب تاركًا الأرض مغطاة بجثث ضحاياه، ومخلّفًا للخصم ذخائره الحربية ومخزوناته الغذائية.

وقد استُقبل هذا الحدث بموجة من الذهول في إسبانيا وفي العالم، ولا سيما أن الخصم كان يُنظر إليه على أنه مجرد جماعات من الفلاحين، سيئة التسليح، لا تكاد تطلق النار حتى تفر. ولتفسير هذه الهزيمة، عزت الأوساط الاستعمارية الأمر إلى الاندفاع الطائش لقائد الجيش، الجنرال سلفستري، الذي لقي مصرعه بدوره خلال المعركة، أو إلى تهاون الجيش الإسباني[47].

وقبل أن تبلغ المواجهة ذروتها في أنوال، حقَّقت المقاومة انتصارين في يوم واحد، ففي الهجوم المفاجئ الذي شُنّ يوم 2 يونيو/ حزيران 1921 على أدهار أوباران، قُتل معظم الجنود الإسبان، كما هُزمت قوات الجنرال سيلفستري في سيدي إدريس. وقد شجعت تلك الانتصارات أعدادًا متزايدة من الرجال على الالتحاق بقوات الخطابي. ومع ذلك، لم يكن أيٌّ من تلك الانتصارات في مستوى الانتصار الذي تحقَّق في أنوال يوم 17 يوليو/ تموز، واستمر خمسة أيام. وتشير المصادر إلى تباينات كبيرة في تقدير عدد قوات الطرفين، إذ تتراوح تقديرات عدد القوات الإسبانية بين 25 و30 ألفا، في حين قُدّر عدد الريفيين بين 3000 و6000 مقاتل.

لقد مني الجيش الإسباني بأكبر هزيمة في تاريخه وأكثرها إذلالا، فبعد سقوط المواقع الأمامية، أمر الجنرال سيلفستري جنوده بالتراجع إلى مليلية، الأمر الذي تسبَّب في انتشار الذعر بينهم وفرارهم الجماعي، تاركين وراءهم كل شيء، بما في ذلك القتلى والجرحى والسلاح والعتاد. وأصبح همّ الجنود الوحيد النجاة بأنفسهم والاحتماء خلف أسوار مدينة مليلية الساحلية، من استطاع إلى ذلك سبيلًا. ويقدم الكاتب رامون سيندير (Ramon J Sender)، في روايته الوثائقية "إيمان" (Iman)، صورة مروعة عن تلك الهزيمة التي زعزعت الجيش والشعب الإسبانيين[48].

تتباين تقديرات الخسائر الإسبانية في كارثة أنوال تباينًا لافتًا باختلاف المصادر، إذ يُقدَّر الحد الأدنى بنحو 10 آلاف قتيل، بينما ترفع تقديرات أخرى العدد إلى ما بين 13 و19 ألفا، بل إلى حدود 35 ألفا في بعض الروايات. وتشير بعض الشهادات إلى فداحة الخسائر في معارك جزئية، مثل أغريبين، فضلًا عن أسر عدد من كبار القادة. ولم تقتصر الهزيمة على الخسائر البشرية، بل شملت كذلك فقدان كميات معتبرة من الأسلحة والمؤن، واستيلاء القوات الريفية على المدفعية، إلى جانب خسارة إسبانيا للجزء الشرقي من منطقة الحماية[49]. وعندما قتل الجنرال سيلفستري في موقعة أنوال، تولَّى الجنرال نفارو قيادة الجبهة الشرقية، فسقط أسيرا بأركان حربه بعد مذبحة جبل العروي يوم 9 أغسطس/آب 1921، وأمر الخطابي بالمحافظة على كرامة الجنرال الأسير ومعاملته على أساس مكانته العسكرية. وبعدما استقبله الخطابي بين جنوده، قال له الجنرال نافارو: "بأخلاقك تنتصر علينا يا عبد الكريم"[50].

2. الحرب ضد فرنسا

في إطار إدارته للصراع، كانت الحرب مع فرنسا آخر شيء يريده الخطابي، لأن حكومة الريف كانت تدرك الصعوبات التي ينطوي عليها أي عمل ضد دولة أغنى بكثير وأكثر كفاءة وقدرة من إسبانيا في كل النواحي. ومع ذلك، كان الصراع بين الريفيين والفرنسيين أمرًا لا مفر منه. فخلال شتاء عام 1924 واجه عبد الكريم وحكومة الريف لأول مرة مشكلة الجيش الفرنسي في المغرب. وفي 13 أبريل/نيسان 1925، شن عبد الكريم هجومًا مدبرًا بعناية على المواقع الفرنسية على طول نهر ورغة. في غضون ذلك، كان الفرنسيون يشعرون بالاطمئنان إلى أنهم جنود متفوِّقون، وأن خطَّ ورغة الخاص بهم قادر على صدِّ أي هجوم قد يشنّه عبد الكريم. صرَّح وزير الخارجية أريستيد بريان (Aristide Briand) للمراسل الأميركي بول سكوت موورر (Paul Scott Mowrer): "لقد رأيت عبد الكريم العظيم. نحن نعرف هؤلاء الزعماء المحليين جيدًا. إنهم أناس بسطاء حقًّا. إذا عوملوا بشكل صحيح، فإنهم يستجيبون للطف. وبالطبع، لا توجد أدنى فرصة أن

يهاجمنا هذا الرجل أبدًا". الآن، وجد الفرنسيون أنفسهم عالقين في أكثر المعارك دموية التي واجهوها في شمال أفريقيا[51].

كان اتخاذ الخطابي قرار الهجوم على الفرنسيين بضغط من المقاومة الريفية، واعترف الزعيم الريفي لاحقًا أن ذلك القرار كان أكبر خطأ استراتيجي في مسيرته العسكرية؛ لأنه لم يكن يتوقع أن القوتين الإمبرياليتين المتنافستين ستُوحدان في النهاية قوتهما البشرية ومواردهما ضده. فبدافع اليأس والخوف من خسارة حتى مدينة فاس، لم يجد المقيم العام الفرنسي في المغرب المارشال ليوطي (Lyautey) أي حل آخر سوى القيام بعملية مشتركة مع الإسبان لهزيمة المقاومة الريفية[52]. لقد كان ليوطي يمثل في نظر العالم رمزا حيًّا لنجاح المشروع الاستعماري. فعند أول التحام بهذا الجيش، كان يبدو بالطبع أن دولة الريفيين المتواضعة الشأن ستنهار عن آخرها، لذا فإن الكلمات تعجز عن التعبير عن الذهول العام لرؤية الفرنسيين ينهزمون بدورهم، ويتقهقرون ويتعثرون، بشكل أقوى مما حدث للإسبان قبلهم، إلى حد أن مدن فاس وتازة ووزان أصبحت مهدّدة[53].

أثارت الانتصارات التي حقَّقتها المقاومة الريفية بقيادة الخطابي قلق القوى الأوروبية، لأنها رأت فيها تهديدًا مباشرًا للتوازنات التي استند إليها المشروع الاستعماري في المنطقة وفي غيرها من أنحاء العالم. لذلك، لم تتردد فرنسا وإسبانيا في توحيد جهودهما العسكرية من أجل القضاء على هذه المقاومة، التي غدت، في نظر كثير من الباحثين، واحدة من أبرز حركات الكفاح المسلح في التاريخ الاستعماري خلال النصف الأول من القرن 20.

رابعًا – التحالف الإمبريالي وأول حرب كيماوية جوية في التاريخ

كانت حرب الريف أول مواجهة عسكرية في التاريخ تمَّ حسمها بسلاح الغاز، خلافا للاعتقاد السائد إلى اليوم، بأن المرة الأولى كانت في الحرب الإيطالية بالحبشة عامي 1935 و1936. فقد بات الآن جليًّا أن الاستخدام العسكري الناجح للسلاح الكيماوي في شمال المغرب لم يكن سابقة في تاريخ الحروب فحسب، بل كان كذلك نموذجًا سرِّيًّا اقتدى به الجيش الإيطالي في حملته على شرق أفريقيا[54].

لـم يكـن إخمـاد المقاومـة الريفيـة ممكنـا لـولا تحـالف القـوى الإمبرياليـة ضدها، واستخدام أسلحة متطورة، وبـالأخص الأسـلحة الكيماويـة، ذلـك الجانـب المُهمَـل في تـاريخ الحـروب الاسـتعمارية الـذي تناولـه المـؤرخ سيباسـتيان بلفـور (Sebastian Balfour) في كتابه "العناق المميت" الذي يُعدُّ أول كتـاب تنـاول بشـكل منهجي وموثّق استخدام إسبانيا الأسلحة الكيميائية خلال حرب الريف. وقد أثبـت المؤلـف اعتمـادا علـى وثـائق عسـكرية مـن إسـبانيا وفرنسـا وبريطانيـا، فضـلًا عـن شهادات ضحايا مغاربة، أن استخدام غاز الخردل كان على نطاق واسـع بـين عـامي 1921 و1927، وبلغ الذروة بين عـامي 1924 و1926، مسـتهدفًا المـدنيين والمقـاتلين علـى حـد سـواء، مخلّفًـا آثـارًا صـحية وبيئيـة خطـرة، مـن بينهـا انتشـار أمـراض سرطانية[55].

يقول أحد ضحايا تلك الحرب مـن أهـل الريـف في مذكراتـه: "لـم يكـن العـدو الإسباني يكتفي بالأسلحة التقليدية المدمرة، بل صمموا العزم على استعمال سلاح فتاك مبيد للإنتاج الفلاحي، وراحوا يستعملونه لإفناء الماشية والدواب، هذا فضـلًا عن دسِّ السموم في الأحواض الارتوازية، إلى مـا هنالـك مـن فتائـل محرقـة تشـوي النبات شيا"[56].

كما كشف بلفور الصمت السياسي والتـاريخي الممنهج إزاء تلـك الجـرائم، وربـط ذلـك بمـا يُعـرف باسـم "ميثـاق النسـيان"، الـذي أعـاق الوصـول إلـى مصـادرَ تاريخية حساسة. ويفسر بلفـور، وفي سـياق أوسـع، لجـوء القـوى الاسـتعمارية إلـى العنف المفرط، بما يشمل الحـرب الكيماويـة؛ بكونهـا كانـت تتعامـل مـع الشـعوب المستعمَرة بمعـايير مختلفـة، فقـد كانـت تراهـا أقـل "تحضـرًا" يجـوز في حقِّهـا مـا لا يجوز في حقِّ الأمم "المتحضرة"، دون أن يرف لها جفن. فها هـو ونسـتون تشرتشـل لما رأى تردُّد حكومة بلاده قبل استخدام الأسـلحة الكيماويـة خـلال ثـورة 1920 في العراق، صرَّح قائلًا: "لا أفهـم هـذا التحفُّظ بشـأن اسـتخدام الغـاز.. أنـا أؤيِّـد بشـدة استخدام الغازات السامة ضد القبائل غير المتحضرة".

وخلص بلفور إلى أن حرب الريف شـهدت تصـعيدًا نوعيًّـا في العنـف، خاصـة بعد كارثة أنوال عام 1921، إذ انتقلت السياسات الاستعمارية إلى نهج عسكري قائم

على الحسم بأي وسيلة، بما فيها استخدام أسلحة محرّمة دوليًّا[57]. وهذا ما يؤكِّده وزير خارجية حكومة الريف، محمد أزرقان: "وفي أثناء حصار المجاهدين للمواقع التي اهتموا بالاستيلاء عليها في تفرسيت، اضطر المجاهدون للتأخر إلى الوراء بما رماهم به عدوهم من كل جانب بالغاز الخانق، ومات من المسلمين نحو 250"[58].

ما إن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى شرعت فرنسا في تسليح إسبانيا لتجعل منها قوة كيماوية، ودربت 300 جندي إسباني على الحرب الكيماوية فوق أراضيها، وهي التي رأت في استخدام ألمانيا للسلاح الكيماوي بالأمس القريب "جريمة حرب". ووفقًا لما ذكرته صحيفة "The Times" بتاريخ 21 يوليو/ تموز 1925، فإن القوات الفرنسية استخدمت أيضا سلاح الغاز. ويتجلَّى بوضوح مدى أخذ القيادة الفرنسية الوضع في الريف على محمل الجد؛ في غض الطرف عن انتهاك معاهدة فرساي حتى في مسألة حساسة مثل حظر الأسلحة الكيماوية، إذ سمحت لشركة ألمانية أن تكون المزود الرئيسي للإسبان بتكنولوجيا سلاح الغاز[59].

بعد معركة أنوال، كانت النداءات الحاثة على الحرب تزداد إلحاحا في إسبانيا. لقد كانت الرغبة في الانتقام وإنزال العقاب الشديد بالريفيين قوية جدا، فعلاوة على القصف بالقنابل التقليدية، فإن فكرة استخدام الغازات السامة أصبحت تفرض نفسها تدريجيًّا بعد أنوال. وهكذا، لم تكن صحافة أقصى اليمين في إسبانيا هي وحدها التي طالبت باستخدامه بهدف إبادة العدو ونشر الرعب بين السكان، إنما كذلك صحف مثل "هيرالدو دي مدريد" (Heraldo de Madrid): "من اللازم تزويد جيشنا بالعتاد الحربي الأكثر حداثة [...] الطائرات والغازات الخانقة وقاذفات الألغام وكل ما اخترعه العلم من وسائل للقضاء على الأعداء وإثارة الرعب والفزع في نفوسهم"[60].

إن النظر إلى الريفيين على أنهم وباء ينبغي استئصاله كان ماثلا في ذهن كثيرين، إذ صرح الملك الإسباني ألفونسو الثالث عشر بأن موقف عبد الكريم في تلك الفترة كان يثير في نفسه "أكبر المخاوف". ولتجنب "كارثة حقيقية"، فقد كان الحل وفقًا للملك، في تعاون طيران البلدين الإسباني والفرنسي الذي ينبغي أن ينفذ "قصفًا

مكثّفًا ومتواصلًا بواسطة الغازات السامة الأكثر إيذاء وفتكا ضد القبائل الواقعة في قلب الريف نفسه"، "ما يهم هو إبادة بني ورياغل والقبائل التي تميل إلى محمد بن عبد الكريم كما لو كانت حيوانات مضرة"[61].

لقد كان الوضع في منتهى الخطورة، ودفع حكومة الريف إلى الاستغاثة باللجنة الدولية للصليب الأحمر. لكن فرنسا، حالت دون تحرُّك اللجنة رغم استغاثة قيادة المقاومة غير مرة. وفي الوقت الذي كان فيه المغرب يُمطر بالقنابل والقذائف الكيماوية وبلغ استخدامها ذروته، وقعت فرنسا وإسبانيا بروتوكول جنيف 1925 الذي يمنع استخدامها[62].

التحالف الفرنسي الإسباني ونهاية المقاومة

بادرت فرنسا، بعد انهزام المقيم العام المارشال ليوطي أمام الريفيين، إلى تعويضه في أوج المعركة ببيتان (Petain)، المارشال الأكثر شهرة منه، والذي يذكّرنا اختياره بمعركة فردان خلال الحرب العالمية الأولى. وكان انسحاب فرنسا من إقليم الرور في الوقت المناسب ليمكنها من حشد جيش عرمرم على طول 300 كلم. كما أنها عقدت تحالفا مستعجلا مع إسبانيا التي كانت تتوافر على عدد مماثل من الجنود[63].

شنت القوتان الاستعماريتان في صيف 1925، هجومًا كبيرًا على المقاومة الريفية. ورغم المقاومة الشرسة، تمكَّنت الوحدات الفرنسية المتفوِّقة عدديًّا من إرغام المقاومة على التراجع، وفي شهر أغسطس/آب التحمت القوتان في الجزء الغربي من منطقة الحماية الإسبانية. وفي 7 سبتمبر/أيلول 1925، احتشد قبالة خليج الحسيمة؛ أسطول بحري يتكون من 36 سفينة حربية إسبانية، ضمنه حاملة طائرات و63 ناقلة جنود، علاوة على 100 طائرة. وقد أقدم الجيش الإسباني على تنفيذ عملية الإنزال التي خطط لها منذ فترة طويلة. وكان كل جندي إسباني من القوات الغازية مزوّدًا بقناع واق من الغازات، وكانت سفن النقل محملة بمخزون ضخم من القنابل والأسلحة الكيماوية. لقد بلغ عدد القوات الإسبانية الفرنسية التي شاركت في الهجوم على المقاومة 250 ألف جندي مقابل 12 ألف ريفي، أي واحد مقابل أربعين[64].

هاجم الإسبان أجدير هجومًا غاشمًا مدفوعًا بالرغبة في الانتقام من الإذلال الذي تجرَّعوا مرارته سنين عددًا. وقد وصف أهوال ذلك الهجوم وزير خارجية حكومة الريف، محمد أزرقان في مذكراته وصفا بليغا؛ فقد استشهد كل المدافعين عن أجدير "بما كانت تلقيه عليهم الطيارات من الصواعق والخانقات والمسمومات، وما تقذفه المراكب الحربية من المدمرات، حتى كانت القيامة قائمة هناك بانفتاح البراكين النارية الإسبانية التي يحكم كل مَن سمع بها، فضلًا عمَّن حضرها، أنها خارجة عن العاطفة الإنسانية"[65].

لقد شنَّت القوى الإمبريالية تلك الحرب الخارجة عن العاطفة الإنسانية؛ لأنها كانت ترى في قيام جمهورية إسلامية بمنطقة الريف شمالي المغرب تحدِّيًا كبيرًا لهيمنتها، وفي الوقت نفسه تهديدا للمصالح الاستراتيجية للقوى العظمى في حوض البحر الأبيض المتوسط[66].

لما رأى الخطابي تحالف القوى الإمبريالية ضده واستعانتها بأحدث الأسلحة الفتاكة في حرب إبادة غاشمة ضد المدنيين، دعا إلى حل تفاوضي، لكن مؤتمر مدينة وجدة شرقي المغرب، انتهى بالفشل لأن الإسبان والفرنسيين طالبوا باستسلام غير مشروط للمقاومة، وكانوا يسعون من وراء المفاوضات إلى كسب الوقت استعدادًا للهجوم النهائي على أجدير عاصمة المقاومة، وهذا ما كان. فآثر الأمير الاستسلام للفرنسيين في 1926 بعد مفاوضات معهم، لكنهم نقضوا كل العهود التي قطعوها له، فنفوه مع أسرته وبعض معاونيه إلى جزيرة لاريونيون (La Réunion) في المحيط الهندي، حيث قضى عقدين. لكن قساوة النفي لم تفتّ من عضده، فعاد ليقارع الاستعمار والصهيونية من القاهرة، التي استطاع اللجوء إليها، إلى أن وافته المنية عام 1963.

خامسًا – التضامن العالمي مع المقاومة الريفية

نشأت في منتصف عشرينيات القرن الماضي شبكة معقدة من التضامن الدولي مع حركة التحرير الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، تداخلت فيها الدوافع الإنسانية بالأجندات السياسية العابرة للحدود. وهذا ما كشفت عنه وثائق

من الأرشيف البريطاني، مراسلات دبلوماسية رسمية صادرة عن السفارة الإسبانية بلندن، وتقارير مكتب الهند (دائرة حكومية بريطانية تأسَّست في 1858 لإدارة شؤون الهند البريطانية) وتقارير استخباراتية صادرة عن "نيو سكوتلاند يارد" (New Scotland Yard) بين عامي 1922 و1925. كما كشفت تلك الوثائق أسماء الشخصيات التي كانت تتولَّى تنسيق الدعم للمقاومة الريفية، والتحالفات، والآليات التي حركته.

تولَّى سيد أمير علي الذي كان عضوًا في اللجنة القضائية للمجلس الخاص البريطاني وحاصلًا على الدكتوراه الفخرية من كامبريدج[67]، دورًا محوريًّا من خلال رئاسته لجمعية الهلال الأحمر البريطاني؛ في تنسيق هذا الدعم، وهو ما جعل نشاطه يثير قلق السلطات الإسبانية.

سعى أمير علي إلى إرسال بعثات طبية ومساعدات للمقاومة الريفية وللأسرى الإسبان على حد سواء. ورغم تأكيده المستمر أن تحرُّكاته تنبع من منطلقات "إنسانية إسلامية" بحتة، فإن السلطات الإسبانية والبريطانية نظرت بريبة شديدة إلى تلك الأنشطة، ورأت فيها غطاءً لتعزيز فكرة الجامعة الإسلامية وتحريضًا ضد القوى الاستعمارية.

ولم يقتصر ذلك الدعم على النخبة القانونية، بل امتد ليشمل قاعدة عريضة من مسلمي الهند، إذ رصدت تقارير استخباراتية تمويلًا من الأغا خان ولجنة الخلافة المركزية، فضلًا عن مقترحات تنظيم فيالق من المتطوعين من البنغال لمساعدة "أبناء الريف البواسل". وقد أسهمت الصحافة الإسلامية الهندية، مثل جريدة "روزنامه خلافت"، في تأجيج ذلك الشعور عبر تصوير الحرب في المغرب على أنها صراع ديني ضد "القوى الأوروبية الشيطانية"، داعية إلى وحدة إسلامية لمواجهة التحالف الاستعماري.

ومن اللافت في تلك التحرُّكات وجود تحالف وثيق بين النشطاء المسلمين والعناصر الراديكالية والشيوعية في بريطانيا، فقد تعاون أمير علي مع "جون أرنال" (John Arnall)، وهو شيوعي بريطاني ومغامر، سعى للحصول على امتيازات في الريف وقد تولَّى تسهيل اتصالات مبعوثي عبد الكريم الخطابي في لندن، ومكاتبة

عصبة الأمم. كما سعى آرثر فيلد (Arthur Field)، وهو شيوعي معروف، إلى تنظيم "لجنة الدفاع عن الريف" بهدف تدويل القضية وإحراج الحكومة البريطانية والحكومات الأوروبية في المحافل الدولية، معتمدًا على دعم مالي من الهند. وقد شملت تلك الجهود محاولات عملية لتجاوز التفوُّق العسكري الاستعماري، مثل اقتراح تزويد الريفيين بأقنعة واقية من الغازات السامة لمواجهة القصف الجوي الكيماوي.

وفي المقابل، أظهرت المراسلات الرسمية بين السفير الإسباني ميري ديل فال (Merry del Val)، ووزير شؤون الهند، اللورد بيركنهيد (Lord Birkenhead)، تنسيقًا إمبرياليًّا لمحاصرة تلك الجهود. وهكذا حُرمت جمعية الهلال الأحمر البريطاني من الاعتراف بها منظمة دولية شرعية، مع تهميش دور أمير علي سياسيًّا داخل بريطانيا رغم الاعتراف بمكانته العلمية.

لقد تحوَّلت قضية الريف، كما تكشف الوثائق البريطانية، إلى نقطة التقاء للمصالح المناهضة للإمبريالية والتضامن الديني العابر للحدود، ما استدعى تنسيقا دبلوماسيا بين الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، واستنفارا استخباراتيا، خوفًا من انتقال عدوى التمرُّد إلى مستعمراتهما[68].

يذكر جون كولي (John Cooley) أن "جمهورية" عبد الكريم كانت مدعومة من طرف الشيوعيين الأوروبيين، ولا سيما جاك دوريو (Jacques Doriot)، والحزب الشيوعي الفرنسي. وتشير ملفات بلانكو إلى أن شريف مولاي حسنوف (Sharif Mulay Hasanov)، ونمبر محمودوف (Namber Mahmudov)، كانا مندوبين عن الكومنترن إلى عبد الكريم[69].

كانت الحركة الشيوعية، في كل جهة قامت فيها أحزاب قوية بما فيه الكفاية، في أوروبا أولًا ثم خارجها، هي التي تتبَّعت حرب الريف باهتمام بالغ. وبعدما عُدَّت الحرب في البداية تافهة، ألا يمكن أن تفتح ثغرة في المواقع الإمبريالية، تلك الثغرة التي طالما وقع انتظارها؟ إنه السؤال الذي أخذ الشيوعيون يسألونه في كل جهة تقريبًا، ولو بدرجات متنوّعة ومن زوايا مختلفة. كذلك، لقد أثارت القضية الريفية، وعن كثب، اهتمام الأوساط الحاكمة في روسيا السوفياتية التي لم تخف تعاطفها ولم تتجاهل

الكسب الكبير الذي كان يمثِّله الانتصار المحتمل للريفيين. وعلى سبيل المثال، فقد كتب قائد الجيش الأحمر نفسه ميشل فرونزي (Michael Frunze): إن ما يتقرَّر هنالك تحت قصف المدافع، هو كل القوة الاستعمارية لأوروبا الغربية، وخاصة مصير إمبراطورية فرنسا الأفريقية. إن قراءة الكتاب تبين لنا أن الجيش الروسي في أيام الثورة، وهو جيش فقير وسيِّئ التجهيز، كان يشعر بالضرورة بأهمية الانتصارات على الطريقة الريفية، إذ كان مفعول التقنية يتضاءل أمام العنصر البشري[70].

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر ما أبداه مسلمو شبه القارة الهندية، عامتهم ونخبتهم، من حماسة في نصرة المقاومة الريفية. فقد انبرى أبو الأعلى المودودي، الصحفي الشاب آنذاك، للتعريف بالقضية الريفية ونشر أخبارها والإشادة بزعيمها الذي وصل ما انقطع من أمجاد المسلمين وانتصاراتهم. كما تناولها عبد الله يوسف علي في محاضرة ألقاها بمدينة لاهور في 1926[71]، وأشادت "لجنة الخلافة" في الهند خلال اجتماعاتها بالريفيين وعبرت عن دعمها لهم[72].

ربط أبو الأعلى المودودي، في سلسلة مقالات، حرب التحرير الريفية بالسياق الأوسع لتاريخ العالم الإسلامي منذ سقوط الأندلس. وانطلق الكاتب من مقارنة رمزية بين الماضي الإسلامي المجيد في الأندلس، الذي تحقَّق بفضل قوة الإيمان والتضحية، وبين حالة الضعف والانقسام التي آلت إليها المجتمعات الإسلامية لاحقًا.

وفي هذا الإطار التاريخي، رأى المودودي أن أحداث الريف محاولة لاستعادة روح المقاومة الإسلامية في مواجهة السيطرة الاستعمارية الأوروبية، إذ استطاعت جماعة صغيرة من المقاتلين، بقيادة واعية وتنظيم فعال، أن تواجه قوة استعمارية كبرى وتحقِّق انتصارات لافتة، الأمر الذي أعاد إحياء الأمل بإمكان نهضة المسلمين واستعادة قدرتهم على الدفاع عن أرضهم وكرامتهم.

كما ربط الكاتب بين نجاح المقاومة وبين عوامل معنوية وتنظيمية، مثل قوة العقيدة، والانضباط، ووحدة الهدف، في مقابل ضعف القوى الاستعمارية في فهم طبيعة المجتمع المحلي وإرادته في المقاومة. ومن ثم يقدم أبو الأعلى تجربة الريف بوصفها حدثًا ذا دلالة تتجاوز الإطار المحلي المغربي، لتصبح مثالًا ملهمًا للعالم

الإسلامي بأسره، ودليلًا على أن الشعوب المستعمَرة قادرة على تحدِّي القوى الإمبريالية عندما تتوافر لها القيادة والإرادة الجماعية[73].

وخص أمير البيان شكيب أرسلان بمقال من سماه بطل العصر يشيد فيه بالخطابي: "لا نبالغ إذا قلنا إن الأمير محمد بن عبد الكريم، متولي كبر الثورة على الإسبانيول في شمال سلطنة المغرب، هو في التوة الحاضرة، بطل الإسلام، وأسده الضرغام، والعلم المفرد الذي سار بذكره القاصي والداني والخاص والعام، لا بل إذا نظر الناس بعين الإنصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم"[74].

لقد اكتست حرب الريف آنذاك في العشرينيات، ولو بصورة مصغرة، الطابع الذي اكتسته حرب فيتنام بعد ذلك بنحو 20 عامًا، ووضعت موضع النقاش والاستنكار كل النظام الاستعماري العالمي التي تآمرت الدول الكبرى على بنائه وترسيخه منذ أزيد من قرن، فكانت سابقة تاريخية خطرة تزعج الاستعماريين في حفلاتهم وولائمهم وأحلامهم. والرأسمالية ترى مصالحها بالمغرب في مهب الرياح. ونجد صدى لكل ذلك فيما كتبه والتر هاريس (Walter Harris) مراسل جريدة "The Times" في كتابه "France Spain and The Rif": ولقد كان الأمر يعني حربا لم يكن لها مثيل في التاريخ الاستعماري[75].

نكتفي بهذا القدر الذي نراه معبّرًا عما كان من أصداء لحرب الريف التحريرية في أنحاء المعمورة، لأن المقام لا يتسع للوقوف عليها، ويحتاج إلى دراسة خاصة[76].

سادسًا – مدرسة الخطابي في المقاومة والتحرُّر

يُبرز مفليار المكانة المركزية للمقاومة الريفية في تطوّر الفكر العسكري لحركات التحرُّر في القرن 20، فقد تحوَّلت إلى مدرسة في حرب العصابات وحرب التحرير الشعبية. لقد نجح الخطابي في صياغة مقاربة قتالية تقوم على المرونة، واستنزاف العدو، وتفكيك تفوُّقه التقني عبر حرب مواقع غير متكافئة، وهو ما جعل تجربته موضوع اهتمام قادة ثوريين في سياقات مختلفة. ويؤكِّد مفليار أن نموذج

الخطابي طُبق في عدد من الحروب، خصوصًا في آسيا وأميركا اللاتينية، ما يدل على انتقال الخبرة الريفية من المجال المغاربي إلى فضاء عالمي أوسع[77].

في هذا السياق، يظهر تأثير الخطابي واضحًا في تجربة ماو تسي تونغ، الذي عدّه أحد مصادر إلهامه في بلورة مفهوم "حرب التحرير الشعبية"، خاصة ما يتعلَّق بتعبئة السكان المحليين، وإطالة أمد الصراع[78]، وتحويل الجغرافيا إلى عنصر حاسم في المعركة. ويُفهم من ذلك أن الخطابي لم يكن مجرد سابقة تاريخية، بل أحد الروافد الفكرية التي ساهمت في صياغة الاستراتيجية الماوية.

أشار جرمان عياش إلى أن الرئيس الصيني ماو تسي تونغ كاشف بمكنون صدره وفودا عربية، مصرحا باختصار: فيما قدومكم لتلقي الدروس من الصين، طالما أن لكم عبد الكريم الأستاذ الذي تتلمذنا نحن الصينيين على يديه[79]. لا يتعلَّق الأمر بوفود عربية إنما بوفد من حركة التحرُّر الوطني الفلسطيني (فتح)، كما ذكرت مصادر أخرى ومنها الحركة نفسها التي زادت على ما ذكره عياش أن ماو وصف محمد بن عبد الكريم بأنه "زعيم أعظم ثورة ضد المستعمر عرفها القرن 20"، ما دفعها إلى دراسة ما كُتب عن ثورة الخطابي، ووضع كراسة خاصة عنها ليدرسها الفدائيون في قواعد "فتح". وقد استخلصت الحركة من تجربة الأمير الخطابي درسا هاما يقول: إن توفَّر خصمك على سلاح لا تتوفَّر عليه أنت؛ لا يعني بالضرورة انتصاره عليك، لأن ما تتوفَّر عليه أنت أقوى من سلاحه، وهو إيمانك الحاسم بحقِّك في الدفاع عن كرامتك، واستعدادك التام لأن تستشهد في سبيل هذا الحق، بينما هذا الإيمان لا يمتلكه الذي يقاتلك، فهو جندي محترف، يأخذ أجرًا في آخر الشهر، ولا إيمان له بما يقاتل من أجله[80].

أما في الحالة الفيتنامية، فإن هوشي مينه يندرج ضمن القادة الذين تأثروا بتجربة الخطابي، وإن كان التأثير هنا أقل مباشرة. فمفليار يربط بين نجاحات حرب الريف وبين التكتيكات التي استُخدمت في حرب فيتنام، لا سيما فيما يتعلَّق بحرب العصابات الجبلية، والاعتماد على ضرب خطوط الإمداد، واستنزاف القوة الاستعمارية تدريجيًّا. ويعكس هذا التأثير انتقالًا عمليًّا غير مباشر، حيث أُعيد تكييف النموذج الريفي ضمن سياق جغرافي وسياسي مختلف.

فلا عجب إذا وجدنا "هوشي مينه" يصف ابن عبد الكريم بكونه "البطل الوطني المؤسس للحرب الشعبية". وأكَّد المستشرق الفرنسي فانسان مونتيل (Vincent Monteil) أن الزعيم الريفي هو المنظر والمطبق الأول للحرب الثورية، لأنه عرف كيف يستعمل لصالحه معطيات الأرض والبيئة القبلية، أي ما عبَّر عنه ماو تسي تونغ بصورة "السمك في الماء". وهذا هو الدرس الذي سيحفظه الوطنيون المجاهدون في المغرب العربي عند إقدامهم على المراحل الأخيرة من النضال في سبيل التحرير، ولعل أقوى صورة لتطبيقها جرت بالجزائر[81].

ويتخذ تأثير الخطابي بعدًا أكثر وضوحًا في تجربة تشي غيفارا، إذ يبيّن مفليار أن ذلك التأثير كان عبر قنوات متعدّدة، أبرزها الوساطة العسكرية. فقد تلقَّى غيفارا تدريبه على يد ألبرتو بايو (Alberto Bayo)[82] الذي كان بدوره قد قاتل مع الجيش الإسباني في الريف وتأثر بتكتيكات الخطابي، ثم نقل هذه الخبرة إلى تلامذته في كوبا. ويؤكِّد المقال أن غيفارا اعتبر بايو معلمه الوحيد، وهو ما يعزِّز فكرة انتقال التأثير بشكل عملي. كما يبرز التشابه بين تكتيكات الخطابي وغيفارا، خصوصًا فيما يتعلَّق بالكمائن، وقطع الإمدادات، واستهداف مواقع ضعف العدو، فضلًا عن وجود إشارات إلى احتمال لقاء مباشر بينهما في القاهرة عام 1959، أو على الأقل اطلاع غيفارا على تجربة الخطابي عبر الكتابات والسير[83].

أما فيدال كاسترو، فيظهر تأثره بتجربة الخطابي بشكل غير مباشر، سواء من خلال قراءاته حول معركة أنوال وإعجابه بها، أو عبر اعتماده على نفس المدرسة التدريبية التي نقلت خبرة حرب الريف إلى كوبا. ويعكس هذا التأثير بعدًا مركبًا يجمع بين الإلهام التاريخي والنقل التكتيكي، حيث أسهمت تجربة الخطابي في ترسيخ نموذج حرب العصابات كخيار استراتيجي في مواجهة القوى الكبرى[84]. بناءً على ذلك، يخلص مفليار إلى أن تأثير الخطابي تجاوز حدود التجربة المحلية ليصبح أحد المرتكزات الأساسية في الفكر العسكري لحركات التحرُّر، إذ جمع بين التأثير النظري في صياغة مفاهيم الحرب الشعبية، والتأثير العملي في نقل التكتيكات القتالية عبر شبكات التدريب والخبرة. ومن ثمّ، فإن الخطابي لا يُفهم على أنه قائد مقاومة مغاربي فحسب، وإنما فاعل مؤسس في تاريخ الحروب غير المتكافئة في القرن 20.

(إنفوغراف مولد بالذكاء الاصطناعي)

المصدر: Mevliyar Er, ‘‘Abd-el-Krim al-Khattabi: The Unknown Mentor of Che Guevara,’’.

خاتمة

تكشف تجربة المقاومة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي عن نموذج فريد في تاريخ النضال ضد الاستعمار، تداخلت فيها أبعاد سياسية واجتماعية وعسكرية أسهمت في صياغة مشروع تحرُّري متكامل. فقد نجح الخطابي في تجاوز معضلة التفكُّك القبلي عبر بناء وحدة سياسية وعسكرية قائمة على الانضباط وإعادة تشكيل القيم الجماعية، كما استطاع توظيف الإمكانات المحدودة للمجتمع الريفي في إطار استراتيجية حربية فعالة، اعتمدت على حرب العصابات واستثمار المجال الجغرافي، ما مكّنه من إلحاق هزائم قاسية بالقوات الاستعمارية.

غير أن تلك التجربة، رغم نجاحاتها اللافتة، وجدت نفسها أمام تحالف إمبريالي، خاصة بعد توحيد الجهود الفرنسية والإسبانية، واستخدام وسائل عسكرية متطورة، بما فيها الأسلحة الكيماوية، وهو ما أدَّى إلى إنهائها عسكريًّا في 1926. ومع ذلك، فإن نهاية المقاومة الريفية لم تعنِ أفول تأثيرها، بل تحوَّلت إلى مصدر إلهام لحركات التحرُّر في العالم، وإلى مرجع في الفكر العسكري المعاصر، خاصة فيما يتعلَّق بحروب العصابات والتنظيم الشعبي للمقاومة.

وعليه، يمكن القول إن أهمية تلك التجربة لا تكمن في نتائجها المباشرة، إنما في ما جسّدته من انتقال نوعي في أنماط مقاومة الاستعمار، وفي ما قدمته من دروس نظرية وعملية في علاقة القيادة بالمجتمع، ودور التنظيم والإيديولوجيا في إنجاح مشاريع التحرُّر. ومن هذا المنظور، تظل المقاومة الريفية واحدة من أبرز التجارب في تاريخ الحركات التحرُّرية العالمية.

المراجع

1. David S. Woolman, *Rebels in the Rif: Abd el Krim and the Rif Rebellion* (Stanford, CA: Stanford University Press; London: Oxford University Press, 1968), 18.

3. رودبرت كونز ورولف ديتر مولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم: ألمانيا وإسبانيا والحرب الكيماوية في الريف 1922–1927*، ترجمة حسن الغلبزوري وعبد المجيد عموري (البينيلوكس: نكور للنشر، 2022)، 55.

4. خوان باندو، *التاريخ السري لحرب الريف (المغرب: الحلم المزعج)*، ترجمة سناء الشعيري (الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2008)، 60.

4. Victor Barrucand, *La Guerre du Riff* (Paris: Larouche & Dawant, 1927), 7.

5. من أشهر الأعمال الأدبية عن حرب الريف رواية *Iman* (المغناطيس)، بقلم رامون خوسي سندر (Ramón José Sender)، وهو جندي إسباني شارك في حرب الريف. صدرت الرواية عام 1930، أي بعد 4 أعوام من نهاية الحرب، وترجمت إلى لغات عدة منها الإنجليزية بعنوان *Earmarked for Hell* وهي رواية وثائقية تنتقد المجتمع وتعارض الحروب والعسكر، وتوظِّف أدوات المذهب التعبيري، وتُعدُّ من بين أشهر الروايات الإسبانية في القرن 20، وتندرج ضمن الأدب العالمي المعارض للحروب، مثل رواية الألماني إيريش ماريا ريمارك، *All Quiet on the Western Front* (1929)، عن فظائع الحرب العالمية الأولى.

6. باندو، *التاريخ السري لحرب الريف*، 27–30.

7. محمد الرايس، *شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي*، إعداد عبد الحميد الرايس (الدار البيضاء: تفرازن ءاريف)، 347.

8. ماريا روسا دي ماداریاکا، *محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال*، ترجمة محمد أونيا وآخرين (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2013)، 176.

9. الرايس، *شهادات عن المقاومة*، 329–338.

10. Woolman, *Rebels in the Rif*, 156-157.

11. Ibid., 30.

12. ماداریاکا، *محمد بن عبد الكريم الخطابي*، 423.

13. Woolman, *Rebels in the Rif*, 80.

14. David Hart, "Clan, Lineage, Local Community, and the Feud in a Rifian Tribe," in *A Reader in Middle Eastern Anthropology*, ed. Louise Sweet (New York, 1967), 100; cited in Woolman, *Rebels in the Rif*, 218.

15. للاستزادة راجع: "جهل زعماء ومفاسد أهل الطرق والشرفاء وكونهما سببًا لفشل زعيم الريف المغربي"، *مجلة المنار*، 5 نوفمبر 1926، 630 وما بعدها.

16. Woolman, *Rebels in the Rif*, 178.

17. الرايس، *شهادات عن المقاومة*، 332.

18. محمد زنيبر، *صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية* (1990)، 46–47.

19. باندو، *التاريخ السري لحرب الريف*، 25.

20. زنيبر، *صفحات من الوطنية المغربية*، 47.

21. ماداریاکا، *محمد بن عبد الكريم الخطابي*، 432.

22. المرجع نفسه، 445.
23. El Archivo General de la Administración (AGA), Carpetas 81/00661-81/00674.
24. يُطلق لفظ "المخزن" على السلطة والدولة وأجهزتها المركزية والمحلية. وللاستزادة: إبراهيم بوطالب، "المخزن"، *معلمة المغرب*، ج21 (2005)، 7038–7042.
25. زنيبر، *صفحات من الوطنية المغربية*، 17.
26. ماداریاکا، *محمد بن عبد الكريم الخطابي*، 13.
27. محمد سلام أمزيان، *عبد الكريم الخطابي وحرب الريف* (1971)، 306.
28. أمزيان، *عبد الكريم الخطابي وحرب الريف*، 50.
29. المرجع نفسه، 127.
30. المرجع نفسه، 130.
31. محمد بلقاضي، *أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي* (الرباط، 2006)، 99.
32. أمزيان، *عبد الكريم الخطابي وحرب الريف*، 251.
33. مجموعة وثائق الهاشمي الطود، رسالة إلى القائد اليزيد بن صالح (13 صفر 1343هـ)، في عبد الله الكموني، *البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي* (2021)، 207.
34. الكموني، *البعد الفكري في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي*، 207.
35. Woolman, *Rebels in the Rif*, 146.
36. للاستزادة من علاقة الجغرافيا بالحرب راجع: Yves Lacoste, "La géographie, ça sert d'abord à faire la guerre"، فقد جادل الكاتب بأن الجغرافيا ليست مجرد موضوع أكاديمي، بل هي أداة استراتيجية حاسمة تستخدمها النخب الحاكمة والكوادر العسكرية لإدارة الأراضي والسيطرة على السكان وشن الحرب.
37. أمزيان، *عبد الكريم الخطابي وحرب الريف*، 141.
38. المرجع نفسه، 91.
39. Mevliyar Er, "Abd-el-Krim al-Khattabi: The Unknown Mentor of Che Guevara," *Terrorism and Political Violence* (2015): 5-13.
40. Woolman, *Rebels in the Rif*, 155.
41. Martin Windrow, *Our Friends Beneath the Sands: The Foreign Legion in France's Colonial Conquests 1870-1935* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2010), 471.
42. Windrow, *Our Friends Beneath the Sands*, 184.
43. باندو، *التاريخ السري لحرب الريف*، 119.
44. كونز ومولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم*، 24–25.
45. المرجع نفسه، 25.
46. Woolman, *Rebels in the Rif*, 84.
47. جرمان عياش، *أصول حرب الريف*، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق (الرباط: الشركة المغربية المتحدة)، 3-4.
48. Ramón J. Sender, *Earmarked for Hell* (London: Wishart & Co., 1934), 101-244.

خصص الكاتب الجزء الثاني من الرواية، التي تقع في ثلاثة أجزاء، لمعركة أنوال، وهو بعنوان "أنوال الكارثة".

49. أمزيان، *عبد الكريم الخطابي وحرب الريف*، 68–69.
50. المرجع نفسه، 278.
51. Woolman, *Rebels in the Rif*, 164-175.
52. Er, "Abd-el-Krim al-Khattabi," 5-67.
53. عياش، *أصول حرب الريف*، 4.
54. كونز ومولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم*، 13.
55. Sebastian Balfour, *Deadly Embrace: Morocco and the Road to the Spanish Civil War* (Oxford: Oxford University Press, 2002), 128.
56. الرايس، *شهادات عن المقاومة*، 26–27.
57. Balfour, *Deadly Embrace*, 123-128.
58. أحمد سكيرج، *الظل الوريف في محاربة الريف: مذكرات محمد أزرقان*، إعداد ومراجعة عبد المجيد عزوزي (طنجة: تيفرازن ءاريف، 2022)، 146.
59. كونز ومولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم*، 337–339.
60. ماداریاکا، *محمد بن عبد الكريم الخطابي*، 242.
61. المرجع نفسه، 255–256.
62. كونز ومولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم*، 11، 30، 174.
63. عياش، *أصول حرب الريف*، 4.
64. كونز ومولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم*، 221 وما بعدها. للاستزادة راجع الفصل 13 من كتاب وولمان، بعنوان "نهاية تمرُّد الريف"، الصفحة 197 وما بعدها.
65. سكيرج، *الظل الوريف في محاربة الريف*، 222–223.
66. كونز ومولر، *الغازات السامة ضد عبد الكريم*، 9.
67. وُلد سيد أمير علي يوم 6 أبريل 1849 في موهان بإقليم أود شمالي الهند وتوفي بإنجلترا في 3 أغسطس 1928. تلقّى تعليمه في كالكوتا حيث درس في كلية هوجلي ونال شهادة العالمية من كلية عليكرة الإسلامية، ثم سافر إلى لندن فدرس القانون ونال إجازته عام 1873. وقد عُرف بإنتاجه الفكري الذي كرّسه لشرح الإسلام والدفاع عنه بأسلوب علمي موجَّه إلى الغرب، ومن أشهر مؤلفاته "روح الإسلام" الذي عرض فيه حياة النبي (ص) وتعاليم الإسلام، و"خلال الإسلام" في أخلاق الإسلام، و"مختصر تاريخ المسلمين" الذي تناول فيه تاريخ الدول الإسلامية وتحليل حضارتها، إلى جانب كتابه الفقهي "الأحوال الشخصية في الأحكام الشرعية"، وقد أسهمت هذه الأعمال في التعريف بالإسلام في الغرب والدفاع عنه بالحجة والتحليل. للاستزادة راجع نعي محمد عبد الله عنان لسيد أمير علي، ومما جاء فيه: "نعت إلينا الأنباء الأخيرة المرحوم (مولانا) سيد أمير علي المشترع والفيلسوف الهندي الأشهر فطويت بوفاته صفحة حافلة من أنفس صفحات التفكير الإسلامي في عصرنا، وفقد الإسلام إمامًا من أحدث أئمته، وأرسخهم قدمًا في دراسته، ومجاهدًا باسلًا قضى زهاء نصف القرن في الذَّوْد عن مبادئه وأحكامه". "وفاة سيد أمير علي أحد قادة التفكير الإسلامي وحامل دعوة الإسلام في الغرب"، تاريخ الدخول: 12/ 03/ 2026.
68. Lord Birkenhead-Spanish Ambassador correspondence, India Office Records, P&J (S) 659 (1925). أمدنا بهذه الوثائق، مشكورًا، الصديق جميل شريف.

69. John K. Cooley, *Baal, Christ, and Mohammed: Religion and Revolution in North Africa* (New York, 1965), 191-193.

70. عياش، *أصول حرب الريف*، 8–9.

71. كانت المحاضرة بعنوان "Islam as World Force"، ونُشرت في كراسة بعنوان *Progressive Islam Pamphlet*, no. d2: *A Lecture Delivered at the 40th Anniversary of the Anjuman-i-Himayat-i-Islam, Lahore*. كما نشرت في K.K. Aziz, ed., *Abdullah Yusuf Ali's Lectures, Speeches and Addresses* (Lahore, Pakistan: Sang-e-Meel Publications, 2009), 134-151. وقد لاحظنا أن معرفة عبد الله يوسف علي بحرب الريف عامة وغير دقيقة، عكس أبو الأعلى المودودي.

72. K.K. Aziz, *The Indian Khilafat Movement 1915-1933* (2006), 239, 302, 307.

73. نشر المودودي مجموعة من المقالات الافتتاحية والتعليقات عن حرب الريف في "جمعية"، وهي مجلة كانت تصدر كل أسبوعين عن جمعية علماء الهند ومقرها دلهي. جمع تلك المقالات ونشرها خليل أحمد حمدي في لاهور عام 1993. وقد أمدنا بترجمتها الإنجليزية مشكورا الصديق الكاتب الأريب جميل شريف الذي نشر جزءًا منها في أحد كتبه وهو بعنوان: *Facets of Faith: Malek Bennabi and Abul A'la Maududi: The Early Life and Selected Writings of Two Great Thinkers of the Twentieth Century* (4 June 2018).

74. لوثروب ستودارد، *حاضر العالم الإسلامي*، ترجمة عجاج نويهض، مع فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث بقلم شكيب أرسلان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج3، 184.

75. زنبر، *صفحات من الوطنية المغربية*، 17–18.

76. للاستزادة راجع على سبيل المثال لا الحصر: الطيب بوتبقالت، *عبد الكريم الخطابي وحرب الريف والرأي العام العالمي* (2018).

77. Er, "Abd-el-Krim al-Khattabi," 1.

78. راجع كتاب ماو تسي تونغ، "عن الحرب الطويلة" (*On Protracted War*).

79. عياش، *أصول حرب الريف*، 9.

80. *محمد عبد الكريم الخطابي وقضايا مغرب اليوم: أعمال يوم دراسي احتفائي* (الرباط: دار أبي رقراق)، 120–121.

81. زنبر، *صفحات من الوطنية المغربية*، 16.

82. يُعدُّ كتابه "150 سؤالًا لمقاتل حرب عصابات" (*Ciento cincuenta preguntas a un guerrillero*) أهم دليل عملي مبكر في التنظير لحرب العصابات، وهو زبدة خبرة بايو الميدانية، ولا سيما في حرب الريف. يقدّم الكتاب مادته في صيغة أسئلة وأجوبة، ما يجعله أقرب إلى دليل تدريبي موجّه للمقاتلين غير النظاميين.

83. Er, "Abd-el-Krim al-Khattabi," 5-67.

84. Er, "Abd-el-Krim al-Khattabi," 6.

استراتيجية المقاومة الفيتنامية

حرب العصابات والتعبئة الجماهيرية وشبكات الدعم الدولية

ليو سياتيبار

مقدمة

غالبًا ما يستشهد المؤرخون والباحثون في حركات التحرُّر بالنضال الفيتنامي ضد فرنسا، ولاحقًا ضد الولايات المتحدة الأميركية، على أنه نموذجٍ مثالي "لحرب الشعب" الحديثة، أي ذلك المزيج من الاستراتيجيات العسكرية غير المتناظرة، مع توفُّر قاعدة اجتماعية قوية، ودعم دولي واسع نسبيًّا. فقد شكَّلت هذه العناصر الثلاثة، حرب العصابات والتعبئة الجماهيرية وشبكات الدعم الدولية، أركان استراتيجية فيتنام في مواجهة خصوم أكثر قوة من حيث العدد والعتاد والتقدُّم التقني.

يحلِّل هذا الفصل الكيفية التي تتفاعل بها هذه الأركان فيما بينها فتعزّز بعضها بعضًا، ويستعرض نماذج عملية من تطبيق ذلك التفاعل على الأرض كما تجلَّى في المقاومة الفيتنامية، وينظر في حدود تلك الاستراتيجية وتداعياتها على حركات التحرُّر العالمية.

الجزء الأول

استراتيجية حرب العصابات: النظرية والتطبيق والتكيف

1. الأسس النظرية والتقاليد الفكرية

وُلدت استراتيجية حرب العصابات في فيتنام من الاندماج بين التقاليد العسكرية المحلية، وتجارب الحروب الاستعمارية، ونظريات الثورة العالمية. أما "حرب الشعب" فقد بنيت على الأفكار الماركسية اللينينية مع تكييف تعاليم ماو تسي تونغ عن الحرب الشعبية التي تستند أساسًا إلى تعبئة السكان الريفيين، مع المرونة العملياتية، ودمج البعديْن السياسة مع الجيش. وقد استوعب القادة، مثل هو تشي مينه والجنرال ڤونغوين جياب، هذه المفاهيم واستخلصوا منها ما يتناسب مع ظروف فيتنام، لا سيما التضاريس الصعبة، والسكان الزراعيون، والماضي الاستعماري الطويل[1].

2. الأسس والمبادئ العملياتية: تجنب المعارك المباشرة ورفع التكلفة على العدو

تقوم استراتيجية حرب العصابات الفيتنامية على مبادئ أساسية يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- **عدم تماثل الأهداف**: لم يكن هدف فييت منه/ فييت كونغ (Viet Minh/ Viet Cong) تحقيق الانتصار في كل معركة؛ إنما تمثَّل في تحميل العدو تكاليف سياسية وبشرية واقتصادية وأخلاقية باهظة. وقد أعطت هذه الاستراتيجية الأولوية لاستنزاف العدو على المدى الطويل[2].
- **التناوب بين الهجوم والانكفاء**: خيضت المعارك على شكل عمليات صغيرة تقوم على نصب الكمائن، وتخريب خطوط الإمداد، والغارات الليلية، وهو ما أضعف معنويات العدو وقدراته دون الدخول معه في معارك تقليدية.
- **دمج البعدين السياسي والعسكري**: كانت كل عملية عسكرية تُعدُّ حلقة في عملية سياسية أوسع، وذلك من أجل تأمين الدعم الجماهيري، وصناعة السردية، وتشكيل التصورات، ومنح شرعية للمقاومة.

3. التكتيكات والابتكارات في ميدان المعركة

على أرض الواقع، تجسّدت هذه الاستراتيجية في أشكال ملموسة من قبيل: استخدام مسارات مخفية، عُرفت لاحقًا باسم "طريق هو شي مينه"، وشبكات أنفاق تحت الأرض، مثل تلك التي تقع في "بن تري"، والتي اشتهرت لاحقًا خلال الحرب الأميركية، إضافة إلى استخدام التفخيخ والوحدات الصغيرة المتنقلة. أما عن مواجهة التفوُّق الجوي والمدفعي الأميركي، فقد تكيّف القادة الفيتناميون مع ذلك من خلال بناء منشآت تحت الأرض وتوزيع المجموعات المقاتلة واستغلال التضاريس ومواسم الأمطار لتقليص فعالية الطائرات والمركبات الثقيلة[3].

4. الاعتراض الاستخباراتي وتأمين الإمدادات

اعتمد نجاح حرب العصابات كذلك على المعلومات الميدانية واللوجستيات السرية، ومنها إنشاء شبكات المخبرين في القرى، ومراقبي الطرق، وتشكيل الوحدات اللوجستية التي استغلت معرفة التضاريس المحلية لضمان تدفق الإمدادات. لم يكن "طريق هو شي مينه" مجرد مسار مادي، إنما كان نظامًا عابرًا للحدود (عبر لاوس وكمبوديا) يضم مخابئ مخفية ويؤمّن مسارات إمداد رفعت كلفة الحرب على الولايات المتحدة وزادت من صعوبتها[4].

5. الحرب على الجبهة السياسية

تفوَّق الفيتناميون في حرب الإدراك والتصورات، فقد مزجت حربهم الدعائية بين إحياء الشعور الوطني ومكافحة الاستعمار والوعود بالإصلاح الاجتماعي. وقد أسهمت الصحف الحزبية والأغاني الثورية والمسرح الشعبي والتثقيف السياسي، في القرى، في خلق ثقافة مقاومة وبناء هوية جماعية عزَّزت صمود المدنيين تحت الضغط العسكري. لذلك، لم يُقَس النصر فقط بالتكتيكات الميدانية، بل أيضًا بالنجاح في التأثير على الرأي المحلي والدولي[5].

6. القيود والتكاليف التكتيكية

ارتبطت حرب العصابات، فضلًا عن فعاليتها، بتكاليف عالية. فقد أدَّى طول أمد الحرب إلى إرهاق اجتماعي وسقوط الكثير من الضحايا المدنيين. وشابها في

بعض الأحيان عنف داخلي، مثل قمع من وُصفوا بالمتعاونين. علاوة على ذلك، اعتمد نجاح حرب العصابات، بشكل كبير، على الظروف الاجتماعية والسياسية الملائمة. ودون قاعدة شعبية كافية، كانت هذه التكتيكات ستنكسر بسهولة. لهذا السبب، نادرًا ما تُعدُّ حرب العصابات "قالبًا" يمكن نقله كاملًا إلى سياقات أخرى دون تعديل[6].

التعبئة الجماهيرية: القاعدة الاجتماعية مركزًا للاستراتيجيات

1. مفهوم "الحرب الشعبية" كتعبئة شاملة

ما ميَّز التجربة الفيتنامية هو نطاق التعبئة الجماهيرية وعمقها. فلم يقتصر الفييت منه، ولا الجبهة الوطنية للتحرير (فييت كونغ) في الجنوب لاحقًا، على تجنيد المقاتلين وحسب، إنما بنوا مؤسسات سياسية موازية في القرى، وأقاموا شبكات توزيع الغذاء، ووضعوا نظم رعاية صحية طارئة، وشيّدوا أكاديميات سياسية، وأسَّسوا هياكل إدارية محلية تهدف إلى منافسة الإدارات المؤيدة للغرب أو استبدالها[7].

2. إصلاح الأراضي والشرعية الاجتماعية

كان إصلاح الأراضي إحدى أكثر الأدوات فعالية لكسب دعم الفلاحين، فقد وُعد هؤلاء الفقراء بتوزيع الأراضي عليهم، وهو الأمر الذي أضعف القاعدة الاجتماعية للنخب المتعاونة مع العدو، وعزَّز شرعية النضال ضدها. وعلى الرغم من أن التنفيذ رافقه، في غالب الأحيان، عنف وجدل، فإن الإصلاحات السياسية عزَّزت التعبئة الريفية، فأصبحت الأرض حافزًا ماديًّا ورمزًا للتحرُّر الاقتصادي في آن واحد[8].

3. دور النساء والشباب والمنظمات الجماهيرية

لم تقتصر التعبئة على الرجال البالغين، فقد لعب تنظيم النساء، أيضا، عبر مؤسسات مثل اتحاد المرأة، الذي ينسّق اللوجستيات والرعاية الطبية والدعاية؛ دورا أساسيا. أما الشباب فجرى تجنيدهم في الروابط والمنظمات السياسية، ليعملوا في حمل

الرسائل وكشافين ونشطاء سياسيين. وقد ساعدت هذه المشاركة عبر تنوُّع الجنس والفئات العمرية على خلق قاعدة اجتماعية متينة. ولم ينقطع دعم الشباب للمقاومة، بما قدَّموه من إسناد لوجستي يومي، حتى تحت وطأة الضغط العسكري الشديد[9].

4. شبكات القرى: من التضامن المحلي إلى الدعم الاستراتيجي

عملت شبكات القرى وحدات تشغيلية للتعبئة، وجرى توظيف التضامن الثقافي وروابط القرابة والقيم المجتمعية لتوفير الدعم المادي. فتحوَّلت المنازل إلى مخازن مخفية، والحقول إلى مصادر للغذاء، والسكان إلى حماة أو مخبرين يزوِّدون المقاومة بما تحتاج إليه من معلومات عن تحرُّكات العدو. وقد لعبت تلك الشبكات دورًا فعّالًا في إعاقة جهود قوات الاحتلال، وجعلت قدرتها على قطع الدعم عن المقاومين صعبة إلى الغاية، إذ كان الخط الفاصل بين "المدني" و"المقاتل" داخل المجتمع غالبًا ما يُطمس[10].

5. التثقيف السياسي وتنظيم الكوادر

للحفاظ على الانضباط والالتزام بالخط الأيديولوجي، بادرت حركة المقاومة إلى تنفيذ برامج تثقيف سياسي مكثفة شملت تنظيم دورات قصيرة للتدريب القيادي والدعاية الشعبية. وقد أهلت تلك الدورات عددًا كبيرًا من الكوادر الوسطى للعمل حلقة وصل تجسّد الرؤية الوطنية التي تحملها القيادة في الممارسات اليومية لسكان القرى. كما أسهم التثقيف السياسي في خلق سردية أخلاقية تبرِّر التضحيات وتقلِّل من خطر الانشقاقات الجماعية.

6. التأثير الاجتماعي والاقتصادي والتكاليف البشرية

تحمّل القائمون على التعبئة الجماهيرية أعباء ثقيلة، من بينها إعادة توزيع الموارد، وإحداث تغييرات ملموسة في الأدوار الجندرية، وأحيانًا ممارسة بعض أشكال القمع الداخلي لمن يُشتبه في أنهم "مناهضون للثورة". وقد أدَّت الخسائر في صفوف المدنيين والإجلاء القسري والأضرار الاقتصادية للحرب إلى ضغوط ثقيلة على النسيج الاجتماعي. مع ذلك، ومن منظور استراتيجي، أصبحت المرونة الاجتماعية التي ولّدتها التعبئة عاملًا حاسمًا في تحقيق النصر طويل الأمد.

الدعم الدولي وشبكات التضامن العالمية

1. الدعم الحكومي: الاتحاد السوفياتي والصين والدول الأخرى

لم يكن النضال الفيتنامي يجري في فراغ دولي. فمن الحرب الهندو – صينية الأولى وحتى الصراع ضد الولايات المتحدة، تلقت هانوي دعمًا ماديًّا وسياسيًّا من الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية، يشمل الأسلحة والتدريب والمساعدة التقنية. وقد ساهمت تلك المساعدات في سدّ الفجوة التكنولوجية من جهة، كما عزَّزت قدرة فيتنام على تحمُّل الضغط الهائل الذي يُمارس عليها بمختلف مستوياته، من جهة أخرى[11]. مع ذلك، كانت تلك العلاقات معقدة، إذ شكَّل الانقسام الصيني – السوفياتي في ستينيات القرن العشرين، ديناميكيات الإمداد والخيارات الاستراتيجية، مما استلزم من فيتنام النظر بتوازن دقيق في تسيير علاقاتها الخارجية.

2. الطرق الإقليمية ودول العبور: لاوس وكمبوديا

أظهر الممر اللوجستي من شمال فيتنام إلى جنوبه عبر لاوس وكمبوديا، الذي أصبح لاحقًا يُعرف باسم "طريق هو شي مينه"، كيف وسّعت الشبكات الإقليمية قدرة المقاومة وخياراتها. فقد جعل استخدام الأراضي المجاورة طرق إمداد العمليات العدائية أكثر صعوبة. ولم تكن الضربات الجوية وحدها كافية لقطع تلك الطرق نظرًا لتشتتها وطابعها العابر للحدود[12].

3. حركات التضامن والدعم غير الحكومي: كوبا والحركات الطلابية والشبكات الدولية

إلى جانب الدعم الحكومي الكبير، لعبت الحركات المناهضة للإمبريالية في العالم الثالث، جنبًا إلى جنب مع الشبكات الطلابية والنشطاء في الغرب، أدوارًا حيوية عبر حملات التضامن وممارسة الضغط السياسي على الحكومات الغربية وتقديم المساعدات الرمزية. فقد أرسلت كوبا، على سبيل المثال، دعمًا سياسيًّا وأطباء، بينما أسهمت الحركات المناهضة للحرب في الولايات المتحدة وأوروبا في نشر معلومات أعادت تشكيل الرأي العام حول شرعية الحرب[13]. كما لعبت وسائل الإعلام الدولية، والمراسلون الحربيون، والتصوير الفوتوغرافي، والأفلام،

دورا مُهمّـا في تشـكيل الـرأي العـالمي، وهـو مـا أسـهم في تقييـد المنـاورة السياسـية للحكومات الداعمة للحرب.

4. قوى الشتات والشبكات المالية

نظّم مواطنو الشتات الفيتنامي والمتعاطفون مع المقاومة الفيتنامية في أنحاء كثيرة مـن العـالم، حمـلات لجمـع التبرعـات وتنظـيم الأنشـطة الثقافيـة، وأسَّسـوا شـبكات للاتصال عزَّزت الدعاية المناهضة للحرب. وعلى الرغم من أن تلك الجهود كانت أقل مقارنة بالدعم الحكومي، فإنها وفرت شرعية معنوية وموارد أساسية غير عسكرية.

5. المنافع الاستراتيجية وهشاشة الاعتماد على الدعم الخارجي

رفـع الـدعم الـدولي مـن مستوى الأداء العسكري للمقاومـة الفيتنامية وعـزَّز مـن أهمية الورقة الدبلوماسية في يدها، لكنه في المقابل، حمل عددًا من المخاطر. فقد خلق الاعتمـاد علـى الإمـدادات الخارجيـة نقـاط ضـعف، مثـل تعطيـل تـدفق الـدعم نتيجـة التحوُّلات الجيوسياسية. علاوة على ذلك، غالبًا مـا كـان يرافـق المسـاعدات الخارجيـة توقعات من المانحين أو شـروط سياسـية، مثـل التوافـق مـع التوجُّـه الأيـديولوجي لمَـن يقدِّم المساعدة، ما استلزم من القيادة إدارة تلك العلاقات بحذر شديد[14].

6. التكامل بين مختلف العناصر

لم يكن تميُّز تجربة المقاومة الفيتنامية مقتصـرًا علـى وجـود العناصـر الثلاثـة، المذكورة أعلاه، منعزلة عن بعضها البعض، إنما كان التميُّز في الطريقة التي تفاعلت بها تلك العناصر مجتمعة فيمـا بينهـا. فاسـتراتيجية حـرب العصـابات كانـت تتطلَّـب قاعدة اجتماعية للبقاء، إذ بـدون دعـم الأهـالي، كانـت العمليـات الحربيـة ستفشـل. وعلى الجانب الآخر، كانت التعبئة الجماهيرية تحتاج إلى شرعية وقدرة لوجستية، وهنـا شـكَّلت شـبكات الـدعم الدوليـة رافعـة أساسـية. في المقابـل، يصـبح الـدعم الخارجي أكثر فعاليـة عنـدما يتضـاعف عـبر تعبئـة محليـة صـلبة. وقـد خلقـت هـذه التركيبة نوعا من التفوُّق الاستراتيجي لـم يكن قائمًا على التكنولوجيـا وحـدها، إنمـا على قدرة سياسية عسكرية متكاملة[15].

الجزء الثاني

تجربة فيتنام: خلفية تاريخية ومقارنة مع حركات التحرُّر العالمية

أ. الجذور الاستعمارية والسياق التاريخي لفيتنام

1. الاستعمار الفرنسي وتشكيل الهند الصينية

خضعت فيتنام للهيمنة الاستعمارية الفرنسية منذ منتصف القرن 19، لتصبح بعد ذلك جزءًا من الهند – الصينية الفرنسية مع كلٍّ من لاوس وكمبوديا. لم يكتف الاستعمار الفرنسي بسلب السيادة السياسية وحسب، إنما أعاد كذلك تشكيل البنية الاجتماعية والاقتصادية. فقد أنشأ الفرنسيون مزارع كبيرة للمطاط والقهوة والأرز، وأجبروا السكان المحليين على العمل فيها بأجور زهيدة، وفرضوا احتكارات تجارية استغلت الفلاحين[16]. أما ثقافيًّا، فقد اقتصر التعليم، وفقًا للمنهج الفرنسي، على نخبة صغيرة تشكَّلت منها طبقة من "المثقفين الاستعماريين" الذين أصبحوا مَعينا أساسيا يغذي التيارات القومية الناشئة. كما زرعت سياسة الاستيعاب الفرنسية بذور المقاومة والتمرّد، ودفعت الفيتناميين إلى التخلي عن نظمهم القانونية والإدارية التقليدية التي دامت قرونا متتالية.

2. المقاومة المبكرة وصعود القومية الحديثة

بحلول أواخر القرن 19، بدأت انتفاضات محلية ضدّ القوى الاستعمارية تظهر على السطح. وقد مثّلت الحركات التي قادها فان بوي تشاو وفان تشاو تْرِينه بذورا مبكرة للقومية الحديثة التي ركزت على التعليم والتحديث وشملت أحيانًا التعاون مع اليابان[17]. غير أن القمع الاستعماري تمكَّن من الحدِّ من تأثير تلك الحركات. ومن رحم هذه التجارب انبثق جيل جديد من الناشطين، من بينهم هو تشي مينه، الذي جذَّر الحركة القومية بطريقة راديكالية من خلال الدمج بين الأفكار الماركسية واللينينية.

3. الاحتلال الياباني وفراغ السلطة

جلبت الحرب العالمية الثانية معها ديناميكيات جديدة، فقد وقعت فيتنام تحت الاحتلال الياباني العام 1940، وظلّت حكومة فيشي الفرنسية تدير البلاد شكليًّا. وأدَّى نهب اليابانيين للغذاء إلى المجاعة الكبرى العام 1945، التي أودت بحياة نحو مليوني شخص[18]. وقد وفّرت تلك الكارثة الفرصة لتعزيز موقف جبهة فييت منه، فقامت عناصرها بتوزيع الطعام وتنظيم المساعدات في القرى. وعندما هُزمت اليابان في الحرب وأعلنت استسلامها في أغسطس/ آب 1945، نشأ فراغ سلطوي في فيتنام، استغله هو تشي مينه لإعلان الجمهورية الديمقراطية الفيتنامية يوم 2 سبتمبر/ أيلول من السنة نفسها. ولكن فرنسا رفضت تلك الخطوة وأعادت سيطرتها على البلاد، فباتت المقاومة المسلحة أمرًا لا مفر منه.

ب. من الهند الصينية الأولى إلى مؤتمر جنيف

1. اندلاع النزاع

اندلعت المواجهات إثر انهيار المفاوضات بين المقاومة الفيتنامية والحكومة الفرنسية. فقد رفضت جبهة فييت منه العودة إلى الوضع الاستعماري، في حين سعت فرنسا إلى تكريس هيبتها الإمبراطورية. ومنذ عام 1946، توسّع نطاق الحرب أكثر ليشمل معارك دارت في مدن رئيسية مثل هانوي وسايغون.

كانت فرنسا تملك تفوُّقًا في نوعية السلاح وفي القدرة على خوض الصراع وفق استراتيجية الحرب المتناظرة، لكن فييت منه تجّنبت المعارك المباشرة، وفضّلت خوض حرب العصابات، خاصة في الرّيف[19]. وقد ساهم الدعم الصيني، خاصة بعد 1949، في تعزيز قدرات فييت مِنه في مجال المدفعية والتنسيق التكتيكي.

2. معركة ديان بيان فو (1954)

بلغت الحرب ذروتها في وادٍ استراتيجي يقع حول قرية ديان بيان فو شمال غربي فيتنام، حيث أنشأت فرنسا قاعدة كبيرة لاستدراج مقاتلي فييت منه إلى معركة مفتوحة. لكن القوات الفيتنامية بقيادة الجنرال جياب نقلت المدفعية الثقيلة عبر

الجبال، وحاصرت الحامية الفرنسية وقطعت عنها خطوط الإمداد الجوي. وبعد 57 يومًا من الحصار، الذي امتدّ من مارس/ آذار إلى مايو/ أيار 1954، استسلم الفرنسيون[20].

كان لهذا النصر الذي حقَّقته المقاومة الفيتنامية صدى عالمي، فهذه هي المرة الأولى التي تُهزم فيها قوة استعمارية أوروبية كبرى على يد حركة تحرير آسيوية. كما هزّت تلك الهزيمة ثقة الأوروبيين عامة في استدامة الاستعمار.

3. مؤتمر جنيف (1954)

بعد هزيمة القوات الفرنسية في معركة ديان بيان فو، انعقد مؤتمر جنيف وقرَّر وقف إطلاق النار بين الجانبين، وتقسيم فيتنام مؤقتًا عند الخط 17. كما قرَّر إجراء انتخابات وطنية عام 1956، لكن تلك الانتخابات لم تُجر بسبب رفض فيتنام الجنوبية، المدعومة أميركيًّا، المشاركة فيها. وقد مهَّدت تلك الخلافات الطريق لبداية مرحلة جديدة في تاريخ فيتنام، هي حرب فيتنام بين عامي 1955 و1975.

ج. الأهمية العالمية للنضال الفيتنامي

1. رمز لمقاومة الاستعمار في العالم الثالث

مثَّل انتصار المقاومة الفيتنامية في معركة ديان بيان فو بداية لمرحلة جديدة في تاريخ نضال الفيتناميين ضد الاستعمار. فقد رأت الدول الآسيوية والأفريقية، التي كانت لا تزال محتلة، أنه بالإمكان إلحاق الهزيمة بالقوى الإمبريالية، وأصبحت فيتنام رمزًا لتحرُّر العالم الثالث. وفي مؤتمر باندونغ، الذي انعقد عام 1955 في إندونيسيا، وتأسَّست على إثره حركة عدم الانحياز، تكرّر الاستشهاد بانتصار المقاومة الفيتنامية على أنه نموذج لبقية حركات التحرُّر[21].

2. مصدر إلهام في مجال التكتيك والاستراتيجية

أصبح نموذج حرب العصابات الذي خاضته المقاومة الفيتنامية دليلا للعديد من حركات التحرُّر في البلدان المحتلة، مثل جبهة التحرير الوطني في الجزائر (FLN)، وحركة فريليمو في موزمبيق (FRELIMO)، وحركة أم بي أل أي في أنغولا

(MPLA)، وكذلك حركة التحرير الفلسطينية. فقد استلهمت تلك الحركات من التجربة الفيتنامية أساليب مواجهة الجيوش النظامية، سواء على صعيد التكتيك أم الاستراتيجية، كما استفادت من المزج بين التعبئة الجماهيرية والدعم الدولي في إدارة الحرب الشعبية طويلة الأمد.

3. حركات التحرُّر في سياق مقارن

نماذج من آسيا وأفريقيا

الجزائر (1954–1962)

قاومت الجزائر الاستعمار الفرنسي تمامًا كما فعلت فيتنام. وقد عمدت جبهة التحرير الوطني الجزائرية إلى اتباع أسلوب حرب العصابات المدعومة بالتعبئة الشعبية والتضامن الدولي. لكن حرب التحرير الجزائرية كانت أكثر دموية على مستوى أعداد الضحايا من المدنيين، فقد مارست قوات الاحتلال الفرنسي التعذيب المنهجي على نطاق واسع. وبينما ارتبط النضال الفيتنامي بالعمق الأيديولوجي للحرب الباردة، ركزت المقاومة الجزائرية على البعد القومي واستفادت من دعم المحيط العربي والأفريقي.

إندونيسيا (1945–1949)

أعلنت إندونيسيا استقلالها العام 1945، وقد واجه شعبها الهولنديين بالثورة المسلّحة إلى جانب الدبلوماسية. وتميَّزت التجربة الإندونيسية بقصر مدة المقاومة، حيث استمر الصراع 4 سنوات فقط، واستفاد من الضغوط الدولية على الهولنديين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، خاصة من طرف الولايات المتحدة الأميركية. أما على صعيد الأسلوب، فكانت المقاومة الإندونيسية مشابهة لنظيرتها الفيتنامية في استخدام تكتيكات حرب العصابات، لكنها اختلفت عنها في أن إندونيسيا لم تخض حربا شعبية ممتدة، ولعبت الدبلوماسية الدولية فيها دورًا أكبر.

كينيا (1952–1960)

قاومت حركة الماو ماو في كينيا الاستعمار البريطاني، معتمدة على تكتيكات حرب العصابات في الغابات. لكن قاعدتها الشعبية لم تكن شاملة أو واسعة، فقد اقتصرت على جماعة الكيكويو. أما المقاومة الفيتنامية فقد حقَّقت تعبئة شعبية

عابرة للعرقيات، ومن ثم اكتسبت شرعية داخلية أوسع. ربما لهذا السبب، كان للضغط السياسي الدولي دور أكبر في إنجاز استقلال كينيا من الانتصار العسكري الحاسم للمقاومة المسلّحة.

موزمبيق وأنغولا (1960–1970)

استلهمت حركتا فريليمو (FRELIMO) في موزمبيق وحركة إم بي أل أي (MPLA) في أنغولا، أساليب قتالهما مباشرة من نموذج الحرب الشعبية الفيتنامية، واستفادتا من دعم الاتحاد السوفياتي والصين. غير أن تضاريس أفريقيا والانقسامات العرقية وتدخل جنوب أفريقيا زادت من تعقيد الصراع هناك. ورغم تحقيق الاستقلال، فقد شهد البلدان حروبًا أهلية طويلة بعد الاستقلال، على عكس فيتنام التي نجحت في إعادة توحيد الدولة والمجتمع عام 1975.

فلسطين

استلهمت حركات المقاومة والتحرُّر الفلسطينية، مثل حركة التحرير الفلسطينية (فتح)، وحركة المقاومة الإسلامية (حماس) وبقية الفصائل، على تنوُّعها، كثيرًا من أساليب النضال الفيتنامي، خاصة في استخدام تكتيكات حرب العصابات، والاستفادة من دعم الشتات، وحركات التضامن الدولية. لكن السياق الفلسطيني فريد؛ لأنه ليس صراعًا ضد الاستعمار الكلاسيكي، بل هو صراع ضد احتلال استيطاني حديث مدعوم من أغلب القوى الاستعمارية التقليدية، وتتداخل في تعقيده قضايا الهجرة والدين والصراعات الجيوسياسية. ورغم اتساع حركة التضامن العالمية مع الفلسطينيين، فقد شهد الدعم الدولي الرسمي للقضية الفلسطينية انقسامًا حادا، إذا ما قُورن بحجم الدعم الذي حظيت به فيتنام في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين.

مقارنة وخلاصات

عند النظر إلى كفاح فيتنام ضمن الإطار الأوسع لحركات التحرُّر العالمية، يمكن تمييز مجموعة من التشابهات الأساسية، إلى جانب اختلافات جوهرية تجعل من التجربة الفيتنامية حالة استثنائية في تاريخ القرن العشرين. تتمثَّل أبرز

أوجه التشابه في الطبيعة المناهضة للاستعمار التي طبعت هذا الكفاح. فكما خاضت الجزائر حرب تحرير ضارية ضد فرنسا، وناضلت موزمبيق وأنغولا ضد الاحتلال البرتغالي، وانتزعت الهند استقلالها من بريطانيا، كان نضال فيتنام متجذرًا في تاريخ طويل من الاستغلال الاستعماري.

لم يكن الاستعمار مجرّد سيطرة عسكرية أو اقتصادية على الشعوب المستعمرة، إنما كان كذلك منظومة قمع وانتزاع للكرامة والسيادة. وفي إطار دراسات ما بعد الاستعمار، كما صاغها فرانز فانون، فقد كان للاستعمار أثر عميق كذلك على البنية النفسية للمستعمَرين. ومن ثمّ، فقد كان النضال الفيتنامي نموذجيًّا في تأكيد حقيقة أن التحرُّر الوطني ليس مشروعًا سياسيًّا وحسب، إنما عملية شاملة لاستعادة السيادة والقدرة على الفعل وإعادة بناء الهوية الوطنية والتاريخية.

ويوجد وجه آخر للتشابه بين هذه التجارب يتجلَّى في اعتمادها حرب العصابات أداة رئيسية للمقاومة. ولم يكن اختيار هذا الأسلوب تعبيرًا عن اختلال في توازن القوة العسكرية وحسب، إنما كان كذلك اعترافًا بمرونته وقدرته على مواجهة جيوش حديثة تملك قوة عسكرية ضخمة. فقد مكنت تكتيكات "الكر والفر" والمعرفة الدقيقة بالجغرافيا المحلية؛ القوى الأضعف من موازنة كفة الصراع أمام خصوم أقوى. ولم تكن هذه الخصوصية مقتصرة على فيتنام، فجيش التحرير الوطني الجزائري استخدم أساليب مماثلة في جبال القبائل، واعتمدت حركة فريليمو في موزمبيق على قواعدها الريفية في عمق القارة الأفريقية. غير أن فيتنام زادت إلى هذه الاستراتيجيات بُعدًا أكثر تطورًا عبر "طريق هو شي مينه"، وهو شريان لوجستي معقد حافظ على استمرارية المجهود الحربي سنوات طويلة. ومن منظور نظرية الحرب، تُعدُّ هذه التجربة مثالًا نموذجيًّا للحرب غير المتماثلة التي لا يُقاس فيها النجاح بالتقدُّم التكنولوجي، بل بالقدرة على التكيّف والثبات واكتساب الشرعية الاجتماعية.

يُعدُّ الدعم الدولي عاملًا آخر مشترك بين تجارب المقاومة المناهضة للاستعمار. فقد تلقَّى أغلب حركات التحرُّر في العالم الثالث أشكالًا مختلفة ومتفاوتة من المساندة الخارجية، سواء من المعسكر الاشتراكي أم من قوى دولية متعاطفة. وقد حصلت فيتنام على السلاح والتدريب والدعم اللوجستي من الاتحاد

السوفياتي والصين. وسُجّلت أنماط مماثلة في أنغولا، حيث دعمت كوبا الحركة الشعبية لتحرير أنغولا، وفي الجزائر حيث حظي جيش التحرير الوطني بدعم سياسي وشعبي من مصر والعالم العربي. وفي سياق الحرب الباردة، تحوَّلت فيتنام إلى ساحة رمزية اختبر فيها المعسكران الشرقي والغربي قوتهما وشرعيتهما الأيديولوجية. وأظهرت هذه الديناميكية أن حركات التحرُّر لم تكن يومًا شأنًا داخليًّا بحتًا، بل كانت دائمًا متشابكة مع البيئة السياسية العالمية.

إن التشابه الأخير، الذي كان دوره حاسما في انتصار فيتنام، يتمثَّل في تعبئة الشعب؛ لأنه الأساس الحقيقي للنضال. فقد أدرك هو شي مينه أن السلاح وحده لا يكفي، وأن النصر مرهون بأن يشعر الشعب، ولا سيما الفلاحون، بأن الثورة ثورتهم. بناء على ذلك، حرصت حركة فييت منه، ولاحقًا فيت كونغ، على ترسيخ مشروعيتها من خلال الوعود بالإصلاح الزراعي، والعدالة الاجتماعية، واحترام الثقافة المحلية. وهذا ما ميزها عن الإدارات الاستعمارية والأنظمة الموالية للغرب، التي كثيرًا ما ارتبطت بالفساد والابتعاد عن نبض المجتمع. وقد تكرَّر المشهد ذاته تقريبًا في الثورة الكوبية العام 1959، إذ استمال فيدل كاسترو وتشي غيفارا الفلاحين في الأرياف. ويمكن تفسير نجاح فيتنام من منظور نظرية غرامشي عن الهيمنة بقدرة المقاومة على بناء "حس مشترك" جماعي جعل الناس مستعدين طواعية للتضحية في سبيل الثورة.

إلى جانب هذه التشابهات، يوجد عدد من الاختلافات التي جعلت من تجربة فيتنام حالة متفرّدة. أول الاختلافات يتمثَّل في حجم المواجهة وتعقيدها، إذ لم تواجه فيتنام قوة استعمارية واحدة، بل تصدت لقوتين كبيرتين متعاقبتين هما فرنسا، القوة استعمارية التقليدية، والولايات المتحدة القوة العالمية المهيمنة بعد الحرب العالمية الثانية. لذلك، يحمل انتصار المقاومة الفيتنامية على هاتين القوتين رمزية مزدوجة، فهو انتصار على الاستعمار الكلاسيكي والإمبريالية الحديثة معًا.

يكمن الاختلاف الثاني في السياق الأيديولوجي الذي دارت فيه حرب فيتنام، إذ لم تكن حرب استقلال فحسب، إنما كانت كذلك جزءًا من صراع بالوكالة في

إطار الحرب الباردة. فبينما ارتبطت فيتنام الشمالية بالمعسكر الاشتراكي، رأت الولايات المتحدة فيتنام الجنوبية حصنًا متقدِّمًا للدفاع عن النظام الرأسمالي في جنوب شرق آسيا. وعلى النقيض من ذلك، فضَّلت بعض حركات التحرُّر الأخرى تبنِّي قومية "نقية" نسبيًّا غير مرتبطة بشكل وثيق بأي معسكر، كما فعلت إندونيسيا في عهد سوكارنو، حين حافظت على نهج عدم الانحياز رغم ميلها نحو العالم الاشتراكي.

أما الاختلاف الثالث، فيتجلَّى في أن مآلات النضال الفيتنامي كانت أكثر تماسكًا مقارنة بتجارب دول أخرى. فبعد عقود من الحرب، نجحت فيتنام في إعادة توحيد أراضيها تحت حكومة شيوعية مستقرة نسبيًّا. ويختلف ذلك عن حالة أنغولا وموزمبيق، حيث انفجرت حروب أهلية طويلة بعد الاستقلال، وكذلك عن الجزائر التي دخلت عقب استقلالها العام 1962 في مرحلة ممتدة من الاضطراب السياسي. ووفقًا لنظريات الدولة في مرحلة ما بعد الاستعمار، تُعدُّ فيتنام نموذجًا فريدًا لقدرتها على صياغة سردية وطنية موحّدة تتجاوز الحدود الطبقية والإثنية، وهو نجاح يعود بدرجة كبيرة إلى قيادة هو شي مينه والصلابة التنظيمية للحزب الشيوعي الفيتنامي.

من منظور نظريات العلاقات الدولية، جسّدت تجربة فيتنام بعدين متوازيين: الأول كونيّ يتسق مع النمط العام لحركات التحرُّر المناهضة الاستعمار، وهو اعتماد حرب العصابات، والتعبئة الجماهيرية، والدعم الخارجي. والبعد الثاني مرتبط بخصوصية فيتنام وقدرتها على دمج هذه العناصر ضمن بنية الحرب الباردة، بحيث تحوَّل كفاحها من سردية محلية إلى حدث تاريخي أسهم في إعادة تشكيل الجغرافيا السياسية العالمية. لذلك، لم تكن تجربة فيتنام مصدر إلهام لحركات التحرُّر الأخرى وحسب، إنما شكلت كذلك معيارًا يُقاس عليه النضال التحرُّري بشكل عام.

الجزء الثالث

تأثير حركة التحرُّر الفيتنامية وإرثها العالمي

أ. حرب فيتنام (1955–1975)

1. تقسيم فيتنام

عقب اتفاقيات جنيف لعام 1954، قُسّمت فيتنام إلى كيانين: فيتنام الشمالية (جمهورية فيتنام الديمقراطية)، وعاصمتها هانوي، بقيادة هوشي مينه والحزب الشيوعي، وكانت الاشتراكية الأساس الأيديولوجي للدولة. وفيتنام الجنوبية (جمهورية فيتنام)، وعاصمتها سايغون، بقيادة نغو دينه دييم، وتميَّزت بأيديولوجيا قومية سلطوية، وحظيت بدعم كامل من الولايات المتحدة.

عمّق تقسيم فيتنام الصراع الأيديولوجي بين جزأيْها: اشتراكية مقابل رأسمالية، آسيا مقابل الغرب، التحرُّر من الاستعمار مقابل الإمبريالية. ولم تُجرَ انتخابات إعادة التوحيد التي كانت مقرّرة عام 1956؛ لأن الولايات المتحدة وفيتنام الجنوبية خشيتا من فوز شيوعي كان يبدو حتميًّا.

2. استراتيجية الدومينو والتدخل العسكري الأميركي

رأت الولايات المتحدة في فيتنام اختبارًا لصدقيتها العالمية. ووفق نظرية الدومينو، إذا سقطت فيتنام في قبضة الشيوعية فستتبعها دول جنوب شرق آسيا الأخرى[22]. بناءً على ذلك، عزّزت واشنطن منذ أواخر الخمسينيات مساعداتها العسكرية والاقتصادية لسايغون. وفي عام 1964، شكَّل حادث خليج تونكين ذريعة للرئيس الأميركي ليندون جونسون لنشر قوات قتالية مباشرة. وفي ذروة ذلك التدخل، تمركز أكثر من 500 ألف جندي أميركي في فيتنام.

3. حرب العصابات والتعبئة الشعبية

انتهجت جبهة التحرير الوطنية لفيتنام الجنوبية "الفيتكونغ"، بالتعاون مع قوات فيتنام الشمالية، استراتيجية "الحرب الشعبية الشاملة". فبنت أنفاقًا تحت الأرض، وقواعد في الأرياف، وشبكات من الكوادر السياسية. وشملت التعبئة

مجالات تتجاوز القتال لتشمل التنظيمين الاقتصادي والاجتماعي. واستهدفت هذه الاستراتيجية التي عُرفت باسم "الحرب الممتدة"، إنهاك قوة العدو عبر استغلال الجغرافيا الطبيعية، مثل الغابات والأنهار والجبال، والاعتماد على دعم الفلاحين في القرى والأرياف. وكان فو نغوين جياب يعتقد أن الانتصار لا يُحسم في معركة واحدة فاصلة، بل عبر القدرة على التحمل على المدى الطويل[23].

4. التصعيد والمقاومة

شهدت حرب فيتنام ثلاث محطات رئيسية للتصعيد غيّرت موازين الصراع في الميدان والسياسة الدولية. أولى تلك المحطات هجوم تيت (Tet) عام 1968، وغزو كمبوديا عام 1970، وهجوم عيد الفصح عام 1972. وكانت تلك الأحداث أكثر من مجرد حملات عسكرية، فقد حملت رمزية أثّرت في الدعاية والشرعية السياسية وتطور الاستراتيجيات العسكرية الحديثة.

هجوم تيت: انتصار نفسي على قوة عظمى

في يناير/ كانون الثاني 1968، وخلال احتفالات رأس السنة القمرية (تيت)، شن الفيتكونغ والجيش الفيتنامي الشمالي هجومًا واسعًا استهدف أكثر من 100 مدينة ومنشأة عسكرية في فيتنام الجنوبية، وشمل كذلك الهجوم المروع على السفارة الأميركية في سايغون. عسكريًّا، أعلنت الولايات المتحدة النصر، إذ تكبّد الفيتكونغ خسائر ضخمة. لكن سياسيًّا ونفسيًّا، شكّلت محطة تيت تحوُّلًا حاسمًا في مسار الحرب، وتركت أثرًا نفسيًّا سلبيًّا داخل الولايات المتحدة.

فقد بثّت وسائل الإعلام الأميركية صورًا مباشرة لاشتباكات الشوارع في سايغون وهواي (Huế). وبدأ الرأي العام يشكّك في المزاعم الرسمية بأن الحرب تحت السيطرة. وخلص والتر كرونكايت، الصحافي الأكثر صدقية في أميركا، إلى أن الحرب لا يمكن كسبها. وقيل إن الرئيس جونسون علق قائلًا: "إذا خسرتُ كرونكايت، فقد خسرت أميركا الوسطى". من جهته، رأى جياب أن الهدف لم يكن تحقيق نصر عسكري تقليدي، بل تقويض معنويات العدو. وتجد مقولة كلاوزفيتز عن "مركز الثقل" صداها هنا، ففي نظر فيتنام، لم يكن مركزُ الثقل القوةَ العسكرية

الأميركية، بل الدعم السياسي الداخلي لها. وقد استهدف هجوم تيت هذا المركز مباشرة.

عالميا، أثار الهجوم موجة تضامن واسعة، وانتشرت المظاهرات المناهضة للحرب في أوروبا والولايات المتحدة. وقد ربطت شعارات تلك المظاهرات بين المقاومة الفيتنامية وحركات الحقوق المدنية والنسوية واحتجاجات الطلبة العام 1968. وهكذا أصبحت تيت مثالًا كلاسيكيًّا على عملية عسكرية تولّد صدى سياسيًّا عالميًّا.

غزو كمبوديا: توسع ميداني وأزمة شرعية

في أبريل/ نيسان 1970، أعلن الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، أن القوات الأميركية والفيتنامية الجنوبية ستغزو كمبوديا لتدمير قواعد فيت كونغ. وكان الهدف قطع طرق الإمداد عبر "طريق هوشي مينه" الممتد عبر لاوس وكمبوديا. ولكن، بدلًا من إضعاف فيت كونغ، أدَّى الغزو إلى توسيع رقعة الحرب وتحويلها إلى صراع إقليمي زعزع استقرار جنوب شرق آسيا. فمن ناحية، كان تدمير الطريق شبه مستحيل، ومن ناحية أخرى، عزَّز الغزو وجود فيت كونغ داخل كمبوديا.

أدَّى الغزو إلى اندلاع أزمة سياسية حادة داخل أميركا، وفجّر احتجاجات طلابية كانت الأوسع في تاريخ البلاد. وقد بلغت تلك الاحتجاجات ذروتها في مجزرة جامعة "كنت ستيت"، حيث قتل الحرس الوطني 4 طلاب عُزّل. وأظهرت صور قتل الأميركيين لطلابهم مدى تآكل شرعية الحرب.

في نظريات العلاقات الدولية، تعكس تلك الأحداث مفهوم "التوسُّع الإمبراطوري المفرط"، حين تُضعف القوى الكبرى نفسها عبر التوسُّع المفرط في الالتزامات العسكرية. وقد دفعت فيتنام الولايات المتحدة إلى حرب لم تستطع السيطرة عليها أو كسبها، ما عجل بظهور "متلازمة فيتنام"، الصدمة الوطنية المناهضة للتدخل الخارجي.

هجوم عيد الفصح: الضغط العسكري والدبلوماسية والواقعية السياسية

في مارس/آذار 1972، شنَّت فيتنام الشمالية هجومًا واسعًا بالقوات النظامية، شارك فيه أكثر من 120 ألف جندي مدعومين بدبابات ومدفعية ثقيلة سوفياتية. وعلى خلاف هجوم تيت، كان هذا الهجوم عملية تقليدية كاملة. ورغم نجاح القوات الأميركية والفيتنامية الجنوبية في صد الهجوم عبر قصف مكثف، فيما عُرف بعملية "لاينباكر"، فقد أظهر الهجوم قدرة فيتنام الشمالية على خوض حرب واسعة النطاق، ما عزَّز موقفها التفاوضي في محادثات باريس، وأكَّد العلاقة بين الميدان والدبلوماسية.

تعامل الثنائي نيكسون – كيسنجر مع هجوم عيد الفصح وفق منهج الواقعية السياسية، التي تقوم على التقارب مع الصين والانفتاح على الاتحاد السوفياتي. ولكن، بينما كانت واشنطن تحاول عزل هانوي، استغلت فيتنام التنافس العالمي للضغط على الولايات المتحدة. وتفسر لنا نظرية "التفاوض اللامتكافئ" السلوك الفيتنامي، إذ يمكن للفاعل الأضعف على صعيد القوة التقليدية تعزيز موقعه التفاوضي عبر خلق "تهديد ذي صدقية". لقد شكل هجوم 1972 تهديدًا من هذا القبيل بالضبط، ما أقنع الولايات المتحدة بأن النصر العسكري أمر بعيد المنال وأن اللجوء إلى الدبلوماسية أمر لا مفر منه.

التصعيد بوصفه مسرحا سياسيا عالميا

كشفت هذه المحطات عن نمط ثابت، فقد كانت فيتنام أضعف ماديا، لكنّها انتصرت في ميادين السياسة والدبلوماسية والنفس الطويل. لقد هزّ هجوم تيت الروح المعنوية للأميركيين، وقوّض غزو كمبوديا شرعية القوة الأميركية، أما هجوم 1972 فقد عزّز أوراق هانوي التفاوضية.

نظريًّا، أكَّدت حرب فيتنام أن الحروب الحديثة لا تُحسم في ساحات القتال فحسب، إنما كذلك في ساحة الرأي العام المحلّي والدولي. ومن منظور ما بعد الاستعمار، شكَّلت كل عملية هجومية فيتنامية رواية تحرُّرية قلبت منطق الهيمنة الغربية.

5. الانسحاب الأميركي وسقوط سايغون

أطلق الرئيس نيكسون سياسة "الفتنمة"، أي تخفيض القوات الأميركية ونقل مسؤوليات القتال إلى قوات الجنوب. لكن الفساد وضعف الشرعية السياسية والاعتماد الشديد على الدعم الأميركي، جعل سايغون عرضة للانهيار. ورغم أن اتفاقيات باريس للسلام في عام 1973 كانت قد أضفت طابعًا رسميًّا على الانسحاب الأميركي، فإن القتال استمر. وفي 30 أبريل/ نيسان 1975، دخلت قوات فيتنام الشمالية سايغون. ورُفع العلم الأحمر ذو النجمة الذهبية فوق القصر الرئاسي، معلنًا ليس نهاية الحرب فحسب، إنما تحقيق أعظم انتصار تحرُّري في القرن العشرين.

ب- التأثير الدولي لحرب فيتنام

1. الجغرافيا السياسية للحرب الباردة

لعبت حرب فيتنام دورًا بارزًا في تعميق التوترات العالمية. فقد كان دعم الاتحاد السوفياتي والصين هانوي جزءًا من تنافسهما مع الولايات المتحدة، بينما اضطرَّت هانوي إلى موازنة علاقاتها بين القوتين، وهو ما تسبَّب أحيانًا في عرقلة المساعدات. أما الولايات المتحدة، فقد شكَّلت الهزيمة في فيتنام صدمة عميقة لها، وكبَّلت "متلازمة فيتنام" سياستها الخارجية طوال فترة الثمانينيات، وجعلت واشنطن أكثر حذرًا في تدخلاتها الخارجية.

2. حركة التضامن العالمي

أصبحت فيتنام محورًا للتضامن العالمي المناهض للإمبريالية، فقد تسبَّبت في خروج مظاهرات حاشدة في باريس ولندن وطوكيو والعديد من المدن الأميركية. واتخذت حركات الطلبة في أوروبا الغربية عام 1968 حركة التحرُّر الفيتنامية رمزًا للكفاح ضد الرأسمالية والإمبريالية[24]. وفي العالم الثالث، ألهمت فيتنام حركات التحرُّر الوطني، مثل جبهة "أم بي أل أي" في أنغولا، و"فريليمو" في موزمبيق، وجبهة "ساندينيستا" في نيكاراغوا. وقد جسدت فيتنام الدليل على أن "داود يمكنه هزيمة جالوت".

3. أثرها على الاستعمار

مثّلت هزيمة فرنسا في ديان بيان فو عام 1954، وهزيمة الولايات المتحدة في سايغون عام 1975، علامتين فارقتين في تاريخ النضال ضد الاستعمار والإمبريالية: انهيار الاستعمار الأوروبي الكلاسيكي من جهة، وحدود الإمبريالية الأميركية الحديثة من جهة ثانية. ومنذ ذلك الحين، بات الغرب أكثر حذرًا في التعامل مع حركات التحرُّر.

ج- فيتنام بعد 1975: إعادة البناء وتحوُّلات ما بعد الحرب

توحَّدت فيتنام رسميًّا في يوليو/ تموز 1976 تحت اسم "جمهورية فيتنام الاشتراكية"، لكن الانتصار العسكري لم يقترن تلقائيًّا باستقرار اقتصادي. فقد واجه البلد تحدِّيات ضخمة تتعلَّق بالبنية التحتية المدمرة، وملايين القتلى والجرحى، والحصار الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة وحلفاؤها. كما تدهورت علاقات فيتنام مع الصين عقب غزوها كمبوديا في عام 1978 لإسقاط نظام الخمير الحمر. وردّت الصين بغزو قصير لكنه عنيف لفيتنام الشمالية عام 1979. وأصبحت فيتنام أكثر اعتمادًا على الاتحاد السوفياتي، وهو الأمر الذي زاد من عزلتها الدولية.

ومع اشتداد الأزمة الاقتصادية، اضطر الحزب الشيوعي إلى إطلاق إصلاحات "دوي موي" (أي التجديد) بداية من عام 1986، فحرَّر الاقتصاد وفتحه أمام الاستثمار الأجنبي والتجارة الدولية. وتحوَّل البلد تدريجيًّا من دولة منهكة بسبب الحرب إلى إحدى أكثر الاقتصادات ديناميكية في جنوب شرق آسيا. وجسّد هذا التحوُّل مرونة سياسية مهمة اجتمعت فيها الأيديولوجيا الشيوعية بالاقتصاد البراغماتي.

إن نضال فيتنام ضد الاستعمار الفرنسي والتدخل الأميركي يحتل موقعًا فريدًا في التاريخ الحديث، ليس لأنه أثبت قدرة أمة صغيرة على هزيمة قوى عظمى، إنما لأنه ترك أثرًا نموذجيًّا عميقًا على نظريات وممارسات حركات التحرُّر عبر العالم. فقد شكلت فيتنام بعد الحرب العالمية الثانية مختبرًا عمليًّا لدراسة كيفية الانتصار

في الحروب غير المتناظرة، وكيفية تعبئة شعب كامل في النضال الوطني، وكيفية توظيف الدعم الدولي دون فقدان الاستقلال السياسي، وكيفية تأثير الإرث الأيديولوجي لهذا النضال على المستوى العالمي.

نقله إلى العربية كريم الماجري

المراجع

1. W. J. Duiker, *Ho Chi Minh: A Life* (New York: Hyperion, 2000).
2. Stanley Karnow, *Vietnam: A History* (New York: Penguin Books, 1997).
3. Bernard Fall, *The Viet Minh: The History of the Communist Forces in Vietnam, 1941-1954* (New York: Grove Press, 1967).
4. George C. Herring, *America's Longest War: The United States and Vietnam, 1950–1975* (Boston: McGraw-Hill, 2001).
5. David G. Marr, *Vietnam: State, War, and Revolution* (Berkeley: University of California Press, 1981).
6. Ernesto Che Guevara, *The Cuban Revolution and the National Liberation Struggle in Vietnam* (New York: Monthly Review Press, 2007).
7. Simon Tay, *Vietnam's Revolutionary Struggle: Theories and Methods of National Liberation* (Singapore: Institute of Southeast Asian Studies, 1998).
8. Duiker, *Ho Chi Minh: A Life*.
9. Tay, *Vietnam's Revolutionary Struggle*.
10. Peter Zinoman, *The Colonial Bastille: A History of Imprisonment in Vietnam, 1862-1940* (Berkeley: University of California Press, 2001).
11. Marilyn B. Young, *The Vietnam War and the Struggle for National Liberation* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).
12. Fredrik Logevall, *Embers of War: The Fall of an Empire and the Making of America's Vietnam* (New York: Random House, 2012).
13. Edward D. Hickman, *The Vietnam War: A Global History* (Chicago: University of Chicago Press, 2006).
14. Young, *The Vietnam War and the Struggle for National Liberation*.
15. Herring, *America's Longest War*.
16. Warren I. Cohen, *Vietnam: The Early History of a Late Colonialism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991).
17. Marr, *Vietnam: State, War, and Revolution*.
18. Karnow, *Vietnam: A History*.
19. Fall, *The Viet Minh*.
20. Logevall, *Embers of War*.
21. Young, *The Vietnam War and the Struggle for National Liberation*.
22. Herring, *America's Longest War*.
23. Duiker, *Ho Chi Minh: A Life*.
24. Young, *The Vietnam War and the Struggle for National Liberation*.

نضال جنوب إفريقيا ضد الاستعمار والفصل العنصري

نعيم جيناه

مقدمة

امتد النضال الجنوب إفريقي من أجل التحرُّر من الاستعمار والفصل العنصري أكثر من ثلاثة قرون، وشمل مراحل متعاقبة تعكس في طياتها التحوُّلات في طبيعة دولة جنوب إفريقيا. فبدءًا من الفترة الاستعمارية المبكرة في أواخر القرن السادس عشر حتى العقد الأول من القرن العشرين، كانت جنوب إفريقيا تمثِّل نموذجًا للاستعمار الاستيطاني، وكانت القوى الاستعمارية الرئيسية تتمثَّل في الهولنديين والبريطانيين. ثم جاء المستوطنون من دول أوروبية مختلفة، بما في ذلك فرنسا وألمانيا، فشكَّلت تلك المرحلة بداية النضال المناهض للاستعمار.

منذ عام 1910 وحتى عام 1961، كانت جنوب إفريقيا إقليمًا يتمتع بالحكم الذاتي ضمن الإمبراطورية البريطانية، على غرار كندا وأستراليا حاليًّا. وخلال هذه الفترة، تحوَّل النضال المناهض للاستعمار إلى نضالٍ – غالبًا ما اتسم بـ "اللاعنف" – من أجل تحقيق المساواة في الحقوق لجميع مواطني جنوب أفريقيا. وقد تزامن إعلان الجمهورية الجنوب أفريقيا العام 1961 مع تحوُّلٍ في طبيعة هذا النضال، من كونه في معظمه سلميًّا إلى نضالٍ بات يشمل أشكالًا مختلفة من الكفاح المسلح.

يتناول هذا الفصل المراحل المختلفة لنضال جنوب إفريقيا من أجل التحرُّر، مع التركيز على التفاعل بين المقاومة "غير العنيفة"، والنضال المسلح، والعمل السياسي.

النضال ضد الاستعمار حتى عام 1906

منذ منتصف القرن السادس عشر، كانت عيون القوى الاستعمارية الأوروبية موجهة إلى الطرف الجنوبي من إفريقيا. حينها وصل البرتغاليون والهولنديون إلى ما يُعرف اليوم بمقاطعة كيب الغربية في طريقهم من أوروبا إلى الشرق، وبالأخص الهند، وجافا، وإندونيسيا. على الرغم من ذلك، لم تُنشأ مستوطنات دائمة حتى منتصف القرن السابع عشر؛ فقد كانت "رأس العواصف" أو "رأس الرجاء الصالح"، كيب تاون حاليًّا، محطة توقف مؤقتة للتزوُّد بالغذاء والماء خلال الرحلة البحرية الطويلة.

قرَّر الهولنديون إنشاء محطة تموين دائمة في رأس الرجاء الصالح، مما بدأ فترة طويلة من الاستعمار الاستيطاني.

غير أنه في منتصف القرن السابع عشر قرَّر الهولنديون إنشاء محطة تموين دائمة في رأس الرجاء الصالح، وبذلك بدأت مرحلة طويلة من الاستعمار الاستيطاني. وسرعان ما واجهت تلك المستعمرة مقاومة من السكان الأصليين، لتبدأ بذلك مرحلة النضال المناهض للاستعمار. وحين قامت القوة الاستعمارية بنفي المناضلين المناهضين للاستعمار من مستعمراتها الأخرى، مثل بلاد البنغال وجافا وإندونيسيا، إلى رأس الرجاء الصالح، تصاعد النضال. وقد شمل النفي شخصيات ملكية وعلماء دين، زيادة على مجموعات من العبيد جُلبت من تلك المستعمرات، فأسهم ذلك في تعزيز الحركة المناهضة للاستعمار.

مع توسع المستعمرة، خصوصًا بعد استيلاء البريطانيين عليها، اتسع كذلك نطاق المعارك ضد القوى الاستعمارية. وعندما هاجر المستوطنون والجنود والمبشرون إلى الشرق من المستعمرة، واجهوا شعب الأماخوسا الذي قاومهم بشدة. وفي الساحل الشرقي، في منطقة كوازولو ناتال الحالية، أطلق شعب الأمازولو مقاومة متعدّدة الأشكال ضد الاستعمار البريطاني، كما واجه المستوطنون المتجهون شمالًا مقاومة من السكان الأصليين. شهدت تلك الفترة كذلك عدة محاولات استعمارية للإبادة الجماعية، أبرزها ما قام به البريطانيون ضد شعب السان في المناطق الوسطى من البلاد.

بلغت المقاومة المسلحة ذروتها في تمرُّد بامباثا، عام 1906، في ناتال على الساحل الشرقي[1]. وقد بدأ التمرُّد في شكل احتجاج على "ضريبة الرأس" التي فرضتها السلطات البريطانية لإجبار رجال الزولو على مغادرة أراضيهم للعمل في المزارع والمناجم المملوكة للبيض. ولكن ذلك التمرُّد جرى قمعه، وأُعدم الزعيم بامباثا كا مانسينزا، وهو ما شكَّل نقطة تحوُّل في طبيعة نضال التحرُّر الجنوب إفريقي. وتزامنت تلك الأحداث مع نهاية الحرب بين البريطانيين والبوير (البوير هم المستوطنون البيض الأفريكان الذين لا صلة لهم بقوة استعمارية محددة). ويبدو أن المؤتمر الوطني الإفريقي (ANC) والبوير، كلاهما أدرك صعوبة مواجهة القوة العسكرية الساحقة التي كان يمكن للإمبراطورية البريطانية نشرها في مستعمراتها.

استعمار من نوع خاص

على الرغم من نهاية الاستعمار رسميًّا بحلول عام 1910، فقد شدَّد الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي على أن سكان جنوب إفريقيا عاشوا خلال فترة الفصل العنصري تحت ما وصفه بـ "استعمار من نوع خاص" أو "الاستعمار الداخلي". ففي برنامجه لعام 1962، تحت عنوان "الطريق نحو حرية جنوب إفريقيا"، عَدَّ الحزب أن هذا النوع الخاص من الاستعمار ينبني على العيش المُشترك بين المُستعمِرين والمُستعمَرين في البلد نفسه[2]. وأوضح الحزب أن الأقلية البيضاء كانت قوة استعمارية داخلية، تهيمن على الأغلبية السوداء اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا، وتسيطر على معظم أراضي السود، وعاملتهم كما عاملت القوى الاستعمارية الأجنبية الشعوب المستعمَرة. ومثلما هو الحال في سياقات الاستعمار الأخرى، فقد عانى السود في جنوب إفريقيا من أشكال القهر الوطني نفسه والاستغلال الاقتصادي وسرقة الموارد التي واجهها المستعمَرون خلال فترة استعمارهم.

النضال الوطني من أجل التحرُّر

النضال غير العنيف

بحلول عام 1910، كانت جنوب إفريقيا، التي أصبحت فيما بعد جمهورية، تتألف من أربع جمهوريات منفصلة؛ اثنتان للبوير، يسيطر عليهما المستوطنون البيض من الأفريكانز، واثنتان كانتا جزءًا من الإمبراطورية البريطانية. وفي مايو/أيار 1910، اندمجت الكيانات الأربع لتشكّل اتحاد جنوب إفريقيا. ورغم أن الدولة الجديدة كانت لا تزال جزءًا من الإمبراطورية البريطانية، إلا أنها كانت تتمتع بحكم ذاتي. وقد سيطرت الأقلية البيضاء على الدولة الجديدة ومواردها، في حين لم يكن للسود (كل مَن لا يُصنَّف أبيض) أي حقوق سياسية تقريبًا. وكانت حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية محدودة جدًّا. وكان الاتحاد، عمليًّا، بمنزلة دولة للمستعمرين البيض، بينما عُدَّ السود، سواء الأصليون أم الذين جُلبوا عبيدا أو منفيين أو عاملين بعقود محددة، مجرد "غرباء"، وغالبًا ما كانوا يُستغلون مصدرًا للعمالة الرخيصة لا غير.

بعد قمع تمرُّد باماثا وتشكيل اتحاد جنوب إفريقيا، تغيرت طبيعة النضال التحرُّري من نضال ضد الاستعمار إلى نضال تحرُّر وطني، يشمل سعي السود إلى الحصول على حقوق متساوية مع المستوطنين. في هذه المرحلة، تمَّ ضمنيًّا قبول أن المستوطنين أصبحوا جزءًا دائمًا من جنوب إفريقيا. ولا يعني ذلك أن الدوافع المناهضة للاستعمار قد اختفت؛ إذ وقعت معارك صغيرة متفرقة ضد الاستعمار. ومع ذلك، فإن تشكيل المؤتمر الوطني للسكان الأصليين، عام 1912، الذي أُعيدت تسميته عام 1923 بالمؤتمر الوطني الإفريقي (ANC)، رسَّخ الطبيعة الجديدة للنضال. وعلى مدى نحو نصف قرن، ركَّز المؤتمر على هذا الخطاب القائم على الحقوق، فرفع مطالب حقوقية، وانخرط في النضال من أجل انتزاع هذه الحقوق باستخدام وسائل غير عنيفة.

وركَّز المؤتمر مدة نصف قرن تقريبًا، على خطاب الحقوق والمطالب القائمة على الحقوق، وانخرط في الكفاح من أجل تحقيق هذه الحقوق بوسائل غير عنيفة. ومع ذلك، فإن مصطلح "النضال غير العنيف" لا يعكس الواقع بدقة. فكما يشير

القائد العسكري السابق في المؤتمر الوطني الإفريقي ووزير الاستخبارات السابق، روني كاسريلز، فإن النضال غير العنيف غالبًا ما يتخذ أشكالًا عسكرية أو متشدّدة[3]. فعند الإشارة إلى "أطفال المقاومة" الذين يرمون الحجارة في كل من جنوب إفريقيا وفلسطين، يرى كاسريلز أنه على الرغم من أن هذه الأعمال قد لا تُعدُّ مقاومة مسلحة، إلا أنها كانت في كثير من الأحيان متشدّدة وعنيفة.

لذلك، بعد سنوات قليلة من تأسيس المؤتمر الوطني الإفريقي، تخلَّلت نضالاته بعض الأعمال العنيفة، خلافًا لنهجه الرسمي المعلن. شملت تلك الأعمال، على سبيل المثال، الحملة المسلحة المناهضة لقانون التراخيص الخاص بحركة السكان الأصليين في المناطق الحضرية، التي شنَّتها، عام 1919، منظمات مثل المؤتمر الوطني الإفريقي، ورابطة الاشتراكيين الدولية لجنوب إفريقيا، ومنظمة عمَّال إفريقيا الصناعيين. زيادة على ذلك، نظَّم الحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا عدة إضرابات واعتصامات ومسيرات. وقد جسَّد الخطاب والنشاط الذي سبق تأسيس رابطة شباب المؤتمر الوطني الإفريقي عام 1944، مدى التداخل الكبير بين أشكال المقاومة العنيفة وغير العنيفة.

في خمسينات القرن العشرين، ورغم تأكيد المؤتمر الوطني الإفريقي رسميًّا الطبيعة غير العنيفة لنضاله، إلا أن شعور الناس كان قد بدأ يتغير تجاه مقاومة القهر باستخدام العنف الثوري. كما أن القمع الوحشي الذي كانت تمارسه دولة الفصل العنصري، في تلك الفترة، بلغ مستويات جعلت كثيرين يقتنعون بأن المقاومة السلمية لم تعد كافية. وقد شمل التعامل مع تمرُّد زيروست وبوندولاند أصنافًا من ذلك القمع.

تمرُّد زيروست

جاء تمرُّد زيروست ردًّا على قرار حكومة الفصل العنصري، عام 1952، إلزام النساء الإفريقيات بحمل تراخيص العبور، التي كان الرجال الأفارقة مجبرين على حملها عقودًا. وكانت تلك التراخيص تُستخدم للتحكُّم في حركة الأفارقة ووصولهم إلى أماكن العمل؛ فقد كان يُسمح للرجال بدخول المناطق "غير

الإفريقية" فحسب لأغراض العمل، ويُجبَر أرباب العمل على تدوين تفاصيل العمل في تلك التراخيص. وكان بإمكان الشرطة توقيف الرجال في أي مكان وطلب الاستظهار بالتراخيص، مع إمكانية اعتقالهم إذا لم يكونوا موظفين في المنطقة. وعندما حاولت الحكومة فرض تلك القوانين على النساء، انتفضت نساء زيروست، ومناطق أخرى، ورفضن الامتثال[4].

ردًّا على تلك الاحتجاجات، هاجمت الشرطة والأعيان المتعاونون مع الدولة النساء المحتجات، وحدثت اعتقالات جماعية، وتعرضت النساء للضرب بالسياط والعصي؛ ما أجبر الكثير منهن على الهروب وترك منازلهن. وقد جعل القمع النساء والرجال أكثر تشدُّدًا، وانخرط القرويون، دون توجيه من أي حزب سياسي، في أعمال تخريب ومقاومة عنيفة، مستهدفين الأعيان والحراس ومنازل المتعاونين مع النظام. كما تعرضت القيادات المحلية ورجال الدين والمدرسون، وغيرهم ممَّن ساندوا قانون فرض تراخيص العبور العنصرية، إلى الهجوم. كما قتل بعض حُراس أولئك الأعيان، الذين كانوا يعملون إلى جانب رجال الشرطة لإنفاذ ذلك القانون، فيما أُحرقت منازل المتعاونين معهم[5].

تمرُّد بوندولاند

حدث تمرُّد بوندولاند في الخمسينات وأوائل الستينات في ما يُعرف الآن بمقاطعة الكيب الشرقية، وكان اعتراضًا على إصدار السلطات قانون البانتو لعام 1951. كان من المفترض أن يمنح ذلك القانون شكلًا من "الحكم الذاتي" للسكان الأفارقة، عبر منظومة السلطة القبلية، ضمن جزء من خطة حكومة الفصل العنصري فرض سيطرتها على الأفارقة في المناطق الريفية، وإعادة هيكلة استخدام الأراضي على حساب الفلاحين. ولكن الأهالي ثاروا ورفضوا تلك السلطات المفروضة؛ ما أدَّى إلى قمعهم بوحشية. وفقًا لغوفان مبيكي، "قمعت الحكومة التمرُّد من خلال الزج بالجيش لمساعدة الشرطة، مستخدمة البنادق الآلية، والعربات المدرعة، والطائرات ضد الفلاحين العزل، إلى جانب موجة من الإرهاب والاعتقالات الجماعية الواسعة"[6]. في المقابل، شملت الاحتجاجات حرق الأكواخ والمزارع

وقتل الماشية التابعة للمتعاونين ومقاطعة التجار البيض المحليين. ولم تكن تلك الاحتجاجات "غير عنيفة"، فقد رأى المشاركون فيها، بمن في ذلك أعضاء منظمات سياسية اعتمدت النهج السلمي مثل مبيكي نفسه، أنه لا يوجد انفصال صارم بين التمرُّد وسياساتهم الرسمية.

لعب تمرُّد بوندولاند دورًا حاسمًا في دفع المؤتمر الوطني الإفريقي إلى مراجعة نهجه في المقاومة[7]. وكانت له تداعيات حتى على حركة الوحدة غير الأوروبية (NEUM)، الأصغر حجمًا والأقل تأثيرًا. فقد كان لذلك التمرُّد "تأثير عميق على القرارات السياسية التي اتخذتها قيادة الحركة في أوائل الستينات"[8]. ويشير المؤرخ لولي كالينيكوس إلى أن تمرُّد بوندولاند كان الحدث الذي دفع المؤتمر رسميًّا إلى اعتماد الكفاح المسلح بعد سنوات قليلة[9].

وسواء أكان تمرُّد بوندولاند وحده، أم بالاشتراك مع مجزرة شاربفيل وحظر حركات المقاومة، هو ما أوصل إلى قرار اعتماد نهج المقاومة المسلحة، فالمؤكّد أن العنف الشعبي والمقاومة غير المنظمة ألهمت الحركات السياسية، خصوصًا المؤتمر الوطني الإفريقي وأعضاءه الذين انفصلوا لاحقًا لتشكيل المؤتمر الإفريقي الشامل (PAC)، للظر في إمكانية اعتماد نهج العمل المسلح.

يجادل كاسريلز بأن حالتَي زيروست وبوندولاند تجسِّدان طريقة تأثير القمع الشديد، الذي تمارسه الدولة، على تصاعد حركات المقاومة وعلى تطوير تكتيكاتها؛ ما يترتَّب عليه مزيد من القمع وزيادة أكبر في التشدُّد. وزاد كاسريلز: "كما يقول ماركس، تتقدَّم الثورة على أساس المقاومة ورد الفعل. فالقمع الذي تمارسه الدولة يولد مقاومة منظمة تصل إلى حدٍّ معين تتعامل معه الدولة بالمزيد من التصعيد. عندها يتعين على الثوريين التعلم والتكيف لتطوير قدراتهم وتصعيد مقاومتهم؛ ما يفرض بدوره تطورًا مماثلًا في قدرة الدولة على ممارسة القمع"[10].

لم تكن زيروست وبوندولاند الحالتين الوحيدتين الوحشيتين اللتين أثَّرتا على نظرة المؤتمر الوطني الإفريقي للنضال. ففي الأول من مايو/ أيار 1950، قُتل 18 شخصًا على يد الشرطة خلال احتجاج عيد العُمَّال الذي نظَّمه حزب المؤتمر الوطني بالاشتراك مع الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي في سويتو[11]. وفي وقت

لاحق من الشهر نفسه، أقرَّ البرلمان قانون قمع الشيوعية، الذي حظر نشاط الحزب الشيوعي[12].

ومن الأدلة المقدمة في محاكمة الخيانة، عام 1956، ضد عضو المؤتمر الوطني الإفريقي ومنظم حملة العصيان المدني عام 1952، روبرت ريشا[13]، أحد خطاباته التي دعا فيها إلى "الانضباط الثوري" بين كوادر المؤتمر، وقال: إن عضو المؤتمر يجب أن يكون مستعدًّا "لقتل رجل أبيض" إذا دعت الحاجة. ومن الواضح أن ريشا ورفاقه لم يروا انفصالًا صارمًا بين حملة العصيان غير العنيفة وما أسموه "العنف الثوري". في الواقع، شهدت خمسينيات القرن العشرين العديد من المناقشات بين النشطاء وبدء تمهيد الطريق لبدء شكل من أشكال الكفاح المسلح ضد دولة الفصل العنصري، كما فصَّل ذلك المؤرخ والناشط السابق في الحركة السرية للمؤتمر الوطني الأفريقي، ريموند سانتر، في كتابه "العمل السري للمؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا"[14].

شاربفيل وإعلان الكفاح المسلح

يعود قرار المؤتمر الوطني الإفريقي، عام 1961، الانخراط في الكفاح المسلح إلى مجزرة شاربفيل في 21 مارس/آذار 1960. حينها قمعت الشرطة بوحشية المتظاهرين السلميين الذين كانوا يحتجون على قوانين التراخيص. وقد نظمت حركة المؤتمر الإفريقي الشامل ذلك الاحتجاج ضمن حملة العصيان المدني، وكان قادة الحركة يخططون لتسليم أنفسهم للشرطة بسبب عدم حملهم التراخيص المطلوبة كما يقتضي القانون. لكن الشرطة فتحت النار عليهم، وهو ما أسفر عن مقتل 69 متظاهرًا وإصابة نحو 200 آخرين.

بعد المجزرة، تكثفت النقاشات بين المؤتمر الوطني الإفريقي وحركة المؤتمر الإفريقي الشامل بشأن الانخراط في الكفاح المسلح، وكان الشعب منخرطًا في الحراك التحرُّري على نطاق واسع. في هذا السياق، سُجِّلت في الخمسينات وأوائل الستينات عدة أحداث. ففي عام 1956، قُتل ستة من رجال الشرطة في بيرغفيل أثناء إحراقهم حقول الماريغوانا التي كان يزرعها الفلاحون[15].

وشهد عام 1958 تمرُّد سكان سيكوخونيلاند ضد قانون "السلطات" المعروف بالبانتو[16]. كما شنَّ قائد المؤتمر الوطني الإفريقي، جو موديزي، ومجموعة تابعة له هجمات تخريبية صغيرة خلال خمسينات القرن العشرين. وفي أوائل 1960، قُتل تسعة من رجال الشرطة في كاتو مانور في مدينة ديربان خلال حملة مداهمات لمكافحة البيع غير المرخص للمشروبات الكحولية[17].

من اللافت أن أغلب الأعمال المسلحة وحركات التمرُّد كانت تحدث في المناطق الريفية، حيث حركات المقاومة، مثل المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي الشامل، أقل تنظيمًا مقارنة بالمناطق الحضرية، وكانت الانتفاضات في كثير من الأحيان تحدث بشكل عفوي خارج خطط حركات المقاومة.

في الثلاثين من مارس/ آذار 1960، وبعد أيام قليلة من مجزرة شاربفيل، فرضت الحكومة حالة الطوارئ في مناطق مختلفة من البلاد، واحتجزت مئات النشطاء دون محاكمة، ومنعت الاجتماعات، واعتقلت الأشخاص سرًّا واستجوبتهم. وفي السابع من أبريل/ نيسان، دخل قانون المنظمات غير القانونية حيز التنفيذ، فحُظر المؤتمر الوطني الإفريقي وحركة المؤتمر الإفريقي الشامل، واحتُجز نحو 18 ألف شخص بموجب قانون الطوارئ، بمن في ذلك رئيسا المنظمتين، الزعيم ألبرت لوتولي وروبرت مانغاليسو سوبوكوي. ولجأ العديد من قادة المقاومة إلى المنفى، تمهيدًا لتبنِّي الكفاح المسلح.

وقبل أن تتمكَّن أي من المنظمتين من تأسيس جيشها في المنفى، شرعت منظمة حديثة النشأة تُسمَّى اللجنة الوطنية للتحرير (NCL)، التي أعيد تسميتها لاحقًا بلجنة التحرير الوطني (NLC)، ثم حركة المقاومة الإفريقية (ARM) في شن حملة عصيان واسعة شملت مختلف أنحاء البلاد.

تأسَّست اللجنة الوطنية للتحرير أواخر عام 1960، وتشكَّلت أساسًا من المثقفين البيض، بمَن فيهم بعض أعضاء الحزب الشيوعي الجنوب إفريقي. وقد رأى مؤسسوها أن عنف الدولة يتطلَّب ردًّا عنيفًا، وسعوا إلى تحويل اللجنة إلى مظلة تنظِّم تحتها المنظمات التحرُّرية المختلفة عمليات العصيان ضد الدولة. بين 1961 و1965، شنَّت اللجنة (ثم حركة المقاومة الإفريقية) خمسًا وعشرين عملية استهدفت أعمدة الكهرباء

ومكاتب شؤون البانتو وغرف الانتظار المخصصة للبيض في محطة جوهانسبرغ. وحرص منفذو العمليات على ألا يُصاب أي شخص، ونجحوا في ذلك إلى حدٍّ كبير، باستثناء تفجير محطة القطار فقُتل شخص واحد وأصيب 23 آخرون. وفي عام 1965، اعتُقل عدد كبير من أعضاء حركة المقاومة الإفريقية، وحُكم على العديد منهم بالسجن مدة 15 عامًا، في حين كان جون هاريس، منفذ تفجير محطة القطار، الشخص الأبيض الوحيد الذي أعدمته دولة الفصل العنصري بحكم قضائي. يعكس نموذج حركة المقاومة الإفريقية التداخل الزمني بين المقاومة السلمية والعنيفة، ويوضح رؤية العديد من النشطاء في تلك الفترة التي لم تكن فيها المقاومة المسلحة سوى شكل آخر من أشكال الاحتجاج.

بعد شاربفيل، ركَّز كل من المؤتمر الإفريقي الشامل والمؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي الجنوب إفريقي على تطوير حملة مقاومة مسلحة. فأنشأ المؤتمر الإفريقي الشامل جناحه المسلح "بوكو"، وأنشأ كل من المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي الجنوب إفريقي حركة "رمح الأمة". ورغم أن الغضب الشعبي الذي تصاعد بعد شاربفيل هو ما دفع تلك الجماعات نحو المقاومة المسلحة، لم تكن قد ظهرت في تلك الفترة أي نظرية أو استراتيجية واضحة، ولم يكن يوجد تنظيم واحد وراء أغلب الأنشطة الميدانية. ولم يكن قادة المؤتمر الوطني الإفريقي متأكِّدين مما إذا كان الكفاح المسلح استراتيجية أم مجرد تكتيك، ولم يكن ثمة فهم واضح لشكل المقاومة المسلحة الواجب تبنِّيه.

وفيما يتعلَّق بالخيارات المتاحة أمام حركة "رمح الأمة"، قال نيلسون مانديلا: "عندما كنا نخطط لإطلاق "رمح الأمة" وتحديد شكله واتجاهه، نظرنا إلى أربعة أنواع من الأنشطة العنيفة: التخريب، وحرب العصابات، والإرهاب، والثورة المفتوحة. ونظرًا لقلّة عدد القوة العسكرية وحداثة نشأتها، استحال اللجوء إلى ثورةٍ مفتوحة، وكان الإرهاب سيرتدّ سلبًا على القائمين به، ويقوِّض أي دعم شعبي محتمل. وكانت حرب العصابات ممكنة، لكن نظرًا لتردُّد المؤتمر الوطني الإفريقي في تبنِّي العنف، فقد كان من المنطقي البدء بشكل من العنف يسبِّب أقل ضرر للأفراد، ألا وهو التخريب"[18].

وقد أراد بعض قادة المؤتمر الوطني الإفريقي اتباع نموذج حرب العصابات الكوبية، بينما تحدَّث آخرون عن الثورة الجزائرية، وهكذا. ثم كان أن اتبعت القرارات النهائية للحزب الشيوعي الجنوب إفريقي والمؤتمر الوطني الإفريقي نصائح رفاقهم من الجزائر وفيتنام وكوبا والصين والاتحاد السوفياتي. وفي مارس/آذار 1962، زار ريشا ومانديلا مقر جيش التحرير الوطني، الجناح المسلح لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، في وجدة بالمغرب، وكانت حرب الاستقلال الجزائرية نموذجًا أيقونيًّا لمعظم حركات التحرُّر المناهضة للاستعمار. لذلك، سعى المؤتمر الوطني الإفريقي للحصول على تدريب ونصائح ودعم من جيش التحرير الجزائري. وقبل التوجُّه إلى وجدة، قضى القائدان بعض الأيام في الرباط مع رئيس البعثة الجزائرية (د. مصطفى)، الذي زوَّدهما بمعلومات عن المقاومة الجزائرية واستراتيجية حرب العصابات ضد فرنسا، مشدِّدًا على أهمية السياسة في الحرب إلى جانب البعد العسكري[19].

التقى ريشا ومانديلا وقائد المقاومة الجزائري أحمد بن بلة، في مدينة وجدة المغربية، بعدد من قادة جيش التحرير الوطني الجزائري، وناقشوا وضع حركة التحرُّر في جنوب إفريقيا. وعندما أشار مانديلا إلى إعجابه بالنضال الكوبي نموذجًا، ردَّ القائد الجزائري بأن جنوب إفريقيا لا توفِّر ملاذًا لمقاتلي المؤتمر الوطني الإفريقي، وأن التضاريس المناسبة الوحيدة هي جبال ليسوتو، لكنها غير ملائمة لأنها ستعزل المقاتلين عن السكان المحليين. وأكَّد أن القوة العسكرية والجوية لنظام الفصل العنصري كانت أقوى من كوبا في عهد باتيستا، وخلُص إلى أن كل ذلك يجعل النموذج الكوبي غير ملائم.

غير أن وضوح الرؤية بشأن المقاومة المسلحة تحقَّق بعد زيارة قادة المؤتمر الوطني الإفريقي لفيتنام. فقد حدَّدوا استراتيجيتهم التي تَعُدُّ الجانب السياسي، بما في ذلك النضال الجماهيري، أولوية مطلقة يخضع لها الكفاح المسلح. وقد تمَّ إنشاء الهياكل السرية داخل المؤتمر الوطني الإفريقي ليس لدعم منظمة "رمح الأمة" فحسب، إنما لتوجيهه وربطه بالنضال الجماهيري ونشر سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي بما في ذلك النشريات والمواد الدعائية، وكان يوجد جانب آخر حيوي من الاستراتيجية يتعلَّق بالتضامن الدولي.

ناقش المؤتمر الوطني الإفريقي هذه الخيارات وتبنَّى استراتيجيته الجديدة في مؤتمر موروغورو الاستشاري الوطني الذي انعقد في تنزانيا، عام 1969[20]. واعتمد المؤتمرون وثيقة مركزية بعنوان استراتيجية وتكتيكات المؤتمر الوطني الإفريقي[21]، التي شملت عددًا من القضايا مثل دور الكفاح المسلح، والعلاقة بين الجوانب السياسية والعسكرية للنضال، ودور الهياكل السرية، وضرورة وجود بعد دولي للنضال، ودور الفئات الأخرى المضطهدة، ودور الطبقة العاملة. وقد أكَّدت الوثيقة ضرورة خوض كفاح مسلح طويل قبل "استيلاء المؤتمر الوطني الإفريقي على السلطة"، مشدّدة على أن تطوير المقاومة المسلحة بنجاح يعتمد على التعبئة السياسية[22].

وفي ثمانينات القرن العشرين، أصبحت هذه الاستراتيجية تُعرف بـ "الأركان الأربعة للنضال": التعبئة الجماهيرية، والكفاح المسلح، والتنظيم السرِّي، والتضامن الدولي. وكان مؤتمر موروغورو قد شدَّد على ضرورة تخصيص موارد أكبر لإنشاء شبكة سياسية سرية داخل البلاد من أجل ربط الكفاح المسلح بالنضال الجماهيري وتحقيق الأهداف السياسية الأوسع، غير أن التقدُّم في تنفيذ تلك السياسة كان بطيئًا.

في عام 1976، وبعد احتجاج شعبي واسع في سويتو بجوهانسبرغ، قوبل بعنف شديد، اندلعت انتفاضة شملت كامل التراب الوطني. واستفاد المؤتمر الوطني الإفريقي في تلك الانتفاضة من عدد كبير من الشباب الذين كانوا قد لجؤوا إلى المنفى وانخرطوا في صفوفه، بما في ذلك العديد ممَّن كانوا أعضاء في حركات تحرُّرية أخرى. فالكثير من أولئك الشباب كانوا يرغبون في مواجهة نظام الفصل العنصري عسكريًّا. وشهدت الفترة التالية العديد من العمليات المسلحة داخل البلاد، بما في ذلك الهجمات المفخخة على منشأة ساسول لتحويل الفحم إلى نفط[23]، عامي 1980 و1985، وتفجير محطة الطاقة النووية في كوبرغ، عام 1981[24]، والهجوم الصاروخي على منشأة للقوات المسلحة في فورتريكرهوغت في العام ذاته[25]، وتفجير السيارات أثناء الهجوم على مقر سلاح الجو في بريتوريا عام 1983.

ولكن، بعد زيارة بعض كبار قادة المؤتمر الوطني الإفريقي لفيتنام في 1979، أصبح التفكير الاستراتيجي داخل الحركة أكثر حذرًا. فقد أدرك قادة المؤتمر أنه رغم أن السياق الفيتنامي استدعى أولوية الجانب العسكري، فإن الفيتناميين شدَّدوا كذلك على أهمية الجانب السياسي. ونظرًا لمركزية دور الجماهير في الكفاح المسلح، فقد أطلقوا على حربهم مصطلح "حرب الشعب". بناء على ذلك، أدركت قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي أن من متطلبات النجاح في النضال اعتماد نهج متكامل لتطبيق الاستراتيجية الشاملة المتفق عليها في موروغورو، دون هيمنة جانب منها على بقية الجوانب.

شهدت الثمانينات تكثيفًا لنشاط المقاومة في جنوب إفريقيا، فتشكَّلت تحالفات واسعة داخل البلاد تحت مظلة المنتدى الوطني الذي ضمَّ بشكل رئيسي مجموعات مرتبطة بحركات الوعي الأسود والمؤتمر الوطني الإفريقي وبعض المنظمات الاشتراكية والجبهة الديمقراطية المتحدة المرتبطة بالمؤتمر الوطني الإفريقي. في ذات الوقت، تأسَّس مؤتمر نقابات جنوب إفريقيا، وهو أكبر اتحاد نقابي في القارة الإفريقية. أما احتجاجات الطلاب، فقد انطلقت شرارتها عام 1980 واستمرت جذوتها متقدة طوال العقد، وانضمَّت إليها انتفاضات العُمَّال والأهالي، فواجهتها الدولة بتصعيد القمع. ومن المنفى، دعا زعيم المؤتمر الوطني الإفريقي، أور تامبو، الجنوب إفريقيين إلى "تحطيم النظام القديم وتدميره، وإلى جعل الفصل العنصري غير قابل للتطبيق والبلد غير قابل للحكم (العنصري)"[26].

ألهم هذا النداء مجموعة واسعة من الشباب والمنظمات الطلابية والمدنية والرياضية والدينية، إلى جانب النقابات وغيرها من التشكيلات الاجتماعية. وفي منتصف الثمانينات تكرَّر إعلان حالة الطوارئ بسبب اتساع نطاق الاحتجاجات والانتفاضات. وبحلول أواخر العقد، حُظر العديد من هذه المجموعات، إما على الصعيد الوطني أو في بعض المقاطعات. ورغم الحظر، استمرت الاحتجاجات وأسهمت في خلق بيئة مناسبة للتمرُّد في بعض المناطق.

كانت هذه الاحتجاجات في مجملها سلمية، لكنها استخدمت تكتيكات عنيفة في بعض الحالات، مثل استهداف منازل وأشخاص متعاونين مع الشرطة أو

المستشارين المعينين من الحكومة. ثم تطورت البيئة الاحتجاجية مع انتشار مجموعات الحراسة المسلحة المدعومة من الدولة، خاصة تلك المرتبطة بحركة "إنكاثا" التي يقودها مانغوسوثو جاتشا بوثيليزي. فقد دأبت تلك المجموعات على مهاجمة النشطاء والأهالي؛ ما أدَّى إلى تشكيل وحدات دفاع ذاتي لا سيما في المناطق التي ينشط فيها المؤتمر الوطني الإفريقي.

انتقال حركة التحرُّر من الحظر إلى ساحة نضال جديدة

مع رفع الحظر عن الحركات التحرُّرية، مثل المؤتمر الوطني الإفريقي والمؤتمر الإفريقي الشامل والحزب الشيوعي الجنوب إفريقي وغيرها، عام 1990، وبدء المفاوضات بين حكومة الفصل العنصري وتلك الحركات، تغيرت طبيعة المقاومة. فقد شهدت جنوب إفريقيا، بين عامي 1990 و1994، ارتفاعًا هائلًا في منسوب العنف السياسي. فقد شنَّت مختلف فروع الدولة والمنظمات اليمينية المرتبطة بها وإدارات البانتوستان وغيرها من الجهات المستفيدة من النظام، هجمات ضد السكان المشتبه في دعمهم للنضال ضد سياسات الفصل العنصري وضد النشطاء والمنظمات المناهضة لتلك السياسات، وحتى ضد مركز التجارة العالمي في جوهانسبرغ، الذي كان يُستخدم مقرًّا للمفاوضات متعدّدة الأطراف بين الحركات التحرُّرية والأحزاب السياسية[27].

خلال تلك السنوات الأربع، كانت الأجواء السياسية أكثر توترًا ربما من أي فترة أخرى خلال عهد الفصل العنصري. ففي الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات في الغرف ومراكز المؤتمرات، قُتل نحو 14.000 شخص نتيجة العنف المضاد للثورة[28]. وفي الوقت الذي كانت بعض حركات المقاومة تعارض مسار المفاوضات الذي بدأ عام 1990، كان المؤتمر الوطني الإفريقي يرى أن جميع أشكال النضال يجب أن تؤدِّي في النهاية إلى عملية تفاوضية لنقل السلطة إلى حكومة منتخبة ديمقراطيًّا. وحتى البيان التأسيسي لمنظمة "رمح الأمة" رأى أن هدف الكفاح المسلح هو دفع الحكومة إلى التفاوض[29].

وبينما كان المفاوضون من الحركات التحرُّرية يسعون إلى تحقيق انتصارات على طاولة المفاوضات، كان نشطاء المجتمعات الأهلية في الشوارع يمارسون

الضغط على حكومة الفصل العنصري. وقد علَّق المؤتمر الوطني الإفريقي الكفاح المسلح رسميًّا عام 1993، عندما اتضح أن الانتخابات غير العنصرية وشيكة، بينما شارك المؤتمر الإفريقي الشامل في انتخابات 1994 دون أن يُوقف الكفاح المسلح رسميًّا. وإلى جانب حكومة الحزب الوطني، باتت حكومات البانتوستان هدفًا متزايد الأهمية لحملات الاحتجاج بسبب رفضها السماح بمزاولة النشاط السياسي الحر. واستمرت في قمع أعضاء حركات التحرُّر، رغم أن قادة تلك الحركات كانوا يجلسون على طاولة المفاوضات مع قادة البانتوستان أنفسهم.

خلال تلك السنوات، تشكَّلت خريطة نمطية للمفاوضات على النحو الآتي: بعد الصعوبات الكبرى في سير المفاوضات والفجوات، كان غالبًا ما يتمُّ إجبار الأطراف المتفاوضة على العودة إلى طاولة الحوار بواسطة أعمال عنف سياسي خطرة غير مرتبطة بالمفاوضات. من الأمثلة البارزة على ذلك اغتيال زعيم منظمة "رمح الأمة" والحزب الشيوعي الجنوب إفريقي، كريس هاني، عام 1993، الذي كاد يغرق البلاد في حرب أهلية، لكنه فعليًّا دفع الأطراف إلى العودة إلى المفاوضات. ومع كل حادثة من هذا القبيل، كانت العناصر الإصلاحية في النظام تقتنع أكثر أن عدم استمرار الحوار من شأنه أن يؤدِّي إلى حرب أهلية أو العودة إلى أسوأ مراحل نظام الفصل العنصري. وقد أسهم الاقتصاد الوطني، الذي كان يعاني بشدة بسبب العقوبات الدولية المفروضة على جنوب إفريقيا، في ترسيخ تلك القناعة، خاصة أن الحركات التحرُّرية لم تكن قادرة على التحكم في غضب الناس أو التخفيف من شعورهم بالإحباط.

وهكذا، بينما استمرت الحركة التحرُّرية في الضغط على حكومة الحزب الوطني خلال المفاوضات، استمر، في المقابل، العمل الجماهيري، على نحوٍ أبقى الناس العاديين مشاركين في العملية بأكملها. كما طرأت تغييرات على طبيعة الاحتجاجات وأهدافها خلال فترة المفاوضات بين عامي 1990 و1994. فقد بات من أهدافها الضغط كذلك على حركات التحرُّر لإجبارها على إظهار الشفافية والقبول بالاستشارة والاستماع لأصوات منظمات المجتمع المدني والمواطنين، خاصة النشطاء منهم. وأصبحت مواقع الاحتجاجات تشمل الشوارع وغرف

الاجتماعات ومراكز المؤتمرات؛ إذ كان الانتصار على طاولة المفاوضات مستحيلًا دون ضغط الشارع.

تعكس هذه الأشكال المختلفة من المقاومة استمرارية النضال في الفترة الممتدة بين خمسينات وتسعينات القرن العشرين كما تعكس التزام حركة التحرُّر بمبدأ العدالة.

خاتمة

قد تغري دراسة تجربة كفاح جنوب إفريقيا ضد الاستعمار والفصل العنصري بعض الباحثين بإقامة تمييز واضح بين النضال السلمي والنضال العنيف أو المسلح. لكن الواقع يشير إلى أن الفروق بينهما ليست حادة كما يتخيلها البعض. فالفترة من 1906 إلى 1960، التي يُنظر إليها عادة على أنها مرحلة مقاومة سلمية ضد الدولة، كانت في الواقع مليئة بالتمرُّد وأعمال العنف. وحتى الاحتجاجات السلمية، غالبًا ما كانت تنطوي على ممارسات عنيفة وسلوك قتالي تُطمس فيه الحدود بين العنف والسلم.

ومن العوامل المهمة كذلك في السياق الجنوب إفريقي، ذلك التفاعل بين الأبعاد السياسية والعسكرية للنضال، الذي أسهم، إلى حدٍّ كبير، في تطوير الحركة النضالية. وكان لالتزام جميع الحركات التحرُّرية، ربما باستثناء حركة المقاومة الإفريقية في عقد الستينات، بإعطاء الأولوية للجوانب السياسية على العسكرية، نتائج طويلة المدى على نشاط تلك الحركات في المنفى، وعلى النضال داخل البلاد، وعلى كيفية إجراء المفاوضات مع حكومات الفصل العنصري.

في هذا السياق، يجدر التذكير بأهمية استراتيجية "الأركان الأربعة للنضال"، بوصفها استراتيجية شاملة لإنهاء نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا. وقد ركَّز هذا الفصل على ركنيْ الكفاح المسلح والعمل السرِّي أكثر من ركنيْ التعبئة الجماهيرية والتضامن الدولي.

نقله إلى العربية كريم الماجري

المراجع

1. "Chief Bhambatha kaMancinza Zondi," *South African History Online*, n.d., https://www.sahistory.org.za/people/chief-bhambatha-kamancinza-zondi (accessed April 1, 2025).
2. South African Communist Party, "The Road to South African Freedom" (London: Inkululeko Publications, 1962), https://www.marxists.org/history/international/comintern/sections/sacp/1962/road-freedom.htm (accessed April 1, 2025).
3. Na'eem Jeenah, "Non-violence, Armed Struggle and Politics: A Conversation with Ronnie Kasrils," *Protest*, no. 1 (2021): 189, https://brill.com/view/journals/prot/1/1/article-p186_186.xml (accessed April 1, 2025).
4. Alistair Boddy-Evans, "Pass Laws During Apartheid" (2020), https://www.thoughtco.com/pass-laws-during-apartheid-43492 (accessed April 4, 2025).
5. Elizabeth S. Schmidt, "'Now You Have Touched the Women': African Women's Resistance to the Pass Laws in South Africa 1950-1960" (United Nations Centre Against Apartheid, 1983), https://www.sahistory.org.za/archive/african-womens-resistance-pass-laws-south-africa-1950-1960-elizabeth-s-schmidt (accessed March 25, 2025). See also Govan Mbeki, *The Peasants' Revolt* (London: Penguin Library, 1964), https://www.marxists.org/subject/africa/mbeki/peasants-revolt/ch09.htm (accessed March 26, 2025).
6. Govan Mbeki, *The Peasants' Revolt*.
7. Ben Turok, *Nothing but the Truth: Behind the ANC's Struggle Politics* (Cape Town: Jonathan Ball Publishers, 2003), 122.
8. Robin Kayser, *Land and Liberty! The Non-European Unity Movement and the Land Question, 1933–1976* (PhD diss., University of Cape Town, 2002), 95.
9. Luli Callinicos, *Oliver Tambo: Beyond the Engeli Mountains* (Cape Town: New Africa Books, 2012), 242.
10. Jeenah, "Non-violence, Armed Struggle and Politics," 191.
11. "Nelson Mandela Timeline 1950–1959," *South African History Online*, n.d., https://www.sahistory.org.za/article/nelson-mandela-timeline-1950-1959 (accessed April 3, 2025).
12. Parliament of South Africa, "Suppression of Communism Act No. 44 of 1950" (1950), https://disa.ukzn.ac.za/sites/default/files/pdf_files/leg19500717.028.020.044.pdf (accessed April 2, 2025).
13. Saleem Badat, *The Forgotten People: Political Banishment under Apartheid* (Leiden: Brill, 2013).
14. Raymond Suttner, *The ANC Underground in South Africa* (Johannesburg: Jacana Media, 2008).
15. "Nine Policemen Are Killed in Cato Manor Riots in Durban, Shortly before the Infamous Sharpeville Massacre," *South African History Online* (1960),

https://www.sahistory.org.za/dated-event/nine-policemen-are-killed-cato-manor-riots-durban-shortly-infamous-sharpville-massacre (accessed March 28, 2025).
16. Thembisa Waetjen, "What History Teaches Us about Shaping South Africa's New Cannabis Laws," *The Conversation*, November 30, 2020, https://theconversation.com/what-history-teaches-us-about-shaping-south-africas-new-cannabis-laws-150889 (accessed March 29, 2025).
17. Peter Delius, "Migrants, Comrades and Rural Revolt: Sekhukhuneland, 1950-1987," *Transformation* 13 (1990).
18. Anthony Sampson, *Nelson Mandela: The Authorised Biography* (Johannesburg: HarperCollins and Jonathan Ball, 1999), 270.
19. "Nelson Mandela's Military Training," Nelson Mandela Foundation, November 12, 2012, https://www.nelsonmandela.org/news/entry/nelson-mandelas-military-training (accessed March 29, 2025).
20. Nhlanhla Ndebele and Noor Nieftagodien, "The Morogoro Conference: A Moment of Self-Reflection," in *The Road to Democracy in South Africa*, vol. 1: 1960-1970 (Cape Town: Struik Publishers, 2005), 573-599.
21. African National Congress, "Report on the Strategy and Tactics of the African National Congress" (1969), https://renewal.anc1912.org.za/assets/Documents/Morogoro%20Conference%201969%20Strategy%20&%20Tactics%20Report.pdf (accessed March 25, 2025).
22. Padraig O'Malley, *The Heart of Hope* (2007), Nelson Mandela Foundation, https://omalley.nelsonmandela.org/omalley/index.php/site/q/03lv02167/04lv02264/05lv02303/06lv02304/07lv02305/08lv02311.htm (accessed March 31, 2025).
23. Michael Parks, "Rebels Attack Energy Plant in South Africa," *Los Angeles Times*, November 29, 1985, https://www.latimes.com/archives/la-xpm-1985-11-29-mn-4923-story.html (accessed April 2, 2025).
24. "How We Blew Up Koeberg (… and Escaped on a Bicycle)," *Mail & Guardian*, December 15, 1995, https://mg.co.za/article/1995-12-15-how-we-blew-up-koeberg-and-escaped-on-a-bicycle/(accessed April 1, 2025).
25. "African National Congress Timeline 1980-1989," *South African History Online*, n.d., https://sahistory.org.za/article/african-national-congress-timeline-1980-1989 (accessed March 30, 2025).
26. Oliver Tambo, "Address to the Nation on Radio Freedom, 22 July 1985," https://www.sahistory.org.za/archive/address-oliver-tambo-nation-radio-freedom-22-july-1985 (accessed March 20, 2025).
27. John Carlin, "AWB Invasion of Talks Puts De Klerk on the Spot," *The Independent*, June 27, 1993, https://www.independent.co.uk/news/world/awb-invasion-of-talks-puts-de-klerk-on-the-spot-awkward-questions-are-being-asked-john-carlin-writes-from-johannesburg-1494341.html (accessed March 28, 2025).

28. David Bruce, “Political Killings in South Africa: The Ultimate Intimidation,” Institute for Security Studies, October 2014, https://www.files.ethz.ch/isn/185397/PolBrief64.pdf (accessed March 29, 2025).
29. Command of Umkhonto we Sizwe, “Manifesto of uMkhonto we Sizwe” (1961), https://omalley.nelsonmandela.org/omalley/index.php/site/q/03lv02424/04lv02730/05lv02918/06lv02950.htm (accessed March 25, 2025).

مسارات الاستقلال في أميركا اللاتينية: الحلقات المركزية

برونو بيكليني

مقدمة

يكتسي مسار استقلال أميركا البرتغالية طابعًا فريدًا، ميَّز تاريخ المستعمرتين البرتغاليتين السابقتين اللتين شكَّلتا في البداية المملكة المتحدة للبرازيل والبرتغال والغارف، ولاحقًا الإمبراطورية اللوسو – برازيلية. وقد كان مسار استقلال أميركا اللاتينية ومنطقة الكاريبي طويلًا ومتعرّجًا، وتأثَّر بعوامل داخلية، مثل أدوار النخب الأوليغارشية التابعة لمراكز الهيمنة الغربية، وعوامل خارجية تشمل الضغوط الإمبريالية، والمضاربات في الأسواق المالية المحلية والأجنبية، وتحويل الاقتصاد إلى سلعة وأداة ضغط وتحكُّم سياسي. ومع تعدُّد حلقات المقاومة اللاتينية ضد المملكتين الإيبيريتين وتنوُّع أدواتها، كان البعد العسكري حاضرًا بقوة ليؤكِّد الطبيعة التحرُّرية لتلك الحرب، ولا يحصرها في برنامج سياسي محدّد.

في هذا السياق، يُسلِّط كفاح دول أميركا اللاتينية من أجل استقلالها الضوء على كفاح الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني الاستيطاني المدعوم من القوى الغربية. فدراسة حركات التحرُّر في أميركا اللاتينية تكشف عن خصائص مشتركة مع النضال الفلسطيني على أكثر من صعيد.

لتقديم قراءة شاملة في كفاح حركات التحرُّر اللاتينية وصراعها من أجل الاستقلال، يتناول هذا الفصل الحالات الآتية: حرب الغواراني – المبشّرين، وكفاح هايتي من أجل الاستقلال، والحرب المناهضة للاستعمار في المكسيك، ورابطة الشعوب الحرة الاتحادية، والثورة البوليفارية.

1. حرب الغواراني – المبشّرين

بدعم من اليسوعيين، تمكَّنت قوات الغواراني، في مدن "الإرساليات السبع"، التي تنتمي اليوم إلى ولاية ريو غراندي دو سول والولاية الجنوبية في البرازيل، من وقف تقدُّم الجيوش البرتغالية والإسبانية، التي أرسلت لترسيم الحدود الجديدة لأميركا اللاتينية، على إثر توقيع معاهدة مدريد لعام 1750. وعقب وصول الجيوش الإسبانية والبرتغالية إلى المنطقة وتمركزها في مواقعها، اندلعت حرب الغواراني عام 1754.

من الضروري، في هذا السياق، العودة إلى بدايات الاستعمار، لفهم الظروف التي أدَّت إلى اندلاع حرب الغواراني.

ففي عام 1494، قسمت معاهدة توردیسیلاس أميركا اللاتينية بين البرتغال وإسبانيا، ومنحت البرتغال شريطًا ساحليًّا ينتهي عند الموقع الحالي لمدينة لاغونا في ولاية سانتا كاتارينا البرازيلية. كانت الإرساليات أو "المستوطنات" التي أُنشئت في الأراضي الخاضعة للتاج الإسباني، عبارة عن قرى في الغابة، قبل أن تتحوَّل إلى مدن فيما بعد. وقد صُمِّمت تلك المستوطنات على هيئة هيكل استعماري للسيطرة على الشعوب الأصلية باستخدام الزعامات القبلية.

كانت مدن الإرساليات السبع جزءًا من مقاطعة اليسوعيين في باراغواي، وكانت تمتد عبر مناطق تشكِّل اليوم جزءًا من أربع دول هي: باراغواي، الأرجنتين، أوروغواي، والبرازيل. وقد شُيِّد في تلك المنطقة 30 تجمُّعًا، 23 منها على الضفة اليمنى لنهر الأوروغواي، في أراضٍ تحتلها اليوم باراغواي والأرجنتين. والسبعة الأخرى أقيمت على الضفة اليسرى للنهر، وهي الآن أراضي ريو غراندي دو سول وجمهورية أوروغواي. وقد وصف فولتير، المفكر المستنير المعروف بموقفه المعادي للكنيسة، تجربة اليسوعيين مع الغواراني، التي بدأت عام 1609 واستمرت حتى 1768؛ بأنها "انتصار للإنسانية".

أُصيب اليسوعيون بالدهشة من قدرة الغواراني على استيعاب التقنيات الجديدة. لذلك، تسارع تأسيس التجمُّعات في مناطقهم وكانت أفضل التجمُّعات الزراعية تنظيمًا في الأميركتين. في مجال تربية الماشية، كان تجمُّع ساو ميغيل وحده يذبح 40 رأسًا من

الأبقار يوميًّا تُخصَّص لاستهلاك السكان. وقد شكَّل كل تجمُّع جمهورية صغيرة مستقلّة، خاضعة للكونفدرالية في المسائل المدنية والجنائية والعسكرية فحسب. وكانت المسؤولية عن التجارة الخارجية من اختصاص الكونفدرالية كذلك.

وشهدت الصناعات ازدهارًا ملحوظًا، ففي البداية أنتجوا الملابس وطوَّروا المساكن والأدوات الزراعية وآلات الحدادة. وفي مرحلة لاحقة أقيمت المصاهر، ثمّ أُدخلت جميع الحرف اليدوية وعرفت ازدهارًا ونموًّا. كما أنهم صنعوا الساعات والمزامير والأبواق والعديد من الأدوات الأخرى، بمستوى يقارن بأفضل مما تنتجه المصانع الأوروبية. آنذاك، كتب مونتسكيو واصفًا جمهورية الغواراني بأنها كانت الدولة الصناعية الوحيدة في الأميركتين.

في عام 1753، ومع اقتراب مرسّمي الحدود الجديدة للبرتغال وإسبانيا من المنطقة التي تقع فيها مدينة باغي الحالية، على بعد 61 كلم من الحدود مع أوروغواي، أقام الغواراني حواجز لقطع الطريق أمام المستعمرين. وفي ذلك العام، نشطت كذلك مجموعات مكوّنة من السكان الأصليين ضد الجنود البرتغاليين والمستكشفين القادمين من ساو باولو في ريو باردو.

أمام تصاعد حركة المقاومة، قرَّر حاكم بوينس آيرس، خوسيه دي أندونيغي، وحاكم ريو دي جانيرو، غوميز فراير دي أندرادا، توحيد قواتهما وتنظيم جيشين عظيمين لغزو مدن الإرساليات السبع وحمل سكانها على تنفيذ الأوامر بتسليم الأراضي للبرتغاليين وإخلائها من اليسوعيين. ومع منح القوات العسكرية الحق في نهب ممتلكات السكان الأصليين، تزايدت أعداد الجنود الإسبان الأميركيين والبرتغاليين البرازيليين الراغبين في المشاركة في القتال. وفي 10 فبراير/ شباط 1756، منيت جمهورية الغواراني – المبشّرين بأكبر هزيمة، وفي الأشهر التالية دُمّرت مستوطناتها بالكامل، مع تركيز خاص على الجانب البرتغالي – البرازيلي[1].

2. ثورات أواخر القرن 18: توباك أمارو وتوباك كاتاري

انتشرت التوترات عبر جبال الأنديز خلال القرن 18، بعدما رفعت السلطات الاستعمارية الإسبانية من قيمة الضرائب، وفرضت زيادة في العمل القسري

المفروض على السكان الريفيين، وقلّصت استقلالية المجتمعات الأصلية. وردّا على ذلك، اندلعت عشرات الانتفاضات، لكن لم يقترب أي منها من **مستوى ثورة توباك أمارو**، التي اندلعت في 1780، **وانتشارها وتأثيرها**.

فقد اعتقد الإسبان أن ممارساتهم العنيفة وإعدامهم الوحشي لتوباك أمارو، سيطوي صفحة التمرُّد، ويقضي على ثقافة الكيتشوا، ويمحو ذاكرة إمبراطورية الإنكا في الأنديز، لكنهم أخطأوا في حساباتهم. فقد تمكَّن ثلاثة شبان من الفرار من الاعتقال، هم **ماريانو**، الابن الأكبر لتوباك أمارو وميكاييلا باستيداس، و**دييغو كريستوبال**، ابن عم توباك أمارو، و**أندريس مندغوري**، أحد أقارب ميكاييلا. هؤلاء الشباب، الذين كانوا في سن 18 و26 و17 على التوالي، تصدّوا لقيادة **المرحلة الثانية من التمرُّد**. وقد دفع ثلاثتهم بالثورة جنوبًا نحو بحيرة تيتيكاكا، وكانوا، على عكس توباك أمارو، أكثر استعدادًا لمهاجمة الإسبان والكريول وحتى رجال الدين. وقد ردّ الملكيون على التمرُّد بقسوة، وتحوَّلت المواجهة إلى **حرب شاملة لا يُؤخذ فيها أسرى**، وتحدّثت تقارير عديدة عن فظائع ارتكبها الطرفان بين عامي 1781 و1782.

في تلك الحرب، عانى الملكيون نقص الإمدادات في الهضاب الشاسعة وقمم جبال الأنديز الجنوبية، بينما واجه جنود ليما، الذين كانوا يقاتلون سيرًا على الأقدام، مشقة الارتفاعات التي تجاوزت 4000 متر، زيادة على البرد والجوع. ولا يزال المؤرخون حتى اليوم يناقشون **سبب فشل الثوار في السيطرة على كوسكو**، فمنهم من يرى أن النزعة الإنسانية لدى توباك أمارو ورغبته في تجنيب السكان سفك الدماء منعته من شن هجوم حاسم، بينما يرى آخرون أنه خشي أن يصبح الثوار عرضة لهجوم كبير من قوات ليما بعد السيطرة على المدينة. وربما أدرك ببساطة أنه لم يحظَ بالدعم الشعبي الذي كان يأمل أن يجده داخل المدينة.

وبعد أسبوع واحد من انسحاب الثوار، وصلت **قوة يزيد قوامها عن 15 ألف جندي** من ليما، وكانت مجهزة بالخيول والأسلحة وتحمل معها إمدادات تبدو غير محدودة. وكان الضباط إسبانًا، أما معظم الجنود فكانوا من أبناء الطبقات الفقيرة ومختلطي العرق في ليما. وقد استفادوا من دعم **ماتيو بوماكاوا**، القائد البيروفي

الذي حشد مئات المحاربين من السكان الأصليين. وبعد استراحة دامت بضعة أيام، تحرَّكت القوات الملكية جنوبًا لمطاردة الثوار.

نسَّق ثوار توباك أمارو عملياتهم مع **حركة الكاتاريين**، التي كانت تسيطر على أجزاء واسعة من منطقة شاركاس، والتي أصبحت لاحقًا تسمَّى بوليفيا. وقد تبادلوا المعلومات مع **توباك كاتاري**، الذي نظَّم الحصار الطويل والقاسي على لاباز. وقد اختير هذا الاسم "كاتاري" تكريمًا لتوباك أمارو وإخوة كاتاري الذين أشعلوا شرارة التمرُّد. وبحلول أواخر عام 1781، كان الملكيون ينظرون بقلق شديد إلى خريطة التمرُّد التي توسَّعت وأصبحت تمتدُّ من مناجم بوتوسي إلى كوسكو. وهكذا دخلت الانتفاضة **مرحلتها الأكثر عنفًا وقوة**.

أصبح **توباك أمارو وميكاييلا باستيداس** رمزين شديدي التأثير في نظر شعوب الأنديز. ولا تزال صورهما تزيِّن الرايات والملصقات التي تستخدمها حركات سياسية متعدّدة تمتدُّ من شمال الأرجنتين وتشيلي إلى الإكوادور، وصولًا إلى عموم بيرو. وتكاد جميع المنظمات التي تناضل من أجل حقوق شعوب الكيتشوا، التي كانت مُعبّأة للنضال ضد الألغام التي تفتك بالمجتمعات الأصلية، أو قاومت الاستعمار القديم، تستحضر اسمَي القائدين الثوريين باستمرار. وفي بوليفيا، أسهمت **الحركة الكاتارية**، التي استعارت اسمها من توباك كاتاري، تكريمًا لتوباك أمارو، في تعزيز فوز لويس آرسي الكاسح في 18 أكتوبر/ تشرين الأول 2020، الذي مهَّد لعودة الديمقراطية. لذلك، يمكننا القول إن **محاولات الإسبان وغيرهم محو ذكرى تمرُّد توباك أمارو قد باءت كلها بالفشل التام**[2].

3. كفاح هايتي من أجل الاستقلال:
حرب التحرير ودور فرنسا الاستعمارية

حقَّقت **معركة الاستقلال الهايتي** بالنّظر إلى اتساع نطاقها ومدى عمقها، سبقًا على جميع حركات التحرُّر الوطنية الأخرى في أميركا اللاتينية. بدأت الحرب عام 1790 مع **انتفاضة مختلطي العرق المحرّرين**، الذين أطلقوا حركة احتجاجية للمطالبة بالمساواة القانونية والسياسية، بقيادة **فنسنت أوغيه**، الذي كان حينها قد

عاد حديثًا من فرنسا. وقد أُلقي القبض عليه وعُذِّب على يد مالكي مزارع السكر. وفي أغسطس/آب 1791، اندلعت **ثورة واسعة قادها العبيد** من أجل الحرية. وعندما أعلن مبعوث لجنة السلامة العامة الفرنسية، **فيليسيتي سونتوناكس**، عام 1792، إنهاء العبودية في شمال جزيرة سان دومينغ، اندلعت حرب أهلية دامية بين **الأقلية البيضاء من طبقة البيكي** (التي تقابلها "كريول" بالإسبانية)، المتحالفة مع تجّار مختلطي العرق الأحرار، وبين **أغلب السكان المستعبدين**.

انطلقت المقاومة السوداء في مرحلتها الأولى بقيادة ضابط في الجيش الفرنسي منحدر من أصول مختلطة، يدعى توسان لوفرتور. وكان لوفرتور قد استولى على الحكم، وقسَّم المزارع الكبرى، وأدخل نظام العمل المأجور الحر بديلًا عن العبودية. وفي الحقبة النابليونية، مع بدايات القرن 19، ومع اقتراب إعادة تأسيس نظام العبودية في المستعمرة، دفعت جماهير العُمَّال السود الصراع نحو ثورة اجتماعية واقتصادية مشحونة عرقيًّا.

وفي يناير/كانون الثاني 1804، أعلن جان – جاك ديسالين، استقلال هايتي، رافعًا الراية الحمراء والسوداء على رأس جيش قوامه 100 ألف رجل. ولكن الثورة الهايتية انتهت لاحقًا إلى نتائج كارثية، خاصة مع الطابع اليعقوبي الجذري الذي اتسمت به أكبر انتفاضة شعبية شهدتها أميركا اللاتينية حتى ذلك الحين[3].

4. حرب المكسيك المناهضة للاستعمار

تُعدُّ التجربة المكسيكية واحدة من الحالات القليلة التي اتخذ فيها النضال المناهض للاستعمار شكل صراع طبقي أكثر منه صراعًا داخل الطبقات المالِكة. فقد كانت "مملكة إسبانيا الجديدة" (نويفا إسبانيا)، تُعدُّ أغلى ممالك مدريد الاستعمارية، وبفضلها ارتفع مردود إنتاج الفضة خلال القرن 18 من 5 ملايين بيسوس عام 1702 إلى ذروة بلغت 27 مليون بيسوس عام 1804. في تلك الفترة، أنتجت المناجم المكسيكية 67٪ من مجموع الفضة في القارتين الأميركيتين. وكانت غواناخواتو أكبر مُنتِج في العالم، فقد بلغ إنتاجها السنوي ما يعادل 17٪ من مجمل المعادن النفيسة في القارة. ومع مدِّ طريق التجارة بين أكابولكو ومانيلا، الذي ربط

العالمَ الهيسباني بالشرق، ازدادت أهمية المكسيك لدى إسبانيا أكثر من أي مكان آخر في الأميركتين، وذلك ما يفسِّر القسوة التي استخدمتها القوات الملكية في قمعها الوحشي لانتفاضة المكسيك الانفصالية.

لقد أدَّت صناعة التعدين واللامساواة الفاحشة في ملكية الأراضي إلى تركُّز الثروة الخاصة بأيدي الأوليغارشيات الإسبانية والمحلية. وكانت الكنيسة الكاثوليكية من كبار مُلاّك الأراضي والمُقرضين، زيادة على جبايتها الضرائب. أما السواد الأعظم من السكان، من معدومي الملكية والعاطلين عن العمل، فكانت تعيش في فقر مدقع. وبين عامي 1720 و1810 عانت المكسيك 10 أزمات زراعية، وأدَّت ندرة الذرة فيها والمضاربة على الأسعار إلى مجاعات مروّعة. فإذا كانت الفانيغا من الذرة تُباع بين 16 و21 ريالًا برازيليًّا في عام 1790، فقد ارتفع سعر الكمية نفسها في عام 1811 إلى 36 ريالًا برازيليًّا. وكان السكان الأصليون والمستيزو، الذين يشكِّلون 82٪ من عموم السكان، يعيشون أوضاعًا مزرية. وقد دفع الجوع والإذلال واليأس وغياب المساواة الاجتماعية بكثير منهم إلى دخول الساحة السياسية ومواجهة الحكم الاستعماري. وعن هذه الأوضاع، يقول المؤرخ البريطاني المتخصص في شؤون العالم الهيسباني، جون لينش، إن المكسيك كانت مستعمرة خالصة، فالإسبان هيمنوا على الكريول، والكريول هيمنوا على السكان الأصليين، وكانت المتروبول تستغلُّ الثلاثة معًا.

في 16 سبتمبر/ أيلول 1810، دعا الأب ميغيل هيدالغو إي كوستيا السكان الأصليين والمستيزو في منطقة دولوريس إلى الانتفاضة ضد سوء إدارة سلطات نائب الملك. جاء ذلك بعدما اكتشفت السلطات مشاركته، إلى جانب النقيبين إغناسيو ألندي وخوان ألدَاما، فيما عُرف بمؤامرة كويريتارو، فاضطر أعضاء تلك المجموعة إلى التحرُّك بسرعة. وفي خضمِّ الارتباك الذي صاحب اكتشاف العملية، لم يتردَّد كاهن دولوريس في مخاطبة الجماهير، فجمع أتباعه وهتف فيهم قائلًا: "تحيا أميركا، ويحيا فرناندو السابع، وتحيا الديانة، الموت لوكلاء الاستعمار". ولا يزال الجدل قائمًا حول مدى تَحدثِه صراحة عن الاستقلال، ولكن دعوته للتمرُّد كانت موجّهة إلى السلطة الاستعمارية وشركائها الكريول بشكل مباشر. بعد خطاب الكاهن هيدالغو، انطلق جمعٌ من الساخطين في مسيرة مسلّحة نحو

العاصمة، ولم يكن هو نفسه، ربما لم يكن يتخيَّل أهمية تلك الصرخة ودورها في تحريك القوى الاجتماعية التي كان يخاطبها.

في الأيام الأولى للثورة، استولى الثوار على سان ميغيل إل غراندي ثم سيلايا. وفي 23 سبتمبر/ أيلول، وصل أكثر من 23 ألف متمرِّد إلى غواناخواتو. وبعد خمسة أيام، تحصَّن الجنود الملكيون وعائلات النبلاء الإسبان في مخزن قمح يُعرف باسم ألخونـدِيغا دي غرانـاديتـاس. وفي وقـت لاحـق، اقتحمـت الحشـود ذلـك المخـزن وقتلت مئات الإسبان الذين لجؤوا إليه، وتعرضت غواناخواتو للنهب.

في 17 أكتوبر/ تشرين الأول، دخل الثوار بلد الوليد (موريليا)، وبنهاية ذلك الشهر، حين ظهروا قرب مدينة مكسيكو، بلغ عدد المقاتلين نحو 80 ألفًا. وتشير التقديرات إلى أن 60٪ من الثوار كانوا من الفلاحين الفقراء وعُمّال الزراعة من السكان الأصليين. وكانوا يفتقرون إلى التدريب العسكري، ولم يكن لدى كثيرين منهم سوى الأقواس والسّهام والرماح والسواطير والحجارة.

في 21 مارس/ آذار 1811، وأثناء انسحابهم، وقع هيدالغو والجيش المتمرِّد بأكمله في كمين وأُلقي عليهم القبض. وخضع كاهن دولوريس لمحاكمتين، إحداهما كنسية والثانية عسكرية. فقد اتهمه ديوان التفتيش المقدس بالهرطقة والارتداد والعصيان، بينما حكمت عليه المحكمة العسكرية بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى. وفي فجر 30 يونيو/ حزيران، أُعدم الكاهن، وعرض الملكيون رأسه مع رؤوس إغناسيو ألندي وخوان ألدَما وماريانو خيمينيث على زاوية مبنى ألخونـدِيغا دي غراناديتاس، حيث بقيت هناك مدة 10 سنوات.

يمكن أن نفهم أسباب صعود وسقوط هذه الحملة الأولى من حرب "إسبانيا الجديدة" المناهضة للاستعمار بالنظر في أهدافها وأدواتها وديناميات الطبقات الاجتماعية في المكسيك في تلك الفترة. فهيدالغو كان يدرك أن الحملة لم تكن تملك قاعدة اجتماعية سوى تلك التي يستطيع الفلاحون والسكان الأصليون توفيرها. لذلك، فرض كاهن دولوريس سلسلة من الإجراءات للحد من هيمنة الطابع الطبقي للثورة المسلحة، وتوحيد قواته من مختلف الفئات الاجتماعية، واستقطاب مزيد من الأتباع من بين عامة الناس، ولكنه لم يكن يملك القدرة على تنفيذ تلك الإجراءات.

فقد ألغى الإتاوة المفروضة على السكان الأصليين، وألغى إلزامية استخدام الورق المختوم، ورفع القيود عن إنتاج البارود. وفيما يتعلَّق بالأراضي الزراعية، أصدر أوامره بزراعة كل الأراضي المؤجرة التي تعود ملكيتها للسكان الأصليين، وطالب القضاة بتحصيل مبالغ إيجار تلك الأراضي فورًا، وقرَّر ألَّا يُجبر أي شخص من السكان الأصليين على تأجير أرضه. وأخيرًا، ألغى العبودية وهدَّد بتطبيق حكم الإعدام على المخالفين. وجاء في القانون المتعلق بتحرير العبيد: "على كل مَن يملك عبيدًا أن يمنحهم الحرية خلال 10 أيام، تحت طائلة الإعدام الذي سيُطبّق عند مخالفة هذا القانون".

وفي أغواكاتيو، ألغى الأب خوسيه ماريا موريلوس إي بافون، الذي كلَّفه هيدالغو بقيادة التمرُّد في الجنوب، نظام الطبقات. وفرض تعريف السكان، الأصليين وذوي الأصول المختلطة، بكونهم "جميعًا أميركيين"، مستثنيًا الأوروبيين. كما ألغى الضرائب وأبطل الديون المستحقة على أبناء البلاد للأوروبيين. وجاء في هذا الأمر أن "أي أميركي مدين بأي مبلغ للأوروبيين لن يكون مُلزمًا بسداده، وإذا حدث العكس، سيُدان الأوروبي بدفع ما عليه بأشد العقوبات". وحصر شغل الوظائف العامة في الأميركيين دون غيرهم.

لكن هذه الإجراءات دفعت بالكريول من ذوي الميول الاستقلالية إلى معارضة الثورة والوقوف علنًا إلى جانب الحكومة الاستعمارية، فقد أثار تقدُّم "جحافل السكان الأصليين، الذين كان البيض يعدّونهم مشرَّدين وسِكِّيرين، رعبًا بين معظم الكريول، خاصة أنهم كانوا يخلِّفون في كل مدينة آثار القتل في أوساط الفئات الموالية للإسبان، وكانوا يصادرون الممتلكات وينهبون الثروات، وينفّذون الإعدامات الفورية بحقِّ أعداء الثورة"[4].

5. ملحمة رابطة الشعوب الحرة

في العام 1813، عُقدت جمعية تأسيسية في بوينس آيرس، دُعي إليها مندوبون من جميع المدن التابعة للتاج الملكي الإسباني. وقبل ذلك، نظّم جوزيه جيرفازيو أرتيغاس، أحد أبرز رموز استقلال الأوروغواي، مؤتمرا للمنطقة الشرقية بهدف

تحديد المقترحات والمبادئ التي ستُعرض على الجمعية التأسيسية. وبالفعل، اتفق المؤتمرون على صياغة ما عُرف بتوجيهات أرتيغاس العشرين للعام الثالث عشر، المعروفة أيضًا باسم "توجيهات العام 13"، والتي حدّدت مبادئ الاستقلال ووضعت الأسس التي ستُبنى عليها الجمهورية والنظام الفدرالي. وقد حاولت تلك التوجيهات توضيح العلاقة بين مقاطعة "باندا أورينتال" (المقاطعة الشرقية) وبين المقاطعات المتحدة لريو دي لا بلاتا.

إلى جانب ذلك، قدَّمت توجيهات أرتيغاس مقترحًا فدراليًّا لتنظيم العلاقات بين مختلف المقاطعات، ضمن معاهدة كونفدرالية قادرة على كبح المصالح المركزية لبوينس آيرس وضمان سيادة باندا أورينتال، التي خصّها بصفة "مقاطعة". جدير بالذكر أنه في تلك الفترة، كانت فكرة السيادة متأثرة بتقاليد التاج الإسباني وبالقانون الطبيعي المنظم للعلاقات بين الأمم. أكَّدت تعليمات أرتيغاس من خلال مقترح التنظيم الفيدرالي، التوجُّه نحو الاستقلال وإعلان فك الارتباط عن التاج الإسباني، كما أكَّدت تبنِّي الشكل الجمهوري للحكم، لضمان الحقوق والحريات والأمن والسيادة لكل مقاطعة.

ولكن التعارض بين موقف أرتيغاس السياسي وموقف قيادة بوينس آيرس دفع أرتيغاس إلى إعادة التفكير في التنظيم السياسي "للشعوب" ذات السيادة. وقد قادته تجربته الكارثية في تشكيل كونفدرالية اعتمادا على "توجيهات العام 13" إلى توجيه مشروعه المتعلق بالرابطة الفدرالية نحو اعتماد نموذج الدولة الفدرالية بصيغتها الحديثة، كما تجسَّدت في "الدستور الثاني" للولايات المتحدة الأميركية. وفي العام 1815، صدرت مجموعة من اللوائح المنظمة للملكية الزراعية، قاد بموجبها أرتيغاس حملة لمصادرة أراضي ومواشي أولئك الذين عارضوه، ووزَّعها على مساندیه في شكل ملكيات صغيرة[5]. بذلك، هيّأ أرتيغاس الأرضية المناسبة لتنفيذ برنامجه، وضمن قاعدة شعبية لدعمه.

أعاد المشروع السياسي والاقتصادي لأرتيغاس تنشيط التجارة في الموانئ وربط المقاطعات بعضها ببعض. ولكن السيطرة على باندا أورينتال وتأسيس العصبة الفدرالية القائمة على المفاهيم الفدرالية ونظام الجمهورية أثارتا ردود فعل

البورتينوس والبرتغاليي – البرازيليين. في ذلك الوقت، كانت إنجلترا قد غيّرت سياستها تجاه أميركا الإسبانية، فبعد أن شجّعت الحركات الانفصالية بغرض السيطرة على الأراضي، باتت ترغب في فتح الأسواق أمام سلعها المصنّعة. لذلك، ومن أجل الدفاع عن مصالحها الاقتصادية وتهدئة الإقليم، توسّطت في النزاعات بين الدول اللاتينية الناشئة، بما يعود بفوائد أكبر على المصالح الإنجليزية.

في أواخر العام 1815، كان التاج البرتغالي يخطط لغزو باندا أورينتال بقوة عسكرية تقدّر بنحو 12 ألف رجل. وكان 40٪ منهم من المحاربين الأوروبيين القدامى، تحت قيادة الجنرال ليكور. وبعد عام 1820، أطلقت مجموعة من العسكريين والتجار الوطنيين والأجانب، الذين جمعهم تبنِّيهم قيم المساواة والجمهورية، مشروعًا جديدًا سيُشكِّل أساس قوة بوينس آيرس، ألا وهو الملكية الواسعة للأراضي وإنتاج المواشي[6].

6. سيمون بوليفار وأبطال غرناطة الجديدة (نيو غرناطة)

في 19 أبريل/ نيسان 1810، أعلنت الجونتا (المجلس العسكري) التي تشكَّلت يومها، تعيين سيمون بوليفار، برفقة لويس لوبيز مندز وأندريس بيلو، مفوضًا لدى الحكومة البريطانية. وبعد إتمام مهمته، عاد بوليفار من لندن في نهاية العام ذاته. وخلال عمله في إنجلترا، شهد عن قرب سير العمل بين المؤسسات. كان بوليفار أحد أشد المدافعين في الجمعية الوطنية في كاراكاس عن الاستقلال، الذي أعلنه الكونغرس في 5 يوليو/ تموز 1811.

انضم بوليفار إلى الجيش عام 1811 برتبة عقيد تحت قيادة ميرندا، وأسهم في إخضاع مدينة فالنسيا. وفي العام 1812، ورغم مقاومته الشديدة، فشل في منع سقوط مدينة بويرتو كابيو، التي كان يقودها، في أيدي القوات الملكية بسبب الخيانة. وفي منتصف 1812، استسلم الجنرال ميرندا للقيادة الإسبانية التي كان يقودها آنذاك، دومينغو دي مونتيفيردي.

وفي ميناء لا غويرا، شارك بوليفار، مع مجموعة من الضباط الشباب المتحمسين للقتال، في عملية عسكرية كادت تنتهي باعتقاله. ولكنه تمكَّن من

النجاة بفضل صديقه الدون فرانسيسكو إتوربي، الذي حصل له على جواز سفر مكّنه من مغادرة البلاد. انتقل بعد ذلك إلى كوراساو ثم إلى كارتاجينا دي إنديياز، حيث ألّف ونشر "مذكرات موجهة إلى مواطني غرناطة الجديدة من مواطن من كاراكاس". وتُعدُّ هذه المذكرات إحدى مؤلفاته الأساسية، التي عرض فيها عقيدته السياسية والمبادئ التي ستوجّه أفعاله في السنوات المقبلة.

بدأت بعد ذلك حملاته العسكرية المبهرة، تراوحت نتائجها بين الانتصارات والنكسات حتى عام 1818، وبداية من العام التالي توالت الانتصارات. فقد تمكَّن من تحرير ضفاف نهر ماغدالينا على رأس جيش صغير، واحتلَّ مدينة كوكوتا في فبراير/ شباط، ثم بدأ عملية تحرير فنزويلا في مايو/ أيار. إن سلسلة المعارك والمناورات البارعة التي قادته إلى النصر خلال ثلاثة أشهر، من حدود تاتشيرا إلى كاراكاس، التي دخلها يوم 6 أغسطس/ آب، تستحق بالفعل اسم "الحملة المدهشة"، التي ارتبطت باسمه لاحقًا.

عند مروره بتروخيو في يونيو/ حزيران، أصدر مرسوم "الحرب حتى الموت"، لتحفيز الشعور الوطني الناشئ لدى الفنزويليين. وقبل ذلك بوقت قصير، خلال مروره بمدينة ميريدا، هتف له الشعب بلقب المحرّر، وهو اللقب الذي أكَّدته بلدية كاراكاس والشعب رسميًّا في أكتوبر/ تشرين الأول 1813، والذي سيسجله التاريخ باسمه.

في الفترة الممتدة بين شهري أغسطس/ آب 1813 ويوليو/ تموز 1814، وهي الفترة التي سادت فيها الجمهورية الثانية، توالت سلسلة من أكثر الأحداث مأساوية في تاريخ فنزويلا. فقد اندلعت "الحرب حتى الموت"، واتسع نطاق المعارك والاشتباكات غير الحاسمة، الناجحة والفاشلة، بوتيرة سريعة. ورغم بعض الانتصارات، مثل تلك التي حدثت في أراوري وبوكاشيكا والمعركة الأولى لكارابوبو، والمقاومات البطولية، مثل التي شهدها المخيم المحصن في سان ماتيو ومدينة فالنسيا، اضطر كل من بوليفار والجنرال سانتياغو مارينو، الذي حرَّر سابقًا الجزء الشرقي من البلاد، إلى الاستسلام. فقد كانا يواجهان أعدادًا هائلة من القوات الملكية بقيادة خوسيه توماس بوفيس.

انتصر بوفيس في معركة لا بويرتا في يونيو/ حزيران 1814، واضطر الوطنيون لإخلاء مدينة كاراكاس. وجرّاء ذلك، حدثت هجرة واسعة النطاق إلى الجزء الشرقي من البلاد. هناك، وجد بوليفار ومارينو أن زملاءهما في الجيش يتجاهلون سلطتهما. ووجد "المحرّر" مرة أخرى ملاذًا أخويًّا في "غرناطة الجديدة"، حيث تدخل في النزاعات السياسية الداخلية بنجاح متفاوت، وتمكَّن من ضمِّ مدينة بوغوتا إلى المقاطعات المتحدة. وفي مايو/ أيار 1815، وأمام كارتاجينا، تخلَّى بوليفار عن القيادة لتجنب حرب أهلية.

وفي جامايكا، حيث كان معزولا، انتظر من مايو/ أيار حتى ديسمبر/ كانون الأول 1815، لحظة العودة مجدّدًا إلى ساحات المقاومة. في الأثناء، كان يتأمل مصير أميركا الإسبانية، وصاغ في سبتمبر/ أيلول رسالته الشهيرة من جامايكا، التي جمع فيها بين ماضي القارة وحاضرها ومستقبلها، بفهم عميق ورؤية استشرافية ثاقبة.

وبينما بثّت هزيمة نابليون في أوروبا ووصول جيش إسباني قوي إلى فنزويلا بقيادة الجنرال بابلو موريو روحًا جديدة في أنصار الملكية، توجَّه بوليفار إلى جمهورية هايتي بحثًا عن موارد لمتابعة القتال. فقدّم له رئيسها، أليخاندرو بتيون، الموارد المطلوبة بسخاء. بعد ذلك، قاد بوليفار حملة عسكرية جديدة انطلاقا من لوس كايوس، وتمكَّن في مايو/ أيار 1816 من الوصول إلى جزيرة مارغاريتا، التي عبرتها قواته إلى البر الرئيسي. وبعد استيلائه على كاروبانو، أصدر، في 2 يونيو/ حزيران مرسومًا يمنح الحرية للمستعبَدين، وصادق على المرسوم بعد فترة قصيرة. ثم واصلت حملته تقدُّمها نحو ميناء أوكوماري دي لا كوستا، حيث انفصل بوليفار عن معظم قواته واضطر إلى الإبحار من جديد. بعد ذلك عاد إلى هايتي، حيث نظّم حملة ثانية وصلت إلى جزيرة مارغاريتا في نهاية العام. وفي مطلع 1817، كان بوليفار قد وصل إلى برشلونة.

كان هدفه من تلك الحملة الاستيلاء على مقاطعة غويانا واستخدامها قاعدة لتحرير فنزويلا بالكامل. ففي يوليو/ تموز، استولت قواته على عاصمة المقاطعة، أنغوستورا، التي تُعرف اليوم باسم سيوداد بوليفار، وأعادت تنظيم الدولة. أنشأ

بوليفار مجلس الدولة، ومجلس الحكومة، والمجلس الأعلى للحرب، والمحكمة العليا للعدالة، والمحكمة القنصلية، وأصدر في يونيو/ حزيران 1818 صحيفة بعنوان "كوريو أورينوكو" (Correo de Orinoco). في الوقت ذاته، استمر في القتال، ليس ضد الإسبان فسحب، إنما كذلك ضد الفوضى التي تسللت إلى معسكره. ففي أكتوبر/ تشرين الأول 1817، وعلى إثر انعقاد محاكمة عسكرية، أُعدم الجنرال مانويل بيار، أحد القادة الجمهوريين الرئيسيين في أنغوستورا. وفي الفترة نفسها تلك، أصدر بوليفار قانون توزيع الأصول الوطنية، الذي ساعد على تعزيز الشعور الوطني.

وفي العام 1818، قاد بوليفار حملة عسكرية مركزية، فاجأ بها قائد القوات الملكية الجنرال موريو في كالابوزو. ومع ذلك، هُزم الجمهوريون في حصار سيمين. وبعد أيام، في رينكون دي لوس توروس، كاد بوليفار يُقتل على يد دورية ملكية في منتصف الليل. وفي 5 يونيو/ حزيران، عاد إلى أنغوستورا، حيث وصل وكيل دبلوماسي أميركي وعدد كبير من المتطوعين الأوروبيين.

في 15 فبراير/ شباط 1819، انعقد المؤتمر الثاني لفنزويلا، الذي دعا إليه بوليفار وألقى فيه خطابًا يُعدُّ من الوثائق الأساسية لأيديولوجيته السياسية، وفيه قدَّم كذلك مسودة دستور. وبعد فترة قصيرة من انعقاد المؤتمر، انطلق في الحملة التي حرَّرت "غرناطة الجديدة". وبعد معارك ضارية في غاميزة وبانتانو دي فارغاس خلال شهر يوليو/ تموز 1819، حقَّق بوليفار نصرًا حاسمًا في معركة بويكا يوم 7 أغسطس/ آب. وبعد أيام، دخلت قواته بوغوتا.

وبعدما ترك مقاطعات غرناطة الجديدة مكتملة التنظيم تحت قيادة الجنرال سانتاندر، عاد "المحرّر" إلى أنغوستورا، حيث أصدر الكونغرس، بناءً على اقتراحه، القانون الأساسي لجمهورية كولومبيا في ديسمبر/ كانون الأول 1819. وشملت تلك الدولة العظيمة جمهوريات فنزويلا وكولومبيا والإكوادور وبنما الحالية.

وقد تعزَّزت تلك الجمهورية بقيام الثورة الليبرالية في إسبانيا خلال شهر يناير/ كانون الثاني 1820. ثم تغيَّرت الأوضاع، وحقَّقت جيوش الجمهورية مكاسب ميدانية في أماكن كثيرة. فحوصرت كارتاجينا، وتحرَّرت ميريدا وتروجيو. وسعت

الحكومة الإسبانية الجديدة للتوصل إلى اتفاق سلمي مع الوطنيين. فوقَّع مفوضون من كلا الطرفين معاهدة هدنة لتنظيم إدارة الحرب في تروخيو خلال شهر نوفمبر/ تشرين الثاني 1820، التقى على إثرها بوليفار مع الجنرال موريو في سانتا آنا. وبعد أشهر، وعقب انتهاء الهدنة، انطلقت جيوش الجمهورية نحو كاراكاس. وفي 24 يونيو/ حزيران 1821، خاض بوليفار في سهل كارابوبو معركة أمّنت استقلال فنزويلا بشكل حاسم. ولجأ بقايا الجيش الملكي إلى بويرتو كابيو، ودخل المحرّر مسقط رأسه بانتصار وسط فرحة مواطنيه.

بعد ذلك الانتصار، توجَّه نحو الإكوادور، التي كانت لا تزال تحت السيطرة الإسبانية. وعبر ماراكايبو، توجَّه إلى كوكوتا، حيث كان الكونغرس مجتمعًا، ومن هناك إلى بوغوتا. وفي العام 1822، حاول جيشان وطنيان تحرير كيتو، فقاد بوليفار الجيش الشمالي، وقاد الجنرال أنطونيو خوسيه دي سوكر الجيش الجنوبي من غییاکیل. فكسرت معركة بومبونا، بقيادة بوليفار في أبريل/ نيسان، مقاومة الباستوسوس، بينما حسمت معركة بيتشينشا، التي انتصر فيها سوكر في 24 مايو/ أيار، تحرير الإكوادور، لتصبح جزءًا من جمهورية كولومبيا العظيمة.

وفي كيتو، التقى بوليفار مانويلا ساينز، التي كانت حبَّ حياته الكبير في سنواته الأخيرة. وفي 11 يوليو/ تموز، وصل بوليفار إلى غواياكيل، حيث التقى الجنرال خوسيه دي سان مارتين من بيرو. هناك، اجتمع القائدان المرموقان للاستقلال في أميركا اللاتينية، وناقشا على انفراد مستقبل غواياكيل، المقاطعة التي كانت قد أُدرجت بالفعل في جمهورية غراند كولومبيا. وبحلول منتصف 1823، تدهورت الأوضاع السياسية والعسكرية في بيرو بشكل كبير. فاستُدعي بوليفار، فانطلق من غواياكيل يوم 7 أغسطس/ آب ووصل إلى كالاو مع مطلع شهر سبتمبر/ أيلول. هناك، تفرّغ لتنظيم الجيش وقيادة العمليات العسكرية، وجعل قواته القادمة من غواياكيل النواة المركزية لتلك القوات.

في يناير/ كانون الثاني 1824، وبينما كان مريضًا في باتيفيلكا، على الساحل البيروفي، تلقَّى بوليفار نبأ انشقاق حصن كالاو لصالح القوات الملكية. ورغم ظروفه الصحية، أطلق صرخته الشهيرة "سأنتصر!" ولكن ليما سقطت في النهاية

بأيدي الملكيين، فعيَّن البرلمان البيروفي، قبل حلِّه، سيمون بوليفار حاكمًا بسلطات مطلقة لإنقاذ البلاد.

قبل بوليفار بتلك المسؤولية، وانسحب إلى تروخيو ليخطط لعملياته القادمة. وفي 7 أغسطس/آب 1824، شنَّ هجومًا في جونين، هزم فيه الجيش الملكي البيروفي. واستمرت حملته حتى دخل ليما واستعاد حصن كالاو. بالتوازي مع ذلك، وفي 9 ديسمبر/كانون الأول 1824، كان الجنرال سوكر في أيكواشو يضع ختمه النهائي على تحرير أميركا. أما بوليفار فقد دعا من ليما حكومات أميركا الإسبانية لإرسال مندوبين إلى المؤتمر المزمع عقده في بنما، والذي انعقد في يونيو/حزيران 1826.

بذلك، انتهت المرحلة العسكرية للاستقلال، وفي 10 فبراير/شباط 1825، وأمام البرلمان البيروفي في ليما، تخلَّى بوليفار عن السلطات اللامحدودة الممنوحة له. وبعد يومين، قرَّر البرلمان تكريم الجيش والمحرّر الذي قاده، لكن بوليفار رفض قبول المكافأة المالية المقدرة بمليون بيزوس. بعد ذلك، غادر العاصمة لزيارة أريكويبا وكوزكو والمقاطعات المعروفة آنذاك باسم بيرو العليا، والتي توحَّدت لاحقًا تحت قيادته وسُمِّيت بالجمهورية البوليفارية، وهي ذات الجمهورية التي نعرفها اليوم باسم بوليفيا.

وفي العام 1826، وضع بوليفار مسوّدة دستور للدولة الجديدة، تضمَّن أفكاره لتعزيز النظام وتطوير علاقات بوليفيا بالدول المستقلّة حديثًا. ولكن المرحلة الجديدة شهدت انقسامات حادة ونزاعات سياسية بين القادة الجدد وزعماء الأوليغارشية الكريولية. لذلك، ظلَّ هدف الوحدة اللاتينية، الذي دافع عنه بوليفار وسان مارتين، بعيدا، ولم يتحقَّق منه شيء، لأن النخب السياسية في القارة لم تتوافق عليه، بل فضَّل أغلبها التبعية للولايات المتحدة وللمنظومة الغربية بشقيها اللاتيني والأنغلوساكسوني، سعيا إلى الاندماج في النظام الدولي[7].

7. الثوابت والمتغيرات في حروب الاستقلال

ما يمكن ملاحظته في حروب الاستقلال، هو وجود مجموعة من الثوابت والمتغيّرات. فكلّما كانت مشاركة السكان الأصليين وذوي الأصول المختلطة

والفئات الواقعة في أسفل الهرم الاجتماعي في المستعمرات البرتغالية والإسبانية أكبر، كان النضال أكثر تعقيدًا، واحتلَّت الحقوق الاجتماعية مساحة أكبر في برامج حركات التحرُّر. وفي حالات كثيرة، تحوَّل النضال ضد الحكومات التابعة للتاج الملكي الإسباني، أو من أجل الاستقلال، في حالة الإمبراطورية اللوسو – برازيلية، إلى حروب أهلية. وكثيرًا ما خان مُلاّك الأراضي والأوليغارشيون القادة المحرِّرين بعد انتهاء المعارك التي خاضوها جنبا إلى جنب.

في هذا السياق، نلاحظ أن كثيرًا من دول أميركا اللاتينية لا تزال حتى اليوم، ونحن في نهاية الربع الأول من القرن 21، تحمل إرث ما بعد الاستعمار. ولا تزال النخب التابعة والمستعمَرة تزدري الإمكانات الهائلة لشعوبها وتستهين بتقاليدها المناهضة للاستعمار.

لقد كانت موجات تدفُّق المهاجرين، التي حدثت في أواخر القرن 19 وبدايات القرن 20، ذات أهمية كبيرة. لكنها في الوقت نفسه، عمَّقت الفجوة في مستويات الدخل بين البيض وغيرهم من الملوّنين. وكان من ضمن تلك الموجات المهاجرة جماعات عربية من بلاد كنعان الكبرى، ومنطقة المشرق، ومن فلسطين المحتلة حاليًّا ولبنان وسوريا. وبعد 25 عامًا من وصول أولى العائلات، أصبح جزء من هذا المكوّن حاسمًا في تأسيس روابط مستدامة مع أوطانهم الأصلية، ومع نضالات التحرُّر التي بدأت بعد الحرب العالمية الأولى وتداعيات اتفاقية سايكس – بيكو الإمبريالية.

ولا تزال دول أميركا اللاتينية ودول كثيرة في الشرق الأوسط، تعيش الهواجس نفسها. ففي أميركا اللاتينية، يسود اقتناع أن أغلب المجتمعات لا يمكنها صياغة مشروع سياسي وطني دون التحرُّر من النخب الوظيفية التابعة للولايات المتحدة والإمبريالية العالمية. وفي الشرق الأوسط، أقام الغرب محمية أميركية وقلعة متقدّمة في فلسطين، هي الدولة الصهيونية، التي ترتكب المجازر، وتبيد السكان الأصليين في ظلِّ استعمار استيطاني متواصل.

نقله إلى العربية كريم الماجري

المراجع

1. Amaro Dorneles, “Guaranitic War, the Forgotten Episode of the 18th Century [Guerra Guaranítica, esquecido episódio do século 18],” *Revista Adusp*, November 2018, 43–50, accessed April 28, 2026, https://www.adusp.org.br/files/revistas/62/04.pdf.
2. Charles Walker, “The Rebellion of Túpac Amaru Continues Alive [A rebelião de Túpac Amaru continua viva],” Jacobin Brasil, November 4, 2021, accessed April 28, 2026, https://jacobin.com.br/2021/11/a-rebeliao-de-tupac-amaru-continua-viva/.
3. Carlo Romani, “The Ideas of the French Revolution and the Latin American Independence Movements [As ideias da Revolução Francesa e os movimentos de Independência latino-americanos],” Centro de Ciencias Políticas, October 19, 2011, accessed April 28, 2026, https://www.academia.edu/2224476/As_id%C3%A9ias_da_Revolu%C3%A7%C3%A3o_Francesa_e_os_movimentos_de_Independ%C3%AAncia_latino_americanos.
4. “The Anticolonial Revolution in Mexico [A revolução anticolonial no México],” A Terra é Redonda, December 5, 2022, accessed April 28, 2026, https://aterraeredonda.com.br/a-revolucao-anticolonial-no-mexico/.
5. “Land Regulations of 1815 [Reglamento de Tierras de 1815],” Charoná Magazine, March 17, 2019, accessed April 28, 2026, https://ezequielsingman.blog/wp-content/uploads/2019/03/reglamento-de-tierras-de-1815.pdf.
6. Maria Medianeira Padoin, “Artigas, Federalism and the Instructions of the Year XIII,” paper presented at the 27th National Symposium of History, July 22-26, 2013, accessed April 28, 2026, https://www.snh2013.anpuh.org/resources/anais/27/1364683664_ARQUIVO_ANPUH2013-MMPadoin.pdf; see also: https://mas-historia.blogspot.com/2018/04/instrucciones-del-ano-xiii.html.
7. José Marcial Ramos Guedez, “Simon Bolívar and the Abolition of Slavery in Venezuela, 1810-1830,” paper presented at the VII National Conference on Research and Teaching in the Science of History in Memory of Marc Bloch, July 23-26, 1997, accessed April 28, 2026, https://bibliotecadigital.inah.gob.mx/janium/Documentos/IPGH/REHIAM_00_0125_1999_P007.pdf; see also: Luis Rubén Pérez Pinzón, “The Liberation Campaign of New Granada (1819-1821) through Colombian History Magazines,” Cuadernos de Historia, no. 52 (June 2020), accessed April 28, 2026, https://cuadernosdehistoria.uchile.cl/index.php/CDH/article/view/57539/61511/

جدلية الخصوص والعموم في حركات التحرر: المقاومة الفلسطينية في سياق النضال العالمي ضد الاستعمار

خلاصات مقارنة

عز الدين عبد المولى - الحاج محمد الناسك

رغم اختلاف الأزمنة والسياقات، يكشف التاريخ المقارن لحركات التحرُّر العالمية عن نقاط التقاء كثيرة، سواء بين استراتيجيات المقاومة وأدواتها، أو بين بنية الاستعمار وممارساته، دون إغفال الاختلافات التي بينها تبعًا لخصوصيات كل تجربة. يظهر ذلك جليًّا في الحالات التي تناولتها فصول هذا الكتاب، التي تناولت بالبحث تجارب المقاومة في فلسطين والجزائر والمغرب وجنوب إفريقيا وفيتنام وأميركا اللاتينية.

فرغم فرادة تجربة المقاومة الفلسطينية، على سبيل المثال، كونها الوحيدة التي انطلقت في مواجهة استعمار أوروبي تقليدي هو الاستعمار البريطاني، ثم استمرت إلى يومنا هذا في مواجهة احتلال إسرائيلي استيطاني حديث، ثمة أوجه شبه كثيرة تربطها بحركات المقاومة والتحرُّر في بقية بلدان العالم. هذا التلازم بين الخصوص وما يحيل إليه من تمايز، والعموم الذي يسلِّط الضوء على التشابه، توفِّره لنا المقارنة بين التجارب. والتقاط ذلك التلازم هو القيمة المعرفية التي يضفيها المنهج المقارن فيوسِّع من مجال رؤيتنا للظواهر ويزوِّدنا بأدوات تفسيرية لفهم المشتركات وكشف الفروق وترتيب مستويات الاختلاف الظرفية والبنيوية وفقًا للسياقات التاريخية والاجتماعية. من هذا المنظور، تكشف فصول الكتاب عن وحدة المقاومة وتعدُّدها في آن، وعن بنية الاستعمار الثابتة وتعدُّد سياقاته وأشكاله، من زاوية أخرى.

التشابه والتمايز في حركات التحرُّر

تشترك حركات التحرُّر، في مختلف السياقات التاريخية والاجتماعية، من فيتنام في جنوب شرقي آسيا، إلى حركة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيوني، مرورًا بالحركات التي قاومت الاحتلال الفرنسي والبريطاني والإسباني والبرتغالي في قارتي إفريقيا وأميركا اللاتينية، في ديناميات صراع غير متماثل حتَّمه الاختلال في ميزان القوى بين المستعمِر والسكَّان المحليين. كما تشترك في استخدام استراتيجيات مركَّبة تمزج، بتفاوت حسب ما يقتضيه السياق، بين المقاومة المسلَّحة والتعبئة الجماهيرية والدعم الخارجي.

يتجلَّى هذا التمازج بوضوح في التجربة الفلسطينية المعاصرة، التي جمعت بين استخدام أسلوب حرب العصابات، وبناء حاضنة جماهيرية قوية ومتماسكة، وتوظيف العامل الخارجي لدعم مقاومتها من خلال النشاط السياسي والإعلامي والثقافي. وفي هذا تقترب التجربة الفلسطينية أكثر من غيرها من التجربة الفيتنامية التي تكاملت فيها هذه الأبعاد الثلاثة. فقد أدار الفيتناميون العلاقة بين الكفاح المسلح والتعبئة الشعبية والدعم الدولي باقتدار كبير، فاستنزفوا العدو على المدى الطويل، كما عبَّر عن ذلك الجنرال جياب، بطل معركة "ديان بيان فو"، حتى تحقَّق الانتصار.

أما في الثورة الجزائرية فقد كان التركيز على العمل المسلح بارزًا. ورغم استخدامه في البداية على نطاق محدود ولا مركزي، فقد انتقلت المقاومة، حين تهيَّأت لها الظروف، إلى حرب تحرير شاملة، بجيش منظّم وقيادة مركزية. فاستطاعت هزيمة القوات الفرنسية وتفكيك بنية الاستعمار رغم طول أمده وطبيعته الاستيطانية. وفي المغرب، قدَّمت المقاومة الريفية بقيادة عبد الكريم الخطابي نموذجًا مبكرًا لحرب التحرير الشعبية. فقد استفاد الريفيون من طبيعة الجغرافيا المغربية وشكَّلوا تنظيمات محلية تخوض معاركها بمرونة تكتيكية عالية أنهكت القوات التي كانت تفوقها عددًا وعتادًا. أما في جنوب إفريقيا فكانت المقاومة مزدوجة، تعمل على واجهتين. فمن ناحية واجهت المستوطنين الهولنديين والبريطانيين، ومن ناحية ثانية، واجهت نظام التمييز العنصر. لذلك راوحت في

أساليبها بين العمل المسلَّح، والمقاومة السلمية غير العنيفة، والتفاوض السياسي والاجتماعي.

إلى جانب الاشتراك في استخدام عدد من الأساليب، التي تحوَّلت، مع تكرارها وتعميمها، إلى ما يشبه البنية الثلاثية للمقاومة (العمل المسلَّح، التعبئة الجماهيرية، الدعم الخارجي)، والتي استخدمتها حركات التحرُّر العالمية بتفاوت حسب اختلاف سياقاتها، تبرز خصوصية الحالة الفلسطينية في كثافة بُعدها الرمزي. فقد نَحَتَ الخطابُ الفلسطيني المقاوم، لا سيما مع توافر بيئة اتصالية وإعلامية لم تتوافر لغيرها من حركات التحرُّر، سرديةً عالمية للمقاومة. وأبدع في إدارة معركة الصورة وإنتاج المعنى وتشكيل الوعي وخلق سند قوي للصراع الميداني. وحتى إن لم تظهر آثار هذه السردية في تغيير معادلة الصراع على المدى القصير، فإن تأثيرها في العقول والقلوب والضمائر والقرارات ستكون حاسمة على المديين المتوسط والبعيد.

من عناصر التمايز بين حركات التحرُّر، اختلاف دور العامل الخارجي في إسناد المقاومة. فرغم حاجة المقاومة، عمومًا، لإسناد خارجي، شعبي ورسمي، لا يحتل هذا العامل نفس الموقع في استراتيجيات المقاومة، ولا يكتسي ذات القيمة في مساعدتها على مواجهة الاحتلال. فقد استفادت فيتنام من شبكة إسناد دولية واسعة تصدَّرتها الصين والاتحاد السوفياتي اللذان أمَّنا لها التسليح والتدريب والدعم اللوجستي. أما الجزائر، فقد واجهت سياقًا دوليًّا مختلفًا سمح بتدويل القضية ضمن مناخ الحرب الباردة، واستفادت أساسًا من الدعم العربي والإفريقي. وفي أميركا اللاتينية، لعب التنافس بين القوى الاستعمارية الأوروبية أدوارًا متناقضة وفَّرت هوامش دعم سياسي لحركات المقاومة. ولكنه، في المقابل أمعن في تفقير السكان الأصليين، ووسَّع نطاق الاستغلال الاقتصادي المشترك لثروات القارة في سياق تقدُّم حركة التصنيع في أوروبا وأميركا الشمالية. وما زالت الحالة الفلسطينية، رغم حضورها العالمي الواسع، تعاني اختلالًا واضحًا في موازين الدعم الدولي، نتيجة ارتباط الاحتلال الاستيطاني بتحالف قوى الهيمنة الغربية، وهو ما يعيد إنتاج شروط صراع غير متكافئ أكثر تعقيدًا.

من مظاهر الاختلاف الأخرى، طبيعة الاستعمار وحجم المواجهة ودرجة تعقيدها. فالمقاومة الفيتنامية لم تواجه قوة استعمارية واحدة، بل تصدَّت لقوتين كبيرتين متعاقبتين، هما فرنسا، بصفتها قوة استعمارية تقليدية، والولايات المتحدة، بوصفها القوة العالمية المهيمنة بعد الحرب العالمية الثانية. لذلك، يحمل انتصار المقاومة الفيتنامية على هاتين القوتين رمزية مزدوجة، فهو انتصار على الاستعمار الكلاسيكي والإمبريالية الحديثة معًا. أما مقاومة جنوب إفريقيا فقد امتدت على مدى ثلاثة قرون، فواجهت في البداية حركة استيطانية متعدّدة الجنسيات شملت قوى أوروبية بدءًا بالهولنديين، مرورًا بالبريطانيين وانتهاء بالفرنسيين والألمان. وفي فصلها الثاني، واجهت نظامًا عنصريًّا داخليًّا مسنودًا بمنظومة قانونية وسياسية واجتماعية قائمة على التمييز ضد السكان الأصليين. وفي الجزائر، دام الاحتلال الفرنسي أكثر من 130 عامًا واتخذ طابعًا استيطانيًّا قائمًا على جلب الفرنسيين والأوروبيين إلى الجزائر وتسليمهم الأراضي ومنحهم الامتيازات الواسعة. خلال تلك الفترة، واجهت المقاومة الشعبية والمسلحة ممارسات استعمارية وحشية وتعرَّضت لمجازر بشعة وصلت حدَّ الإبادة الجماعية، إلى جانب مواجهة سياسة التضييق والتهجير القسري ومصادرة الأراضي لصالح الوافدين من المستوطنين.

يُعدُّ السياق الأيديولوجي، الذي قاومت فيه حركات التحرُّر أشكالًا مختلفة من الاستعمار، عاملًا آخر للتمايز بينها. فالمقاومة الفيتنامية، لم تكن تخوض حرب استقلال فقط، بل كانت جزءًا من صراع بالوكالة في إطار الحرب الباردة. وفي حين ارتبطت فيتنام الشمالية بالمعسكر الاشتراكي، عدَّت الولايات المتحدة فيتنام الجنوبية جبهة متقدِّمة للدفاع عن النموذج الرأسمالي في جنوب شرق آسيا. وفي أميركا اللاتينية، امتزج النضال ضد الاستعمار الأوروبي بالبُعد الديني المسيحي وبالأيديولوجيا الماركسية. فتبلورت في أوساط المقاومة فضاءات فكرية أنتجت نظريات تحرُّرية، من بينها لاهوت التحرير، انتشرت خلال سبعينات القرن العشرين، وجمعت بين مثقفين ماركسيين وكهنة كاثوليك معارضين للاستعمار وللديكتاتورية معًا.

إدارة مرحلة ما بعد التحرُّر، نقطة اختلاف أخرى تمايزت إزاءها حركات المقاومة. فمآلات النضال الفيتنامي كانت أكثر تماسكًا واستدامة، مقارنة بتجارب

مقاومات أخرى. فقد نجحت فيتنام، بعد عقود من الحرب، في إعادة توحيد أراضيها تحت حكومة شيوعية مستقرة نسبيًّا، وتمكَّنت في وقت لاحق من تأسيس نموذج تنموي استفاد من الطفرة الاقتصادية لدول جنوب شرق آسيا. أما في إفريقيا، فقد انفجرت في بعض البلدان المستقلة، مثل أنغولا وموزمبيق، حروب أهلية طويلة الأمد. وفي حالات أخرى، نشأت منظومات استبدادية قمعية، واصلت سياسة المستعمر في تفقير الشعوب ونهب ثرواتها. ولا تزال النخب السياسية والعسكرية، التي تولَّت الحكم في عدد من البلدان، عاجزة عن بناء دول مستقلة ومستقرة، بسبب ارتباطها الوثيق وتبعيتها المستمرة للمراكز الاستعمارية القديمة.

بنية الاستعمار واستراتيجياته

تتعدَّد صيغ الاستعمار وتسمياته بين استعمار كلاسيكي واستعمار استيطاني أو إحلالي يقوم بإحلال سكان من الدولة المستعمِرة أو من غيرها محل السكان الأصليين، عن طريق الإبعاد والتهجير أو الإبادة الجماعية أو سواها من الأساليب، بهدف فرض السيادة وإحكام السيطرة على الأرض واستغلال مواردها. وتكشف الممارسات الاستعمارية القديمة في أميركا اللاتينية وإفريقيا وآسيا عن تشابهات بنيوية عميقة تتطابق مع ممارسات الاحتلال الصهيوني في فلسطين في الوقت الراهن.

لقد مثَّل التوغل الأوروبي في القارة الأميركية منذ عام 1492 لحظة تاريخية فاصلة اتسمت بظهور عنيف لِبِنْيَة قوة عالمية جديدة. ومنذ نشأتها، ارتكزت تلك البنية على منطق إقصائي يصادر الأرض من أصحابها ويسعى إلى تفكيك المجتمع الأصلي وإقامة مجتمع استعماري بديل فوق الأراضي المُصادَرة. وقد تلازم تركيز البنية الاستعمارية مع ممارسات منهجية تقوم على العنف الوحشي والتطهير العرقي لخلق ظروف مناسبة لنهب الممتلكات وإعادة إنتاج الثروة باستخدام أساليب مختلفة تتناسب مع البنية الاقتصادية الناشئة.

ولم تكن تلك الممارسات معزولة عن بنية ثقافية وفلسفية روَّجت لها الإرساليات المُمهِّدة للحركة الاستعمارية، تقوم على فكرة المركزية الأوروبية

وحتمية التقدُّم الخطي للتاريخ الإنساني، الذي يبلغ ذروته في أوروبا. وهذه الفكرة تستخدم تصنيفًا عرقيًّا يرى في الاختلافات بين الأوروبيين و"غير الأوروبيين" فروقًا طبيعية مرتبطة بالتفوُّق العرقي، وليست فروقًا ظرفية صنعتها حركة التاريخ وكرَّسها التفاوت الاجتماعي وأنماط السلطة. بناء على هذا المنطق، يُشْرَع للأوروبيين احتلال الشعوب "الأخرى"، واستغلال ثرواتها وتجريدها من أرضها وإبادتها إن اقتضى الأمر.

في كل الحالات الاستعمارية، أيًّا كانت الأشكال والسياقات، اشتغلت هذه البنى العميقة بطرق متشابهة. وكان العنصر المركزي في مختلف الحالات هو انتزاع الأرض. ففي الحالة اللاتينية، لم يُقتل السكان الأصليون أو يُهجَّروا فقط، بوصفهم المالكين التاريخيين للأرض، بل بوصفهم كائنات دنيا لا تملك حقوقًا متساوية مع المستعمر الأوروبي. وفي جنوب إفريقيا، ركَّز الاستعمار، ومن بعده نظام الفصل العنصري، منظومة قانونية جرَّدت السكان الأصليين من إنسانيتهم، ثم من أرضهم، وفرضت عليهم حمل تصاريح للتنقل فيها. وفي الجزائر، وظَّفت سلطات الاحتلال مختلف الوسائل والآليات القانونية والإدارية والعسكرية لإنجاح مشروعها الاستيطاني بالاستيلاء على أراضي الجزائريين وتحويل ملكيتها للوافدين من الفرنسيين. وقد أكَّد تلك الممارسات القائد الفرنسي، لويس لامورسي، بقوله: "الأمر الوحيد الذي يمكِّننا من تثبيت أقدامنا في الجزائر هو إسكان هذه البلاد بمعمِّرين مسيحيين يتولَّون زراعة الأرض"، وذلك بغاية ربطهم نهائيًّا بالمكان، فهو مقصد الاستعمار. أما في الحالة الفلسطينية، فتتكرَّر تلك الممارسات بصور أبشع، ولكن وفق ذات المنطق الإقصائي. فالمشروع الصهيوني الاستيطاني يقوم على فرضية تأسيسية تشرِّع "التدمير من أجل الإحلال". وقد عبَّر ثيودور هرتزل، الأب المؤسس للصهيونية السياسية، عن ذلك بقوله: "إذا أردتُ أن أستبدل ببناء قديم آخر جديدًا، فلابد أن أهدم قبل أن أبني".

إلى جانب الاستحواذ على الأرض بوصفه هدفًا مركزيًّا في بنية الاستعمار، شملت ممارسات المستعمرين في مختلف الحالات تركيز نظم استغلالية للتحكُّم في قوة العمل. ففي أميركا اللاتينية، شكَّلت مؤسسة "الإنكوميندا" أداة أساسية في هذا السياق، ومنحت الغزاة الإسبان حق فرض الضرائب على العُمَّال وتحصيلها بأنفسهم،

وتسخير عمل السكان الأصليين مقابل "الحماية والتنصير". ومع مرور الوقت، تحوَّلت هذه المؤسسة إلى منظومة لتكريس العبودية وممارسة التعذيب وارتكاب المجازر في حقِّ السكان الأصليين. ونتيجة لظروف العمل غير الإنسانية، وانتشار الأوبئة التي فاقمها غياب الرعاية الصحية للعُمَّال، أسهمت الإنكومينديا وأمثالها من المؤسسات الاستعمارية، في انهيار ديمغرافي كارثي في بعض بلدان أميركا اللاتينية.

وفي فلسطين، مارس الاحتلال الإسرائيلي التحكُّم في منظومة العمل بأشكال مختلفة، منها الطرد الجماعي للعُمَّال وأهاليهم، والاختطاف المتكرّر، والاعتقال الإداري. وقد أشار مؤرِّخون، مثل إيلان بابيه، إلى أن هذه المنظومة جرى تصميمها بهدف بناء مجتمع قومي يهودي شبه مستقل، على حساب السكان العرب المحيطين به. نتيجة لذلك، يجرى الضغط على المؤسسات اليهودية بشكل منهجي لمنعها من تشغيل العُمَّال من غير اليهود، رغم أن العُمَّال العرب يتقاضون أجورًا أدنى من غيرهم. وهكذا، نشأت القوة البنائية المحرِّكة للمشروع القومي اليهودي من عملية التدمير الممنهج لقوة العمل التي كان يملكها سكان فلسطين الأصليون.

في سياق هذه المقارنة، يبرز تشابه آخر في بنية الاستعمار، يتعلَّق بدور بعض النخب الوكيلة، سواء تحت الاحتلال، أو في حقبة ما بعد الاستعمار. ففي أميركا اللاتينية، انخرطت قطاعات مهمة من النخب المحلية في تحالفات مع الولايات المتحدة، ضمن نظام رأسمالي عالمي تُعدُّ فيه الطاقة والموارد الطبيعية عناصر حيوية. وبعد خروج المستعمر، اصطفَّت النخب التي تولَّت زمام السلطة في الدول المستقلة حديثًا إلى جانب المصالح الأميركية والأوروبية على حساب مصالح أوطانها ودولها الناشئة. وقد حال ذلك الاصطفاف دون كسر منظومة التبعية، وتحقيق شروط الاستقلال الفعلي، وإقامة العدالة الاجتماعية لفائدة الشعوب المحرَّرة. وهذا الدور الذي لعبته بعض النخب في دول أميركا اللاتينية ليس استثناء. فقد لعبت النخب التي حكمت عددًا من دول إفريقيا المستقلة أدوارًا مماثلة، ورسَّخت تبعية أوطانها للدول الاستعمارية. وبدلًا من ترسيخ استقلالها، ساعدت على استمرار نظام الهيمنة العالمي وتكريس سياسات الاستغلال والنهب المقنَّع.

المقاومة الفلسطينية في سياق حركات التحرر العالمية

دراسة مقارنة في البنى والاستراتيجيات

جدول مقارن للأبعاد التحليلية الرئيسية

الأبعاد التحليلية	فلسطين	الجزائر (1962–1830)	فيتنام (1975–1945)	جنوب إفريقيا (1994–1652)	أمريكا اللاتينية (القرن 19–20)	المغرب (الريف) 1926-1921
طبيعة الاستعمار	استعمار استيطاني إحلالي مستمر	استعمار استيطاني مباشر تابع لفرنسا	استعمار خارجي متعدد (فرنسي ثم أمريكي)	استعمار استيطاني داخلي قائم على الفصل العنصري	استعمار استيطاني استغلالي	استعمار مزدوج (إسباني/ فرنسي) بطابع عسكري
هدف المشروع الاستعماري	السيطرة على الأرض وإحلال مجتمع استيطاني	دمج الجزائر كجزء من فرنسا	الهيمنة السياسية والاقتصادية	تكريس هيمنة الأقلية البيضاء	استغلال الموارد وإعادة تشكيل السكان	السيطرة العسكرية وبسط النفوذ
طبيعة الصراع	صراع مفتوح طويل الأمد	صراع تحرري حاسم	صراع تحرري طويل الأمد	صراع حقوقي وسياسي متعدد الأبعاد	صراعات استقلال متعددة	تحرر مبكر ومكثف
النمط العسكري	حروب غير متماثلة ذات طابع مركب	حرب تحرير وطنية قائمة على حرب العصابات	حرب شعبية قائمة على الاستنزاف وحرب العصابات	محدود عسكريًا ثم تحول سياسي لاحق	حروب تقليدية مع تحالفات	حرب عصابات مدعومة بتنظيم شبه نظامي
التعبئة الجماهيرية	مرتفعة ومستمرة تاريخيًا	شاملة ومركزية	واسعة وعميقة	متدرجة ومتعددة الفئات	متفاوتة حسب الحالة	محلية قوية
التنظيم السياسي	تعددية فصائلية مع غياب مركزية كاملة	جبهة تحرير وطنية موحدة	قيادة مركزية حزبية	تنظيمات سياسية وجماهيرية (ANC)	نخب ثورية وتحالفات إقليمية	قيادة مركزية كاريزمية (عبد الكريم الخطابي)
الدعم الدولي	محدود ومتذبذب	دعم عربي ودولي مؤثر	دعم اشتراكي واسع	دعم دولي متزايد ضد الفصل العنصري	متغير	محدود مع صدى إعلامي
الاستراتيجية العامة	استنزاف طويل الأمد دون حسم	استنزاف مقرون بحسم عسكري وسياسي	استنزاف طويل الأمد مع دمج السياسي والعسكري	نضال متعدد الأشكال (سلمي/عسكري/سياسي)	ثورات استقلال متباينة	تعبئة واستنزاف مع إدارة مناطق محررة
النتيجة	صراع مفتوح غير محسوم	استقلال كامل (1962)	انتصار شامل (عسكري وسياسي)	تفكيك نظام الفصل العنصري	استقلال سياسي مع استمرار التبعية	إنجازات عسكرية رغم عدم تحقيق استقلال شامل آنذاك
البعد الرمزي/الخطابي	مرتفع (هوياتي/ديني/تحرري)	وطني تحرري	أيديولوجي ثوري	حقوقي إنساني	قومي تحرري	وطني تحرري مبكر
الاستمرارية الزمنية	طويلة الأمد (أكثر من قرن)	قصيرة نسبيًا (7–8 سنوات حاسمة)	طويلة (عدة عقود)	طويلة وتدريجية	طويلة ومتقطعة	قصيرة (حوالي 5 سنوات)
النموذج النظري	نموذج صراع استيطاني مفتوح	نموذج التحرر الكلاسيكي	نموذج حرب الشعب	نموذج التحول البنيوي	نموذج الاستقلال المركب	نموذج تمهيدي لحرب العصابات

خلاصة تحليلية

تُظهر المقارنة أن التجربة الفلسطينية تجمع بين خصائص متعددة من نماذج التحرر، لكنها تتفرد بطبيعة استعمار استيطاني إحلالي مستمر وصراع مفتوح طويل الأمد. كما تتداخل فيها الأبعاد العسكرية والسياسية والشعبية والرمزية والإعلامية، دون الوصول إلى حسم نهائي، بخلاف النماذج الكلاسيكية التي انتهت بالاستقلال السياسي

أشكال التفاعل الرئيسية في النماذج المقارنة

- **نموذج حرب العصابات التمهيدي:** مقاومة مسلحة في إطار زمني محدود
- **نموذج الاستقلال المركب:** استقلال سياسي مع استمرار التبعية الاقتصادية والسياسية
- **نموذج التحول البنيوي:** نضال متعدد الأشكال يؤدي إلى تحول سياسي واجتماعي
- **نموذج حرب الشعب:** استنزاف طويل الأمد مع تعبئة شعبية وتنظيم مركزي
- **نموذج التحرر الكلاسيكي:** حرب تحرير وطنية تنتهي بالاستقلال
- **نموذج صراع استيطاني مفتوح:** حروب غير متماثلة طويلة الأمد

إنفوغراف مُنتَج بالذكاء الاصطناعي

هذا الكتاب

يقدِّم هذا الكتاب قراءة تحليلية معمَّقة للمقاومة الفلسطينية من خلال إدراجها ضمن الإطار الأوسع لحركات التحرر العالمية، مستندًا إلى مقاربة تاريخية مقارنة تكشف عن البنى العميقة التي تحكم تشكُّل الظواهر المقاومة وتطورها. ينطلق العمل من حدث "طوفان الأقصى" بوصفه لحَظة مفصلية أعادت تشكيل موقع القضية الفلسطينية في النظامين الإقليمي والدولي، ويفتح أفقًا لفهم التفاعلات المتبادلة بين السياقات المحلية والتحولات العالمية، بما يجاوز القراءات الاختزالية التي تعزل الحدث عن جذوره التاريخية الممتدة.

يعتمد الكتاب على تحليل مقارن لتجارب متعددة في العالم العربي وآسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، بما يتيح تفكيك أنماط الاستعمار والمقاومة، والكشف عن أوجه التشابه والاختلاف في إستراتيجيات الفعل التحرري. وتبرز أهميته في تقديم إطار تفسيري مركَّب يربط بين التاريخي والراهن، ويعيد قراءة التجربة الفلسطينية ضمن سياق عالمي متحوِّل، بما يسهم في بناء فهم أعمق لديناميات الصراع، وإدراك موقعها في التحولات الجارية في موازين القوة والشرعية على المستوى الدولي.

يأتي هذا العمل في سياق مشروع بحثي أطلقه مركز الجزيرة للدراسات في وقت مبكر بعد "طوفان الأقصى"، انطلاقًا من إدراك أن تداعياته تتجاوز حدود الاحتلال والإقليم، وتمتد إلى مستويات أوسع في بنية التفاعلات الدولية والتحولات الجيوسياسية الجارية. وفي هذا الإطار، يسعى الكتاب إلى الإسهام في تعميق فهم تجارب المقاومة عمومًا، وتجربة المقاومة الفلسطينية على وجه الخصوص، من خلال قراءة تربط بين السياقات التاريخية والتحولات العالمية الراهنة.

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES
studies.aljazeera.net

ISBN: 978-614-01-3876-6
9 786140 138766